بحوث ميسرة في

الإعجاز القرآني

وفقاً للمفردات المقررة في قسم علوم القرآن
كلية التربية للعلوم الإنسانية

تأليف
د. فلاح عبد الحسن هاشم

دار المجتبى للطباعة والنشر

د. فلاح عبد الحسن هاشم
الإعجاز القرآني
دار المجتبى للطباعة والنشر

بحوثٌ مُيسّرةٌ في

الإعجاز القرآني

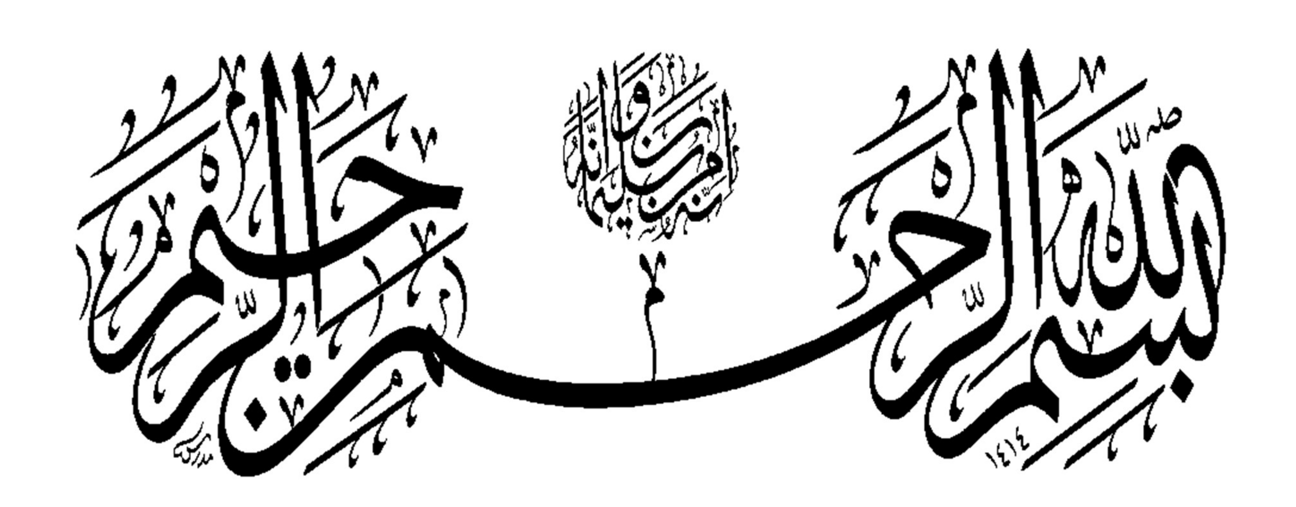
وفقاً للمُفردات المقرّرة في قسم علُوم القُرآن

كُلية التربية للعلوم الإنسانية

جامعة البصرة

د. فلاح عبد الحسن هاشم

عنوان الكتاب: بحوثٌ مُيسرّة في الإعجاز القرآني
وفقاً للمفردات المقررة في قسم علوم القرآن
المؤلف: د. فلاح عبد الحسن هاشم
الطبعة: الأولى/ ٢٠٢٤م - جمادى الأولى ١٤٤٦هـ
دار النشر: دار المجتبى للطباعة والنشر والتوزيع
ISBN: 978-9922-21-454-2


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يسرّني أن أقدّم إلى القرّاء الكرام كتاب "بحوث ميسرة في الإعجاز القرآني"، وهو ثمرة جهدٍ علمي متواصل استقيته من محاضراتي في قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية بجامعة البصرة. يهدف هذا الكتاب إلى تقديم دراسةٍ شاملةٍ وميسرةٍ في موضوع الإعجاز القرآني، وموجهةٍ بشكل خاص إلى طلبة الدراسات الدينية، وقسم علوم القرآن في كلية التربية للعلوم الإنسانية، ومفيدة للباحثين والمهتمين بهذا المجال عموماً.

يتميّز هذا الكتابُ باستيعابه لجميع مفردات مادة الإعجاز القرآني المقررة في قسم علوم القرآن، مع الحرص على تقديم المحتوى بأسلوب سهل وواضح، دون المساس برصانة المادة العلمية ودقّتها. متوخياً تناول جميع جوانب الإعجاز القرآني بشمولية وعمق، مراعياً التسلسل المنطقي في عرض المواضيع، مما يجعله مصدراً قيماً للدارسين والباحثين في فهم هذا الموضوع الحيوي.

وهذا الكتاب يأتي استكمالاً لكتابي السابق "دراسات في علوم القرآن"، وعلى الرغم من أن موضوع الإعجاز القرآني يُعدُّ جزءاً لا يتجزأ من علوم القرآن، إلّا أنني آثرت إفراده في كتابٍ مستقل؛ لإبراز أهميته وإعطائه المساحة التي يستحقها من البحث والدراسة، وليكون إسهاماً في إثراء المكتبة الإسلامية بمرجع متخصص في هذا المجال.

إن الغاية من هذا العمل هي تيسير وتعميق فهم الإعجاز القرآني للقارئ في أبعاده المختلفة، مع الحفاظ على الأصالة العلمية والعمق المعرفي. وقد سعيت جاهداً إلى تقديم المادة العلمية بصورة متكاملة تجمع بين النظرية والتطبيق، مستعيناً بالأمثلة التوضيحية والشواهد القرآنية لترسيخ المفاهيم وتقريبها إلى الأذهان.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به طلاب العلم والباحثين، وأن يكون إضافةً نوعيةً في مجال الدراسات القرآنية. والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات.. ٧

أولاً: بحوث تمهيدية... ١٥

١-أهمية بحث الإعجاز القرآني.. ١٥

٢-الهدف من بعثة الأنبياء... ١٦

٣- ثلاثة آراء في الهدف من بعثة الأنبياء ١٧

٤-دلائل المعجزات النبوية... ٢٠

٥-الحكمة الإلهية تقتضي تنوع المعجزات النبوية ٢١

٦-تناغم المعجزات النبوية مع ثقافة العصر ٢٢

٧- معجزة نبي الإسلام تفوق مهارات العرب اللغوية ٢٣

٨- أسباب كون المعجزة دليلاً على صدق النبوة ٢٣

٩- صور ووجوه إعجاز القرآن.. ٢٤

ثانيًا: مفهوم الإعجاز والمعجزة والسحر والكرامة.. ٢٥

١-الإعجاز لغة ٢٥

٢- الإعجاز اصطلاحًا... ٢٥

٣- مفهوم المعجزة في اللغة والاصطلاح.. ٢٧

٤- شرائط المعجزة الاصطلاحية.. ٣٠

٥- الفرق بين الإعجاز والمعجزة... ٣١

٦- الفرق بين المعجزة والكرامة ٣١

٧- الفرق بين المعجزة والسحر... ٣٢

٨- اعتراض على الفرق بين المعجزة والكرامة.. ٣٢

ثالثًا: مفهوم التحدي وخصائص المعجزة النبوية.. ٣٥

١- آيات صريحة في التحدي ٣٥

٢- عموم التحدي في الإعجاز للعرب وغيرهم... ٣٦

٣- القرآن أعظم معجزات نبي الإسلام ٣٨
٤- معجزة القرآن هي الوحي ذاته لا غيره ٣٩
٥- معجزة القرآن عقلية لا حسية ٣٩
٦- أسباب كون القرآن معجزة فكرية وعقلية ٤٠
رابعًا: الإعجاز القرآني ضرورة دفاعية ٤١
إعجاز القرآن في أبرز دراسات المتقدمين والمتأخرين ٤٥
١- الإعجاز في القرن الثالث الهجري ٤٥
٢- الإعجاز في القرن الرابع الهجري ٤٨
٣- الإعجاز في القرن الخامس الهجري ٥١
٤- الإعجاز في القرن السادس الهجري ٥٤
٥- الإعجاز في القرن السابع الهجري ٥٨
٦- الإعجاز في القرن الثامن الهجري ٦١
٧- الإعجاز في القرن التاسع - نهاية القرن الثالث عشر الهجري ٦٣
٨- الإعجاز القرآني في العصر الحديث وأبرز العلماء ٦٦
أ- الطنطاوي جوهري ٦٧
ب- موريس بوكاي ٦٨
ج- محمد الشعراوي ٦٩
د- محمد عبده ٧٠
هـ- مصطفى صادق الرافعي ٧٣
و- سيد قطب ٧٦
ز- أمين الخولي ٧٩
ح- محمد دراز ٨٢
إعجاز الصرفة ٨٩

أولاً: مفهوم الصرفة ٨٩
ثانيًا: منشأ فكرة الصرفة ٨٩
ثالثًا: العلماء المشهورون بإعجاز الصرفة ٩٢
١-النظّام البصري المعتزلي ٩٢
٢-السيد المرتضى ٩٣
٣- ابن حزم الأندلسي ٩٥
٤- ابن سنان الخفاجي ٩٦
رابعًا: العلماء غير المشهورين بإعجاز الصرفة ٩٧
١-الجاحظ (٢٥٥هـ) ٩٧
٢-القاضي عياض اليحصبي (٥٤٤هـ) ٩٨
٣-الشيخ المفيد (٤١٣هـ) ٩٨
٤- الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) ٩٩
٥- الغزالي أبو حامد (٥٠٥ هـ) ١٠٠
٦- الماوردي (٤٥٠هـ) ١٠١
٧- الجويني (٤٧٨ هـ) ١٠١
٨- الفخر الرازي (٦٠٦هـ) ١٠١
خامسًا: الآراء في معنى إعجاز الصرفة ١٠٣
١- صرف الهمم والدواعي ١٠٣
٢- صرف علوم الفصاحة والنظم ١٠٤
٣- صرف القدرة التكوينية ١٠٦
سادسًا: الاعتراضات والإشكالات على الصرفة ١٠٦
الاعتراض الأول ١٠٦
الاعتراض الثاني ١٠٧

الاعتراض الثالث ١٠٨
الاعتراض الرابع ١٠٨
الاعتراض الخامس ١٠٩
الاعتراض السادس ١١٠
الاعتراض السابع ١١١
الاعتراض الثامن ١١١
الاعتراض التاسع ١١٢
الإعجاز البياني في القرآن الكريم ١١٥
أولاً: مفهوم الإعجاز البياني وتطوره وعناصره ١١٥
١-مفهوم البيان وتطوره ١١٥
٢- عناصر الإعجاز البياني ١١٩
ثانيًا: الإعجاز البياني في بلاغة القرآن وفصاحته ١٢٠
١-مفهوم البلاغة والفصاحة والفرق بينهما ١٢٠
٢- معنى أن القرآن معجز في الفصاحة والبلاغة ١٢٥
ثالثًا: الإعجاز البياني في نظم القرآن وأسلوبه ١٢٦
١-الإعجاز البياني في نَظْم القرآن ١٢٦
٢- الإعجاز البياني في أسلوب القرآن ١٤٥
الأساليب التعبيرية في القرآن ١٥١
أولاً: أسلوب التقديم والتأخير ١٥١
١-أهمية أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم ١٥٣
٢-أهم دواعي التقديم في الكلام القرآني ١٥٤
ثانيًا: أسلوبُ الذِكْر والحذفِ ١٥٩
١-الحذف في اللغة والاصطلاح ١٥٩

٢-أنواع إيجاز الحذف ١٥٩
٣-أهمية الحذف وفوائده اللغوية ١٦٠
٤- فن الحذف في اللغة العربية، تراث وإبداع ١٦١
٥- معنى أسلوب الذكر والحذف في الأساليب التعبيرية ١٦٢
٦- أمثلة على الذكر والحذف في التعبير القرآني ١٦٢
ثالثًا: أسلوب التوكيد وأهدافه ١٦٥
١- التوكيد في اللغة والاصطلاح ١٦٥
٢- أهداف التوكيد في اللغة ١٦٥
٣- أنواع التوكيد وأساليبه اللغوية ١٦٦
٤- أساليب التوكيد في القرآن الكريم ١٦٧
٥- معنى أسلوب التوكيد في الأساليب التعبيرية ١٦٨
رابعًا: أسلوب التعريف والتنكير ١٧١
١- النكرة والمعرفة في اللغة والاصطلاح ١٧١
٢- أهداف التنكير والتعريف في اللغة العربية ١٧٣
٣-أغراض التعريف في اللغة العربية ١٧٤
٤- معنى أسلوب التعريف والتنكير في الأساليب التعبيرية ١٧٦
٥- أمثلة قرآنية على الأسلوب الرابع ١٧٦
خامسًا: أسلوب التشابه والاختلاف ١٧٩
١- معنى التشابه والاختلاف في الأساليب التعبيرية ١٧٩
٢- أمثلة قرآنية على التشابه والاختلاف ١٨٠
الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم ١٨٥
أولاً: مفهوم الإعجاز الغيبي ١٨٥
ثانيًا: الفرق بين الإعجاز البياني والإعجاز الغيبي ١٨٦

ثالثًا: الفرق بين الإعجاز الغيبي والإعجاز والتاريخي ١٩٠
رابعًا: جوانب الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم........ ١٩١
١- الإخبار عن غيب الماضي وأهدافه ١٩١
٢- الإخبار عن غيب المستقبل وأهدافه........ ١٩٣
٣- الإخبار عن أسرار الكون والخلق ١٩٥
الإعجاز النفسي في القرآن الكريم ١٩٧
أولاً: مفهوم الإعجاز النفسي ١٩٧
١-تحليل مفهوم الإعجاز النفسي........ ١٩٧
٢-الاختلاف بين مفهوم الإعجاز النفسي والبياني........ ١٩٩
٣- الخلاف في استقلال الإعجاز النفسي........ ٢٠٠
٤-الإعجاز النفسي في كلمات العلماء........ ٢٠٢
ثانيًا: تجليات الإعجاز النفسي في القرآن الكريم ٢٠٤
ثالثًا: تجليات الإعجاز النفسي في الجانب المعرفي........ ٢٠٤
ثالثًا: شواهد قرآنية في الإعجاز النفسي ٢٠٥
١- شواهد التحليل الدقيق للنفس الإنسانية........ ٢٠٦
٢- شواهد التأثير العاطفي للقرآن في النفوس ٢٠٨
٣. شواهد تاريخية على تأثر وانجذاب العرب للقرآن ٢٠٩
الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم........ ٢١١
أولاً: مقدمة في الإعجاز التشريعي........ ٢١٢
١-مفهوم الإعجاز التشريعي ٢١٢
٢-أسباب قلة الدراسات بالإعجاز التشريعي ٢١٣
٣-أهمية بحث الإعجاز التشريعي في الدراسات القرآنية........ ٢١٤
٤- الفرق بين الإعجاز التشريعي والبياني ٢١٥

ثانيًا: مزايا وخصاص التشريعات القرآنية ٢١٥
ثالثًا: مقارنة التشريعات الربانية مع القوانين البشرية.. ٢١٧
رابعًا: نماذج من الإعجاز التشريعي ٢١٩
١-نماذج من تشريعات العبادات.. ٢٢٠
٢-نماذج من تشريعات المعاملات.. ٢٢٢
٣- نماذج من تشريعات الجنايات والحدود.. ٢٢٣
الإعجاز العلمي في القرآن الكريم..٢٢٧
أولاً: مقدمة في الإعجاز العلمي.. ٢٢٧
١-مفهوم الإعجاز العلمي في الاصطلاح.. ٢٢٧
٢-الفرق بين الإعجاز العلمي للقرآن والتفسير العلمي ٢٢٨
٣- اهتمام العلماء بالإعجاز العلمي.. ٢٣٠
٤- أهمية دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.. ٢٣١
ثانيًا: خصائص الإعجاز العلمي في القرآن ٢٣٢
ثالثًا: ضوابط للقول بالإعجاز العلمي.. ٢٣٤
رابعًا: نماذج متنوعة من الإعجاز العلمي في القرآن.. ٢٣٦
خامسًا: تحديات تواجه الإعجاز العلمي.. ٢٤٠
مصادر الكتاب ٢٤٣

أولاً: بحوث تمهيدية

نتكلم ونبحث أولاً في قضايا تمهيدية للإعجاز القرآني، ضمن أمور أربعة أساسية:

- **أهمية البحث في الإعجاز القرآني**
- **مفهوم الإعجاز والمعجزة والسحر والكرامة**
- **مفهوم التحدي، وخصائص المعجزة النبوية المحمدية**
- **ضرورة الإعجاز الدفاعية، والمقصود من الضرورة**

١-أهمية بحث الإعجاز القرآني

الإعجاز القرآني موضوع محوري في الفكر الإسلامي، وقد حظي باهتمام كبير عبر العصور السابقة، وما زال يثير اهتمام الباحثين والعلماء حتى يومنا هذا.

هذا الاهتمام المستمر أدى إلى إنتاج ثروة معرفية هائلة تجلت في صورة أبحاث دقيقة، ودراسات مستفيضة، وكتب قيمة تناولت مختلف جوانب الإعجاز القرآني. وقد أسهمت هذه الجهود البحثية في تعميق فهمنا للقرآن الكريم، واستكشاف أوجه إعجازه المتعددة.

إن أهمية دراسة الإعجاز القرآني تتجاوز حدود البحث الأكاديمي لتشمل جوانب متعددة ذات تأثير عميق على الفكر الإسلامي والمجتمع. فهي تلعب دوراً حيوياً في تعزيز الإيمان وتقوية العقيدة لدى المسلمين، إذ تكشف عن جوانب من عظمة القرآن الكريم وتفرده. كما أنها تؤكد صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، متماشية مع النمط الثابت في تاريخ الأنبياء حيث كانت النبوات مصحوبة بمعجزات تؤكد صدق الرسالة.

وفي مجال الدعوة الإسلامية، يشكل الإعجاز القرآني أداة فعالة، خاصة في عصرنا الحالي الذي يميل إلى التفكير العلمي والمنطقي. فهو يقدم براهين ملموسة على صدق الرسالة الإسلامية، مما يجعله وسيلة مؤثرة في مخاطبة العقول والقلوب على حد سواء. كما تسهم دراسة الإعجاز القرآني في تضييق الهوة المتصورة بين العلم

والدين، مظهرة التناغم بين الحقائق العلمية والنصوص القرآنية.

ومن الناحية اللغوية والأدبية، تثري دراسات الإعجاز القرآني الدراسات البلاغية واللغوية للغة العربية، كاشفة عن جماليات اللغة القرآنية وأسرارها البلاغية. وعلى الصعيد الفكري والثقافي، تساعد هذه الدراسات في مواجهة التحديات الفكرية المعاصرة، والرد على الشبهات الموجهة للإسلام والقرآن، مقدمة رؤية إسلامية متجددة قادرة على التفاعل مع متطلبات العصر.

وفي مجال التفسير القرآني، تفتح دراسات الإعجاز آفاقاً جديدة، مقدمة رؤى متجددة في فهم النص القرآني في ضوء المعارف العلمية الحديثة. هذا يسهم في تجديد الخطاب الديني وتطويره ليتناسب مع متطلبات العصر، مع الحفاظ على أصالته وثوابته.

وأخيراً، فإن بحث الإعجاز القرآني يثير ويشجع على التكامل المعرفي بين مختلف فروع العلم والمعرفة، مؤدياً إلى نظرة شمولية ومتكاملة للعلم والدين والحياة. وهكذا، يتجلى دوره كمحفز للتفكير والبحث والإبداع، ومصدر للإلهام والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر.

٢-الهدف من بعثة الأنبياء

إن الغاية الرئيسية من إرسال الأنبياء هي هداية البشرية إلى عبادة الله وحده، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم. هذا الهدف يتطلب أن يكون لدى الناس سبب وجيه للإيمان برسالة النبي وقبول دعوته. ولتحقيق هذا الهدف، زوّد الله أنبياءه بمعجزات تثبت صدق رسالتهم. هذه المعجزات تعمل كدليل ملموس على أن النبي مرسل من عند الله، مما يدفع الناس للإيمان به واتباع تعاليمه.

وفي حالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإن القرآن الكريم هو معجزته الخالدة، وبما أن رسالته عالمية وخاتمة للرسالات، فإن إعجاز القرآن مستمر ومتجدد

ليخاطب كلّ الأجيال والعصور.

ودراسة الإعجاز القرآني هي في جوهرها استمرار لوظيفة المعجزة الأصلية، فهي تكشف عن جوانب الإعجاز في القرآن بطريقة تتناسب مع كلّ عصر، مما يجدد قوة الدليل على صدق الرسالة المحمدية.

ومن خلال إظهار وجوه الإعجاز في القرآن، يسهم البحث في الإعجاز في تحقيق الهدف الأصلي من بعثة الأنبياء - وهو هداية الناس. فهو يقدم الأدلة التي تقنع العقول وتطمئن القلوب، مما يدفع الناس نحو الإيمان والهداية.

كما أن هدف بعثة الأنبياء هو تعزيز الإيمان والعمل الصالح، فإن بحث الإعجاز يحقق هذا الهدف من خلال تقوية إيمان المؤمنين وتحفيزهم على العمل بما جاء في القرآن.

وهكذا، نرى أن بحث الإعجاز القرآني يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالهدف الأساسي من بعثة الأنبياء، حيث يعمل كأداة مستمرة لتحقيق هذا الهدف في كلّ زمان ومكان، مع الحفاظ على جوهر الرسالة وتجديد وسائل إيصالها بما يتناسب مع تطور العقل البشري والمعرفة الإنسانية.

ولا بأس أن نتحدث عن الهدف من بعثة الأنبياء ما دام الإعجاز أو المعجزة تهدف إلى صدق النبوة واتصالها بعالم الوحي والغيب.

٣- ثلاثة آراء في الهدف من بعثة الأنبياء

في الحقيقة هناك نظريات ثلاث في الهدف من بعثتهم، الأولى: إن الهدف دنيوي، والثانية: أخروي، والثالث: الجمع بين الدنيوي والأخروي.

أما الرؤية الأولى وأن الهدف من البعثة هو دنيوي، فهي تستند إلى أن الهدف من الخلقة هو كمال الإنسان، وحيث إنّ الإنسان مدني بطبعه والاختلاف والصراع

من طبيعته، وهذا يتنافى مع الوصول للكمال، ولا يمكن رفع هذا الصراع من خلال الإنسان، فكان لا بد من وجود الدين وأحكامه، ومن هنا جاء الهدف من بعثة الأنبياء[1].

أما الرؤية الثانية، القائلة بأخروية الهدف من البعثة، فهي تستند ـ كما يعتقد بعض المفكرين[2]ـ إلى استقراء وملاحظة ما ورد في القرآن فيما يتعلق ببعث الأنبياء، فالآيات القرآنية تحصر الهدف من بعثهم بأمرين: الأول: إحداث ثورة عظيمة عالمية ضد فكرة أن الإنسان هو المحور في هذه الدنيا، ومن ثم سوق الإنسان تجاه خالقه، والثاني: الإخبار بأن هناك دنيا غير هذه الدنيا، وهي أوسع منها وأكبر، وتتسم بالأبدية واللانهاية[3].

ويدعم هذا الاتجاه بعض الشواهد من قبيل: ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**"[4]. كما يؤيد هذا الاتجاه بعض المتكلمين: كما يقول نصير الدين الطوسي في تلخيص المحصل: "**النبيّ إنسان مبعوث من الله تعالى إلى عباده، ليكملهم، بأن يعرّفهم ما يحتاجون إليه في طاعته وفي الاحتراز عن معصيته**"[5].

أما الرؤية الثالثة، فإنها ترى إمكان الجمع بين الهدف الدنيوي والأخروي، وأنه لا مانع عقلي من الجمع بينهما، غاية ما في الأمر يكون أحد الأمرين في طول الآخر، بمعنى أن أحد الأهداف يكون ذاتياً والآخر عرضياً، لكنه ليس بمعنى

---

(٢) انظر: بحث باللغة الفارسية: "الأسس الكلامية لاتجاهات بعثة الأنبياء"، قراملكي، ص٢٦١. مجلة كتاب نقد، سنة ١٣٧٦ هـ ش، العدد ٢-٣.

(٣) مفكر إيراني معروف يصنف على الخط الحداثوي.

(٤) بحث باللغة الفارسية: "الآخرة والله، الهدف من بعثة الأنبياء"، مهدي بازركان، مجلة كيان، العدد٢٨.ص٤٨.

(٥) المستدرك، الحاكم النيسابوري، ج ٢، ص ٦١٣. بحار الأنوار، المجلسي، ج ١٦، ص ٢١٠.

(٦) تلخيص المحصل، نصير الدين الطوسي، ص: ٤٥٥.

الفرعية، فالهدف بالذات هو استصلاح الإنسان والسمو به إلى عالم الكمال؛ ليستقر في أبدية عالم الآخرة، لكن حيث إنّ ذلك موكول إلى عالم الدنيا، فيلزم اتخاذ أهداف بالعرض مثل تأسيس حكومة عادلة لتؤمّن إصلاح النظام المعيشي[١].

وهذا الاتجاه يؤيده بعض الحكماء: يقول ابن ميثم البحراني المتوفى (٦٧٩ هـ) معرفاً النبي: "**إنه الإنسان المأمور من السماء بإصلاح أحوال الناس في معاشهم ومعادهم...ووجود النبي ضروري في بقاء نوع الإنسان، وإصلاح أحواله في معاشه ومعاده، وكل ما كان ضرورياً في ذلك، فوجود النبي واجب في الحكمة الإلهية**"[٢].

ويقول الطباطبائي: "**فالنبي هو الذي يبيّن للناس صلاح معاشهم ومعادهم من أصول الدين وفروعه؛ على ما اقتضته عناية الله من هداية الناس إلى سعادتهم**"[٣].

وفي مقام الترجيح بين هذه الاتجاهات الثلاثة واستناداً إلى الرؤية القرآنية، يكون الراجح الاتجاه الثالث، وأن الهدف من البعثة هو الجامع بين تلبية أهداف الدنيا والآخرة[٤].

فقد وردت مجموعة من الآيات القرآنية الحاكية عن بعثة الأنبياء، بعضها تفيد أن الهدف هو توحيد الله وما ينطوي عليه ذلك من عملية تكامل الإنسان وارتقائه، وبعضها يفيد أن الهدف هو: رفع الاختلافات بين الناس، وهو نزعة بشرية اقتضتها طبيعة الإنسان ولا تكاد تنعدم مطلقاً، وبعضها: إقامة القسط والعدل في المجتمع، وهو مرتبط بالهدف السابق، وبعضها: تزكية النفوس، ونحو ذلك، ومثال الأول: قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[٥]

---

(٢) أُنظر: صحيفة نور، ج٥، ص: ٣٧١.
(٣) قواعد المرام في علم الكلام، البحراني، ص ١٢٢.
(٤) تفسير الميزان، الطباطبائي، ج ٢، ص ١٤٠.
(٥) أُنظر: المصدر السابق، بحث قراملكي، ص٢٨٠.
(٦) النحل: ٣٦.

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[1]، ومثال الثالث: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[2] ومثال الرابع: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[3] ومن ملاحظة جميع تلك الأهداف يتبين عدم انحصارها بالحياة الأخرى، بل شمولها للدنيا والسعي لتنظيم حياة الإنسان فيها، وتقويمها وفق أسس العدل والقسط، مضافاً لتزكيتها والارتقاء بهدايتها؛ لتمهد إلى الحياة الأخرى، فإن الحياة الدنيا المحدودة ـ كما يعبر المفكر الصدر ـ تمثل بداية الشوط لحياة خالدة تنبثق عنها، وتتلون بطابعها، وتتوقف موازينها على مدى اعتدال الحياة الأولى ونزاهتها، فمن الطبيعي تنظيم الحياة الحاضرة بما هي بداية الشوط لحياة لا فناء فيها[4].

٤-دلائل المعجزات النبوية

إن إرسال الله تعالى للرسل والأنبياء كان بهدف أساسي وهو دعوة البشرية إلى توحيد الله ونبذ الكفر والشرك. هذه الدعوة تهدف إلى تحقيق التكامل الروحي والأخلاقي للإنسان. ومن الجدير بالذكر أن مفهوم النبوة يتضمن بالضرورة الاتصال بالوحي السماوي، وهو أمر قد يصعب على العقل البشري تقبله دون وجود دليل ملموس.

لذلك، اقتضت حكمة الله أن يكون إرسال الأنبياء مصحوباً دائماً بمعجزات إلهية. هذه المعجزات تعمل كبراهين قاطعة على صدق دعوى النبوة، وتقدم الدليل الواضح على الاتصال الحقيقي بين النبي والوحي الإلهي.

والغاية من هذه المعجزات هي إقناع الناس بصحة الرسالة النبوية وحثهم على

(٢) البقرة: ٢١٣.
(٣) الحديد: ٢٥.
(٤) البقرة: ١٥١.
(١) المدرسة الإسلامية، محمد باقر الصدر، ص ٤٣.

الإذعان لها. فهي تشكل جسراً بين العالم المادي الذي يدركه الإنسان بحواسه، والعالم الروحي الذي تمثله الرسالة السماوية. بهذه الطريقة، تساعد المعجزات في تجاوز حاجز الشك الطبيعي لدى الإنسان، وتفتح الباب أمام قبول الرسالة الإلهية بقناعة وإيمان.

وهكذا، فإن المعجزات والدلائل الإلهية تلعب دوراً حيوياً في عملية إثبات صدق النبوة وتيسير قبول الرسالة السماوية، مما يمهد الطريق لتحقيق الهدف الأسمى من بعثة الأنبياء وهو هداية البشرية وإصلاحها.

٥-الحكمة الإلهية تقتضي تنوع المعجزات النبوية

إن المعجزات التي منحها الله لأنبيائه كدلائل على صدق رسالتهم لم تكن على نسق واحد، بل تميزت بتنوع ملحوظ يعكس الحكمة الإلهية في مخاطبة كلّ قوم بما يناسب عصرهم وثقافتهم. هذا التنوع في طبيعة المعجزات يأتي متوافقاً مع اختلاف الأزمنة والأمكنة التي بُعث فيها الأنبياء.

الملفت للنظر أن هذه المعجزات كانت دائماً تماشى مع ما برع فيه قوم النبي أو الرسول. فكأنها تحدٍّ إلهي في المجال الذي يعدّونه ميدانَ تفوقهم. هذا التوافق الدقيق بين طبيعة المعجزة وخصائص المجتمع المستهدف يجعلها أداة إقناع قوية، تقطع كلّ سبيل للشك أو الإنكار.

من خلال هذا النهج، تصبح المعجزة برهاناً دامغاً على صدق النبي في دعواه. فهي لا تترك مجالاً للريبة أو التشكيك، إذ تأتي في صميم ما يفهمه القوم ويقدرونه، مما يجعلها أكثر إقناعاً وتأثيراً. وبهذا، تتحقق الغاية الأساسية من المعجزة وهي إثبات صدق النبوة وصحة الرسالة بأقوى الأدلة وأوضحها.

هذا التنوع في المعجزات يُظهر أيضاً شمولية الرسالات السماوية وقدرتها على مخاطبة مختلف العقول والثقافات، مما يؤكد على عالمية الدعوة الإلهية وصلاحيتها

لكل زمان ومكان.

٦-تناغم المعجزات النبوية مع ثقافة العصر

تتجلى الحكمة الإلهية في اختيار معجزات الأنبياء بشكل يتناسب بدقة مع السياق الثقافي والحضاري لكل قوم. فكل نبي أُعطي معجزة تحاكي ما يعتز به قومه ويعدونه قمة الإبداع والابتكار في عصرهم وموضع افتخار عندهم. هذا التوافق الدقيق بين طبيعة المعجزة وما يتميز به المجتمع يجعل المعجزة أكثر إقناعاً وتأثيراً.

على سبيل المثال، نجد أن النبي موسى عليه السلام قد مُنح معجزتي العصا واليد البيضاء، هذا الاختيار لم يكن عشوائياً، بل جاء متناسباً مع انتشار فنون السحر وشيوعها في مصر آنذاك، فالسحر كان مما يتباهى به المصريون، ويعدّونه من أرقى فنونهم. وبهذا جاءت معجزة موسى لتتفوق على ما اعتقدوه قمة براعتهم، مما جعلها أكثر إقناعاً وإعجازاً في نظرهم.

وفي حالة أخرى، نرى أن النبي عيسى عليه السلام قد اختُص بمعجزات شفاء المرضى، كإبراء الأكمه والأبرص، بل وإحياء الموتى. وهذه المعجزات لم تأتِ من فراغ أيضاً، بل جاءت في سياق عصر قد ازدهر فيه الطب اليوناني، وبلغ أوج تطوره، فكانت معجزات عيسى عليه السلام تتحدى وتتجاوز أقصى ما وصل إليه الطب في ذلك العصر، مما جعلها برهاناً قاطعاً على صدق نبوته.

هذا النهج الإلهي في اختيار المعجزات يُظهر عمق الحكمة الربانية في مخاطبة كلّ قوم بما يفهمونه ويقدرونه. فالمعجزة لا تأتي غريبة عن بيئتها، بل تنبع من صميم ما يعرفه الناس ويتقنونه، لكنها تتفوق عليه بشكل يعجز البشر عن محاكاته. وبهذا، تصبح المعجزة أداة إقناع قوية، تقطع كلّ سبيل للشك وتؤكد على صدق الرسالة النبوية بأسلوب يتناسب مع عقلية كلّ عصر وثقافته.

٧- معجزة نبي الإسلام تفوق مهارات العرب اللغوية

تماشياً مع النمط الذي ذكرناه، جاءت معجزة النبوة في الإسلام متناسبة مع مهارات العرب وثقافتهم. فقد اشتهر العرب في العصر الجاهلي بتفوقهم في اللغة والأدب، خاصة في مجالات الفصاحة والبلاغة والشعر والخطابة. وكانت هذه المهارات اللغوية أساساً لتقدير الفرد واحترامه في المجتمع.

لذا، كان من المناسب أن تكون معجزة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هي القرآن الكريم، الذي تميز ببلاغته وفصاحته الفائقة التي تجاوزت قدرات أكثر العرب براعةً في اللغة. هذا التفوق اللغوي والأدبي للقرآن كان سبباً رئيسياً في إيمان الكثيرين، إذ أدركوا أن هذا المستوى من البلاغة والدقة في النظم يتجاوز قدراتهم، مما يشير إلى مصدره الإلهي.

وسنقدم لاحقاً أمثلة توضح عجز العرب في ذلك الوقت عن مجاراة أسلوب القرآن الفريد في بلاغته، وفصاحته، ونظمه المحكم.

٨- أسباب كون المعجزة دليلاً على صدق النبوة

لا شك في أن المعجزة تعدُّ برهاناً قوياً على صدق النبي في دعواه للنبوة، وذلك للأسباب التالية:

١- طبيعة المعجزة الاستثنائية: المعجزة هي حدث يتجاوز القوانين الطبيعية المعروفة، ولا يمكن تحقيقها بالوسائل البشرية العادية.

٢- مصدرها الإلهي: تحدث المعجزة بإذن الله وقدرته، حيث يجريها على يد النبي كتأييد له.

٣- استحالة دعم الكذب: من غير المعقول أن يؤيد الله شخصاً يدّعي النبوة كذباً بمعجزة؛ لأن ذلك سيؤدي إلى تضليل الناس، وهو أمر يتنافى مع حكمة الله وعدله.

٤- دلالة على الصدق: وجود المعجزة يشير بقوة إلى أن الشخص الذي أُجريت على يديه صادق في ادعائه للنبوة، وأنه مؤيد من الله.

٥- تمييز النبي الحقيقي: تساعد المعجزة في التفريق بين النبي الصادق والمدعي الكاذب، حيث أن الأخير لن يستطيع الإتيان بمعجزة حقيقية.

بهذا، تشكل المعجزة دليلاً قوياً ومقنعاً على صدق النبي في دعواه، إذ أنها تظهر تأييداً إلهياً لا يمكن أن يُمنح لشخص غير صادق في دعواه.

٩- صور ووجوه إعجاز القرآن

تجلى إعجاز القرآن الكريم في صور ووجوه عديدة قد ذكرها علماء القرآن، نقتصر على أهم هذه الوجوه والصور:

الصورة الأولى: ما هو إعجازُ بيانٍ، مشتملٍ على فصاحةٍ وبلاغةٍ وروعةٍ في الأسلوب، ودقةٍ في التنظيم، فهو معجزٌ من حيث بلاغة ألفاظه، وتراكيب جمله وعباراته التي تم اختيارها وانتقاؤها بدقة وعناية فائقة، ومن حيث النَّظْم المستند على الإبداع في الإيجاز والتشبيه والمجاز ونحو ذلك من معاني النحو التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً في بحث الإعجاز البياني.

الصورة الثانية: ما هو إعجازٌ تاريخيٌّ ذو إخبار عن غيب الماضي والحاضر والمستقبل.

الصورة الثالثة: ما هو إعجازٌ نفسيٌّ متمثل في حديث القرآن عن نفس الإنسان وتصويره وبيانه لصفات هذه النفس وأسرارها العميقة.

الصورة الرابعة: ما هو إعجازٌ تشريعي له صلة بتشريع الأحكام الناشئة من مصالح تتعلق بحياة الإنسان في دنياه وآخرته يعجز الإنسان عن إدراكها، تشريعات واقعية مرنة شاملة وتنسجم مع فطرة الإنسان.

الصورة الخامسة: ما هو إعجاز علمي ذات صلة بكشف القرآن عن مسائل علمية تتعلق بالحقائق الكونية التي لم تكن معروفة في زمن نزول القرآن، ثم ثبت صحتها في وقت لاحق. وكل هذه الصور سوف ندرسها لاحقاً.

وسوف يتضح لاحقاً أن أكثر صور الإعجاز - باستثناء الصورة الأولى - ليست بالإعجاز الحقيقي الاصطلاحي، بل هي إعجاز من باب آخر.

ثانيًا: مفهوم الإعجاز والمعجزة والسحر والكرامة

١-الإعجاز لغة

لفظ الإعجاز في اللغة مصدرٌ أصله الجذر الثلاثي (عجز)، ومن هذا الثلاثي يشتق الفعل الرباعي أعجَزَ، والفعل الثلاثي عجَزَ، ومن أعجز الرباعي يشتق المصدر (إعجاز)، ويشتق منه أيضاً: عاجز وعجوز، ومن الفعل الثلاثي (عجز) يشتق لفظة (معجزة)، ونحو ذلك.

والعجز له معنيان أصليان في اللغة هما: الضعف، ومؤخر الشيء[(١)].

فالعجْزُ هو الضعف، ومعناه الآخر: مؤخرة الشيء. وتقول أعجزني فلان إذا ضعفتُ عن طلبه وإدراكه. والعَجْزُ ما بعد الظَهر، وعجيزة المرأة مؤخرتها، وكذلك عجز الرجل. وسميت العجوز كذلك لعجزها وضعفها عن كثير من الأمور. والإعجاز يأتي بمعنى الفوت والسبق، فلو قلت أعجزني: أي سبقني وفاتني وجعلني عاجزاً[(٢)].

٢- الإعجاز اصطلاحاً

الإعجاز يختلف مفهوماً عن المعجزة لغة واصطلاحاً، فالإعجازُ لغةً -كما تقدم- مصدر الفعل الرباعي (أعجز)، ومعناه إثبات العجز، وهذا الإثبات للعجز والضعف

---

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج ٤ ص ٢٣٢.

(١) المصدر نفسه. وانظر: لسان العرب، ابن منظور، ج ٥ ص ٣٦٩-٣٧٠.

وعدم القدرة يكون بواسطة أمرٍ معجز، فالإعجاز هو ثمرة المعجزة، بمعنى أن هناك معجزةً، وبسببها حدث الإعجاز وثبوت الضعف.

وهو حالة نفسية وتكوينية تعرض على الإنسان، تشعره بحالة الضعف وعدم القدرة.

وقولنا: إعجاز شيء، أي أن فيه إعجازاً، أي ما يُعجَز أن يؤتى بمثله. إذن الإعجاز لفظة تفيد إثبات العجز والضعف.

أمّا (إعجاز القرآن) فهو مركب إضافي من مفردتين. وقد عُرّف في الاصطلاح بعدة تعريفات، منها:

الأول: "إظهار صدق النبي في دعوى الرسالة؛ من خلال إظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة -وهي القرآن - وعجز الأجيال بعدهم"[١].

الثاني: "أن يؤدى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق"[٢].

الثالث: "أن يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله بالقدر الذي اختص به[٣]".

الرابع: وهو تعريف أكثر تفصيلاً ومفاده أن الإعجاز، هو:

"عجز العرب المعاصرين لنزول القرآن، الذين كفروا به، عن معارضة القرآن مع توفر ملَكَتِهم البيانية وموهبتهم البلاغية، وقيام الداعي على المعارضة وهو التحدي، واستمرار هذا العجز من الكافرين جميعاً على اختلاف الأماكن والأقوام حتى قيام الساعة[٤].

---

(٢) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ج ١ ص ٢٦٥.
(٣) التعريفات، الجرجاني، ص٣١.
(٤) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار، ص٢٢٦.
(٥) البيان في إعجاز القرآن، صلاح الخالدي، ص٣٣.

الخامس: أن الإعجاز هو ضعف قدرة الإنسان أمام المعجزة مع استمرار هذا الضعف في جميع الأزمنة[١]. وهذا التعريف هو الأفضل، فهو شعور نفسي تكويني يستقر في النفس نتيجة الإحساس بالضعف وعدم القدرة أما المعجزة.

وفي هذا التعريف وما سبقه أيضاً نجد ارتباط الإعجاز اصطلاحاً بالمعجزة وعدم انفكاكه عنها؛ ولهذا من المناسب التعرض لمفهوم المعجزة.

٣- مفهوم المعجزة في اللغة والاصطلاح

المعجزة في اللغة هي اسم فاعل مشتق أيضاً من الفعل الرباعي (أعجز)[٢]. كما تقدم سابقاً و(عاجز) على وزن فاعل يشتق من (عجز) الثلاثي[٣]، واسم الفاعل من أعجز هو (مُعْجِز) بكسر الجيم، واسم المفعول (مُعْجَز) بفتح الجيم، ومؤنثه مُعجِزة. مثل مؤمن ومؤمنة. مشكل ومشكلة.

والفرق بين اسم الفاعل (عاجز) و (معجز) أن الأول يستعمل للضعيف والثاني يستعمل للقوي؛ فإن معجز فيه إثبات العجز والضعف.

أما المعجِزة اصطلاحاً: فلم يرد هذا المصطلح في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية. بل ظهر هذا المصطلح في بدايات القرن الثالث الهجري. واستعيض عنها في القرآن بكلمة (آية) أو (بينة) مثل قوله تعالى: ﴿الآيات عند الله﴾ ﴿قد جاءكم بينة من ربكم﴾، أو كلمة (البرهان) أو (السلطان)[٤].

وقد عرّفت المعجزة اصطلاحاً بعدة تعريفات متقاربة:

الأول: "الأمر الخارق للعادة، المطابق للدعوى، المقرون بالتحدّي، المتعذر على

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى الرافعي، ص١٣٩.
(٣) الصحاح، الجوهري، ج ٣ ص ٨٨٣.
(٤) العين، الخليل الفراهيدي، ج ١ ص ٢١٥.
(٥) انظر: البيان في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، صلاح الخالدي، ص٢٥.

الخلق الإتيان بمثله"[١].

الثاني: تعريف الفخر الرازي: "أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة" وقيد "**مقرون بالتحدي**" لئلا يتخذ الكاذب معجزة من مضى لنفسه، وليتميز عن الإرهاصات والكرامات، وقيد "**المعارضة**" ليتميز عن السحر والشعبذة[٢]. ويتفق مع هذا التعريف ما ذكره السيوطي: "أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة وهي إما حسية وإما عقلية"[٣].

الثالث: "أن يأتي المدعي للنبوة الإلهية شاهداً على صدق دعواه بما يخرق القوانين الطبيعية ويعجز عنه غيره، فيما إذا أمكن أن يكون صادقاً تلك الدعوى".

فإذا كانت دعواه ممتنعة الصدق إما عقلاً أو نقلاً، فلن يكون ذلك الشاهد الذي أتى به الخارق للعادة وللقوانين شاهداً على صدق دعواه. ولا يسمى ما أتى به معجزة في الاصطلاح، حتى لو افترضنا عجز البشر عن فعله مثله.

ومثال ذلك: أن يدعي شخص أنه أله، فهذه الدعوى ممتنعة الصدق عقلاً لاستحالة ذلك، فلو جاء بشاهد على صدق دعواه، وكان هذا الشاهد خارقاً للقانون الطبيعي؛ فلن يكون ذلك شاهداً ذا فائدة؛ لأن العقل يحكم ببطلانه وكذبه؛ ولا يسمى ذلك معجزة. كذلك لو ادعى أنه نبي بعد النبي محمد، فهذه الدعوى أيضاً ممتنعة الصدق من خلال النقل، فقد ثبت بالأدلة النقلية الشرعية أن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو خاتم الأنبياء ولا نبي بعده[٤].

الرابع: "الأمر الخارق للعادة والحاصل من دون مقدمات، بخلاف السحر،

---

(٢) النكت الاعتقادية، الشيخ المفيد، ص ٣٥.
(٣) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، الفخر الرازي، ص٢٠٧.
(٤) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج٤، ص٣.
(٥) البيان في تفسير القرآن، الخوئي، ص ٣٣.

فإنه وإن كان خارقاً للعادة إلا أنه يعتمد على مقدمات مضبوطة معينة"[١].

الخامس: "الأمر الخارق للعادة، الدال على تصرف ما وراء الطبيعة في عالم الطبيعة ونشأة المادة، لا بمعنى الأمر المبطل لضرورة العقل"[٢].

بمعنى أن هذه الأمور المتصفة بكونها خارقة وأن أنكرتها العادة واستبعدتها، إلا أنها ليست أموراً مستحيلة بالذات بحيث يبطلها العقل الضروري كما يبطل قولنا يمكن اجتماع النقيضين، أو قولنا: الواحد ليس نصف الاثنين وأمثال ذلك من الأمور الممتنعة بالذات، ولو كانت المعجزات ممتنعه بالذات لم يقبلها عقل عاقل ولم يستدل بها على شيء، بل هي أمور ممكنة ذاتاً.

فكم من أمر عجيب خارق للعادة يأتي به أرباب المجاهدة وأهل الارتياض، فإن تحول العصا إلى ثعبان مثلاً ممكن وغير ممتنع ذاتاً، بل يمكن أن يتحقق ذلك في العادة بعلل خاصة وشرائط زمانية ومكانية مخصوصة تنتقل بها المادة من حال إلى حال وتكتسي صورة بعد صورة حتى تستقر وتحل بها الصورة الأخيرة المفروضة بحيث تصدقه المشاهدة والتجربة، ومع المعجزة، فإن الصورة الأخيرة للعصا وهي الثعبان تتحقق أيضاً من خلال الأسباب التي لا يعلمها الإنسان، بل اختص بعلمها الله تعالى، فثمة سبب خفي علينا هو الذي جعل العصا تتحول إلى ثعبان، فإن كلّ الأسباب بيد الله[٣].

السادس، وهو الأفضل: "كلّ أمر خارق للعادة، إذا قرن بالتحدي، وسلم عن المعارضة، يظهره الله على يد أنبيائه، ليكون دليلاً على صدق رسالتهم"[٤].

---

(٢) صراط النجاة مع تعليق التبريزي، الخوئي، ج ٦ ص ٤٠٩.
(٣) تفسير الميزان، الطباطبائي، ج ١ ص ٧٣.
(٤) المصدر نفسه.
(١) التمهيد، محمد هادي معرفة، ج ٤، ص٢٣.

٤- شرائط المعجزة الاصطلاحية

فالمعجزة - بملاحظة التعاريف- ينبغي توفرها على شروط، منها:

الأول: أن يكون المعجز أمر الله تعالى وفعله، فمن تعلم فعلاً يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله لا يكون من المعجزة اصطلاحاً.

الثاني: أن يكون خارقاً للعادة إذ لا إعجاز دونه

الثالث: أن يتعذر معارضته، فإن ذلك حقيقة الإعجاز

الرابع: أن يكون مقروناً بالتحدي ويظهره الله على يد النبي ليعلم أنه تصديق له، ولا يشترط التصريح بالتحدي، بل يكفي قرائن الحال، مثل أن يقال له إن كنت نبيا فأظهر معجزاً، ففعل(١).

الخامس: أن يكون موافقاً للدعوى، فلو قال: معجزتي أن أحيي ميتاً، ففعل خارقاً آخر، لم يدل على صدقه. أو كما لو مسح على رأس مريضٍ فمات، أو بصق في البئر فاختفى، مثل ما فعل مسيلمة.

السادس: إلّا يكون ما ادعاه وأظهره مُكذباً له، كما لو قال: معجزتي أن ينطق هذا الذئب، فنطق لكن تكلم الذئب، وقال: إنه كاذب، فلا لم يعلم به صدقه، بل يزداد اعتقاد كذبه.

السابع: إلا يكون متقدماً على الدعوى، بل مقارناً لها، لأن التصديق قبل الدعوى لا يُعقل، فلو قال: معجزتي ما قد ظهر على يدي قبلُ، لم يدل على صدقه، ويطالب به بعدُ، فلو عجز كان كاذباً قطعاً. والمشهور أن الخوارق المتقدمة على

(٢) الاقتران بالتحدي لم يكن مورد اتفاق بين العلماء، وقد رفض هذا الشرط مثل الشيخ ابن تيمية، قال في النبوات: "والذين قالوا: من شرط الآيات أن تقارن دعوى النبوة: غلطوا غلطاً عظيماً، وسبب غلطهم: أنّهم لم يعرفوا ما يخص بالآيات، ولم يضبطوا خارق العادة بضابط يميّز بينها وبين غيرها، بل جعلوا ما للسحرة والكهّان، هو أيضاً من آيات الأنبياء، إذا اقترن بدعوى النبوة، ولم يعارضه معارض" النبوات، ابن تيمية، ج٢، ص٨٥٣.

دعوى النبوة كرامات وممهدات للنبوة، لا معجزات(١).

٥- الفرق بين الإعجاز والمعجزة

بما تقدم يتضح أن الإعجاز أعم من المعجزة، فالأعجاز تارة يكون بمعجزة مثل معجزة القرآن التي اشتملت على التحدي وسلمت من المعارضة، ولم ولن يستطيع أحد أن يأتي بمثلها لا في وقت نزول القرآن ولا بعده.

وتارة يكون الإعجاز بأمر خارق للعادة لكن في خصوص وقت ادعاء النبوة، كما في الإعجاز العلمي، فهو إخبار عن حقائق علمية أو كونية وقت النبوة، ووجه الإعجاز في ذلك أن الناس آنذاك غير قادرين عادةً على إدراك تلك الحقائق بل يتعذر معرفتها، بينما نجد أن النبي الأمي كشف عن ذلك، وهو يدل على قدرة خارقة عالمة تحدثت على لسانه، وقد اتضح فيما بعد للأجيال اللاحقة تلك الحقائق. أو الإعجاز الغيبي الذي هو إخبار عن مغيبات حصلت في وقت النبوة، وبانت حقيقتها فيما بعد أو استمر خفاؤها. فلم يكن ذلك ممكناً أن يصدر من النبي الأمي لولا اتصاله بالوحي.

٦- الفرق بين المعجزة والكرامة

الكرامة: اسمٌ يوضَعُ للإكرام ويدل عليه، وهي أمرٌ خارقٌ للعادة يجريه الله على يد ولي من أوليائه، وغير مقترنة بالتحدي، لكنها تحصل لبيان فضيلة ومنزلة الولي عند الله تعالى. كما في قصة مريم عليها السلام عندما يؤتى لها بثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء، ومثل بعض الكرامات التي تحصل للأولياء والصالحين. وبهذا تفترق عن المعجزة الاصطلاحية التي يجرها الله تعالى على يد أحد أنبيائه وتكون مقرونة بالتحدي(٢).

---

(٢) المواقف، الإيجي، ج ٣ ص ٣٣٨.

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٦، ص٥٠٧.

يقول الجرجاني في التعريفات: "الكرامة هي ظهورُ أمرٍ خارقٍ للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقروناً بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجاً، وما يكون مقروناً بدعوى النبوة يكون معجزة"(١).

٧- الفرق بين المعجزة والسحر

المعجزة خارقة للعادة: أي أنها تأتي مخالفة لقوانين الكون بحسب العادة وإن لم تكن كذلك بحسب الواقع. فهي من الله تعالى، وأما السحر فإنه يحدث بحسب قوانين خاصة ومقدمات يمكن تعلمها، فالسحر من الساحر لا من الله.

والمعجزة تجري على يد النبي مقرونة بالتحدي، وأما السحر فهو يجري على يد الساحر ولا يقترن بالتحدي في الغالب، وإذا حصل التحدي من الساحر وجد من السحرة من يعارضه، ويأتي بمثل ما جاء به وأعظم.

فالمعجزة مثل عصا موسى عليه السلام التي تحولت إلى حية حقيقة، وابتلعت عصي السحرة وحبالهم، ثم عادت عصا كما كانت، وأما عصيهم فإنها لم تتحول حقيقة إلى ثعابين، وإنما كانت مجرد خيال للرائي أنها كذلك.

فالفرق بين المعجزة والسحر في ثلاثة أمور؛ الأول: المعجزة أمرٌ من الله يجريه على يد نبي من أنبيائه بينما السحر من فعل الساحر، الثاني: أن المعجزة مقرونةٌ بالتحدي بينما السحر ليس دائماً مقترناً بالتحدي. ثالثاً: في المعجزة لا يمكن لأحد معارضتها بأن يأتي مثلها، بينما في السحر يمكن ذلك بأن يتعلم شخصٌ قوانينَ السحر فيأتي بما يعارض ذلك السحر.

٨- اعتراض على الفرق بين المعجزة والكرامة

بناء على ما مر من تعريف المعجزة يتبين أن بعض الخوارق التي أعطيت

(١) التعريفات، الجرجاني، ص١٨٤.

للأنبياء لا تعد من المعجزات، مثل نبع الماء بين أصابع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومثل تسبيح الحصى أو تكثير الطعام بين يديه وحنين الجذع إليه ونحو ذلك، فهذا لم تقترن بالتحدي. كذلك الخوارق التي أعطيت لغير الأنبياء والتي تسمى بالكرامات.

بينما يتجه بعض العلماء إلى رفض ذلك، واعتبار كلّ ما أظهره الله على يد نبي من الأنبياء معجزةً، سواء اقترن به تحدّ أم لا، فهو الموافق للمعنى اللغوي للمعجزة. فلا يصح الفرق بين المعجزة والكرامة على أن الأولى تكون مقترنة بدعوى النبي على النبوة وبالتحدي، بينما تخلو الكرامة من ذلك.

وقالوا إن المعجزات ليس بالضرورة أن تكون دليلاً لإثبات النبوة، ولا يشترط فيها أن تكون مقترنة بالتحدي، وليس كلّ معجزة أو آية مما يستدل بها على النبوة، وحتى القرآن الكريم لم يتحد به النبي قومه ابتداءً إلا بعد ما كذبوه واتهموه أنه افترى القرآن من عنده.

وفي هذا السياق قال ابن حزم: أنه لو كان ما قالوا لسقطت أكثر آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم، كنبع الماء من بين أصابعه، وإطعامه المئتين والعشرات من صاع شعير، وعَناق[١]... وحنين الجذع، وتكليم الذراع، وشكوى البعير والذئب، والأخبار بالغيوب، وتمر جابر، وسائر معجزاته العظام، لأنه عليه الصلاة والسلام لم يتحد بذلك كله أحد ولا عمله إلا بحضرة أهل اليقين من أصحابه رضي الله عنهم، ولم يبق له آية حاشا القرآن"[٢].

وقال أيضاً: "إن اشتراط التحدي في كون آية النبي آيةً، دعوى كاذبة سخيفة، لا دليل على صحتها، لا من قرآن، ولا من سنة صحيحة ولا سقيمة، ولا من إجماع،

---

(٢) العَناق: الماعز الصغير الأنثى.

(٣) الفصل في الملل، ابن حزم، ج٥، ص٦.

ولا من قول صاحب، ولا من حجة عقل، ولا قال بهذا أحدٌ قط"[١].

وحتى شرط أن يكون المعجز خارقاً للعادة لم يسلم من المناقشة، فقد رفض إطلاقه بعضهم، فليس هو شرط منضبط من كلّ الجهات، يقول ابن تيمية: " وكون الآية خارقة للعادة، أو غير خارقة: هو وصفٌ لم يصفه القرآن، والحديث، ولا السلف. وقد بيّنا في غير هذا الموضع أنّ هذا وصفٌ لا ينضبط، وهو عديم التأثير؛ فإنّ نفس النبوة معتادة للأنبياء، خارقة للعادة بالنسبة إلى غيرهم"[٢].

وعدم الانضباط يعني أنه قد يكون معتاداً لقوم، لكنه معجزاً لغيرهم. وقد يكون معتاداً في زمان أو مكان محددين، ومعجزاً في غيرهما. فهناك بعض آيات الأنبياء كانت معتادة لغيرهم من الأنبياء، فقد يكون النبيّ الواحد له آيات، لم يأت بها غيره من الأنبياء؛ كالعصا، واليد لموسى، وفرق البحر؛ فإنّ هذا لم يكن لغير موسى؛ وكانشقاق القمر، والقرآن، وتفجير الماء من بين الأصابع، وغير ذلك من الآيات التي لم تكن لغير محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من الأنبياء؛ وكالناقة التي لصالح عليه السلام؛ فإنّ تلك الآية لم تكن مثلها لغيره؛ وهو خروج ناقة من الأرض.

بخلاف بعض الآيات التي اشترك فيها كثير من الأنبياء مثل إحياء الموتى: فإنّه اشترك فيه كثيرٌ من الأنبياء، بل ومن الصالحين[٣].

على أي حال الهدف من ذكر هذا الاعتراض أن نبين ثمة خلاف جزئي في مسألة المعجزة وشروطها وكذلك في فرقها عن الكرامة ونحوها، مع التأكيد على أن الرأي المشهور الذي يعتقد به الأشاعرة والمعتزلة والشيعة هو ما ذكرناه أولاً.

---

(٢) المصدر نفسه، ص٥.

(٣) النبوات، ابن تيمية، ج١، ١٦٣.

(١) انظر: المصدر نفسه، ج٢، ص٨٢١.

ثالثاً: مفهوم التحدي وخصائص المعجزة النبوية

التحدّي في اللغة من الثلاثي (حدأ) والحاء والدال والحرف المعتل أصل واحد وهو: السوق، وقولهم فلان يتحدى فلاناً: إذا كان يباريه وينازعه الغلبة. ومن هذا الأصل (السوق)، لأنه إذا فعل ذلك فكأنه يحدوه على الأمر[١].

والتحدي اصطلاحاً لا يختلف عن معناه اللغوي، ولهذا يمكن تعريفه اصطلاحاً على أنه: طلب الإتيان بالمثل على سبيل المعارضة والمنازعة والغلبة[٢] وهذا المثل يتحدد مضمونه ومعناه وحقيقته تبعاً لما يُتحدى به، فالتحدي في القرآن: "هو طلب الإتيان بمثله، حيث يتحدى الله تعالى خلقه بأن يأتوا بمثل هذا القرآن.

١- آيات صريحة في التحدي

وقد ذكر القرآن ثلاث آيات صريحة في ذلك:

الآية الأولى، قوله تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾[٣].

الآية الثانية، قوله تعالى: ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾[٤].

الآية الثالثة، قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[٥].

وهكذا يكون القرآن إعجازاً وعدم القدرة على الإتيان بمثله إما بملاحظة فصاحته وبلاغته ونظمه وبداعة أسلوبه وبيانه، أو بملاحظة معارف القرآن العالية المتقنة

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن زكريا، ج٢، ص٣٥.
(٣) انظر: شرح المقاصد في علم الكلام، التفتازاني، ج ٢، ص ٢٠٣.
(٤) الإسراء: ٨٨.
(٥) هود: ١٣.
(٦) البقرة: ٢٣

التي جاءت من قبل رجل أمي، لم يتعلم من معلم، ولم يتلق شيئاً من تلك المعارف من أحد من الناس[١].

٢- عموم التحدي في الإعجاز للعرب وغيرهم

إن الآيات التي ذكرناها سابقاً المشتملة على التحدي مختلفة في العموم والخصوص، فالآية الأولى أعم الآيات تحدياً، حيث نلاحظ أنه لو كان التحدي مختصاً ببلاغة القرآن وفصاحته وجمال أسلوبه فقط لاقتصر على عرب الجاهليّة من أهل البلاغة والفصاحة والخطابة، وهذا يشي بأن ثمة أمراً آخر مضافاً للبلاغة والفصاحة والنظم الدقيق، وهو المضمون القرآني أي المعاني التي يكشف عنها القرآن بألفاظه وجمله وعباراته، وهذا المضمون معجز في حدّ ذاته، يستحيل على العرب وغيرهم أن يأتوا بمثله.

فكما أن القرآن قد أعجز العرب ببيانه وفصاحته ونظمه، وكذلك أعجزهم وأعجز غيرهم بمضمونه ومعناه. فالإعجاز اللغوي موجهاً للعرب خاصة، والإعجاز بالمضمون عام، للعرب وغيرهم من الأمم، فلا يصحّ أن يتحدى الله تعالى العجم بلغة لا يعرفونها[٢].

ومن أهم المضامين الإعجازية في القرآن الكريم: تشريعاته التي أشتمل عليها، وسوف يأتي في الإعجاز التشريعي بيان جهة الإعجاز في الأحكام الشرعية، وكذلك المضمون العلمي أو العلوم الكونية التي أشتمل عليها، والحقائق العلمية التي لم تكن معروفة في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

إنه معجز في بلاغته وسحر وجمال بيانه، ومعجز في ترابطه وتماسكه، ومعجز في تشريعاته وهدايته، ومعجز في معارفه وعلومه، ومعجز في غيوبه وأسراره، إنه معجزة

---

(٢) انظر: تفسير الميزان، الطباطبائي، ج ١ ص ٥٨.

(١) انظر: المصدر نفسه، ج ١ ص ٥٩.

للبليغ في بلاغته وفصاحته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللمشرع في تشريعاته، وللسياسي في سياسته، وللحاكم في حكومته، إنه روح من الله، كما يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(١).

إن رحابة الموضوعات القرآنية وتنوعها شيء فريد، فالقرآن يبدأ حديثه من ذرة الوجود المستودعة في باطن الصخر والمستقرة في أعماق البحار في كما في قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(٢) إلى النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقرّه المعلوم، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٣) وهو يتقصى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني، فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس(٤).

فالتحديد الدقيق لإطار التحدي وما يتعلق به (إعجاز القرآن) يستوجب تحديد ما يدخل في حدود قدرة الإنس والجن، وما يخرج عن دائرة قدرتهم، ويكون في نفس الوقت صفة ملازمة للقرآن عبر العصور والأجيال، يدركها العربي إما بذوقه الفطري أو بتذوقه العلمي، ويدركها أيضاً غير العربي بأبعاد أخرى(٥).

فما الذي يمكن أن يدعى الإنس والجن للاجتماع والتعاون والتآزر للقيام به، فيعجزون عليه؟ من الواضح أن الأمر متعلق بالمعرفة والحضارة، ليس بجانبها اللغوي

---

(٢) الشورى: ٥٢.
(٣) لقمان: ١٦.
(٤) يس: ٤٠.
(٥) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص١٩٥.
(١) انظر: الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص٦٧. وانظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد بن جماعة، بحث منشور على النت في ملتقى أهل التفسير.

فقط، وإنما بمختلف أبعادها: اللغة والبيان، التشريع الاجتماعي، النظام الأخلاقي، البناء الحضاري، إضافة إلى علم الغيب الذي يعجز الإنسان على الإحاطة به، مثل خبر الأولين، وعلم الساعة، والحياة بعد الموت، والكائنات غير المرئية.

فالتحدي القرآني متعلق بإتقانه وإحكامه في كلّ النواحي: شكلاً ونظماً، ومضموناً وخطاباً، ودفعاً وتأثيراً، ومرونة وتفاعلاً مع ظروف البشر الذين يخاطبهم ومتغيرات بيئتهم الزمنية والمكانية مما تعجز البشرية مجتمعة عن الإتيان مثله، أيا كانت تجاربها وخبراتها العلمية والفكرية والحضارية[١].

٣- القرآن أعظم معجزات نبي الإسلام

يُعدُّ القرآن أعظم معجزة وأعظم تحدٍ، فقد كانت للنبي معجزات[٢] أخرى غير القرآن كما تقدم سابقاً، مثل شقّ القمر، وتسبيح الحصى، ونبوع الماء من بين يديه، ونحو ذلك، ولكن القرآن يُعدُّ أعظم هذه المعجزات شأناً، وأوضحها حجة؛ ذلك؛ لأن العربي الجاهل بعلوم الطبيعة وأسرار الكون، قد يشك في هذه المعجزات غير القرآن، وينسبها إلى أسباب معينة كالسحر ونحو ذلك. ولكنه لا يمكن أن يشكك في بلاغة القرآن وإعجازه، لأنه -أي العربي- يحيط بفنون البلاغة، ويدرك أسرارها.

على أن تلك المعجزات الأخرى مؤقتة لا يمكن لها البقاء والاستمرار في تأثيرها، فسرعان ما تعود خبراً ماضياً تضعف بمرور الزمن ويبدأ معها التشكيك والتوهين. أما القرآن فهو باقٍ إلى الأبد، وإعجازُه مستمرٌ مع الأجيال.

---

(٢) المصدر السابق.

(١) بناء على صحة إطلاق لفظ المعجزة على غير القرآن، فقد ذكرنا سابقاً: أن المعجزة الاصطلاحية ما كانت مقرونةً بالتحدي، لا فقط لبيان الفضيلة وعلو الشأن.

٤- معجزة القرآن هي الوحي ذاته لا غيره

إن الوحي هو بذاته معجزة، أي أن القرآن وكلام الله هو المعجزة، بخلاف معجزات الأنبياء السابقين، فإن معجزاتهم مغايرة للوحي، وهذا يعني أن في معجزة الإسلام اتحاداً بين الدليل والمدلول عليه، وبهذا تكون المعجزة أجلى وضوحاً وأشد تأثيراً وأكثر بقاء واستمراراً.

فالدليل على صدق النبوة هو كلام الله والوحي (القرآن)، والمدلول عليه هو صدق النبوة التي تعني صدق كلام الله والوحي، فاتحد الدال والمدلول.

٥- معجزة القرآن عقلية لا حسية

أن تكون معجزة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي القرآن، فهذا يعني أنها معجزة عقلية لا حسية، لأنها تخاطب العقل والفكر، وتدعو للتأمل فيما حوله من مظاهر الطبيعة، والتفكير في السنن الكونية والاعتبار بمصائر الأمم السابقة، هذا هو مقتضى طبيعية الأمر العقلي.

بينما الأمر الحسي هو ما يمكن إدراكه بحاسة البصر وبقية الحواس، كمعجزة حية موسى وطوفان نوح ونار إبراهيم عليهم السلام جميعاً.

ووفقاً لطبيعة الفطرة الإنسانية التي تتأثر بالحسّيات قد طالب المشركون النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم بمعجزات حسية لإثبات صدق النبوة، لكن الوحي أبى ذلك، وقرر أن تكون المعجزة عقلية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ (١). وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ (٢). وبعض الآيات الأخرى التي تدل على طلبهم ينبوعاً من ماء يتفجر، أو جنة من نخيل وأعناب تجري فيها الأنهار.

---

(٢) الأنعام: ١٢٤.

(١) الأنعام: ٣٧.

٦- أسباب كون القرآن معجزة فكرية وعقلية

ومن جملة الأسباب التي لم يستجب الله تعالى لحصول المعجزات الحسية:

١- تكذيب الأمم السابقة لرسلهم، رغم المعجزات الحسية.

٢- المعجزة الحسّية تتعرض دائماً للسخرية وتوصف بالسحر: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[1].

٣- رأفةً بالعباد- وهذه نقطة مهمة جداً- لأنه لو أنزل الله تعالى آية حسية، ولم يؤمنوا بها، فقد استحقوا أن يعذبهم الله عذاباً شديداً، فهو القائل: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[2]. وهو كما ترى أنه عقابٌ لا يمكن إدراك حجمه وتأثيره وآلامه، فهو عقاب بالغ القسوة، كلّ ذلك مرتبط بمخالفة المعجزة الحسية وعدم الاعتراف بها؛ مكابرة وعناداً وتجبراً من الإنسان، ولهذا رأفة بالعباد ولأن الله تعالى يعلم أن كثيراً منهم سوف لن يؤمنوا بالآيات الحسية، عدل عن الحسية إلى المعجزة العقلية الفكرية.

٤- أن الإيمان الصحيح، في أساسه هو قناعة نفسية، واختيار عقلي حرّ، (لا إكراه فيه)، وهداية، والمعجزة المادية البصرية أو السمعية، تؤثر في تكوين قناعة حسية تلغي حرية الاختيار؛ لأن الإنسان أمام هذه المعجزة التي تخرق القانون الطبيعي يذهل عن التفكير ويكون مسيّراً؛ تبعاً لانبهاره وانشداده لتلك المعجزة الحسية؛ فيحصل له اقتناع قهري. وهذا التأثير لن يستمر طويلاً، لأنه لم يكن عن قناعة وفكر وتأمل وإرادة حرة.

ومثل هذه المعجزات لن تجدي نفعاً من دون هداية الله، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا

---

(٢) الصافات: ١٤-١٥.

(٣) المائدة: ١١٥.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (١).

٥- أن المعجزة العقلية تتجاوز حدود الزمان والمكان، بخلاف المعجزات المادية المؤقتة بزمانها وأقوامها الذي شهدوها. فكم من معجزة حسية حصلت في قوت ما، لكن مع تقادم الزمن يخفت وهجها ويقل بريقها وشعاعها، وبعد أكثر من جيل ربما تندثر ولا يبقى لها أثر، بينما المعجزة الفكرية تزداد تألقاً مع مرور الوقت؛ لأنها تخاطب العقل، والعقل يكون أكثر رشداً وانفتاحاً مع مرور الزمان وكثرة التجارب الحياتية.

رابعًا: الإعجاز القرآني ضرورة دفاعية

الإعجاز القرآني يمكن ملاحظته من جهتين مختلفتين، الجهة الأولى: تتعلق باهتمام العلماء بهذه المسألة، والجهة الثانية: تتعلق بحدوث الإعجاز ذاته لدى الأنبياء والرسل.

وفيما يخص الجهة الأولى، من المتفق عليه أن الاهتمام بدراسة الإعجاز القرآني ظهر متأخراً، وتحديداً في العصر العباسي، وهذا الاهتمام نشأ نتيجة لجدل حول طبيعة إعجاز القرآن وكيفيته، مما أدى إلى ضرورة الدفاع عن القرآن الكريم.

وتتجلى هذه الضرورة الدفاعية في نقطتين رئيسيتين:

النقطة الأولى: ظهور نظرية الصرفة التي طرحها إبراهيم بن سيار النظّام (المتوفى ٢٢٤هـ)، وأحد أبرز علماء المعتزلة، هذه النظرية تدّعي أن إعجاز القرآن ليس ذاتياً، بل يكمن في أن الله صرف الناس عن محاكاته ومماثلته، رغم قدرتهم على ذلك لولا التدخل الإلهي. وهذه النظرية كما سوف يأتي لاحقاً واجهت اعتراضات كثيرة في مقابل من يرى أن الإعجاز يكمن في عدم قدرة العرب أساساً على صياغة سورة

---

(١) الأنعام: ١١١.

أو أكثر مثل القرآن بما يحمله من فصاحة وبلاغة ونظم.

والنقطة الثانية: انتشار الشبهات، فقد ظهرت ادعاءات تزعم وجود عيوب في ألفاظ القرآن، وأن بعض أساليبه تفتقر إلى البلاغة والفصاحة، مما يتعارض مع كونه معجزاً.

ونتيجة لهذين العاملين، أضحت دراسة الإعجاز القرآني والتعمق في أبحاثه ضرورة دفاعية ملحة للرد على هذه الشبهات، وإثبات الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم.

أما لو لاحظنا الجهة الثانية وهي المتعلقة بحدوث الإعجاز ذاته بغض النظر عن اهتمام العلماء به، يمكن القول: إن الإعجاز نفسه نشأ كضرورة دفاعية، فإن الله تعالى قد منح الأنبياء المعجزات استجابة لحاجة ملحة وضرورة دفاعية.

ولتوضيح هذه الفكرة، نشير إلى ما ذكره بعض العلماء[1]من أن مضامين رسالات الأنبياء واضحة وصريحة، والعقول السليمة تدرك صحتها بالفطرة دون الحاجة إلى براهين إضافية.

وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في عدة آيات، مثل: **﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾**[2]، **﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾**[3]، **﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾**[4]، **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾**[5]، **﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**

---

(٢) انظر: تلخيص التمهيد، هادي معرفة، ج٢، ص٢٣، قال: "الإعجاز ضرورة دفاعية قبل أن يكون ضرورة دعائية، إن رسالة الأنبياء على واضح من الحق الصريح ولا حاجة إلى إقامة برهان: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ ... ومن ثم وقفوا في سبيل الدعوة؛ إما معارضةً بالوساوس والدسائس وعرقلة الطريق؛ فدعت الضرورة إلى الدليل المعجز استيقاناً ودفعاً للشبهة، أو مكافحةً بالسيف؛ فدعت الحاجة إلى القتال والجهاد".

(٣) الرعد: ١٤.

(٤) الإسراء: ١٠٥.

(٥) البقرة: ٢.

(٦) النساء: ١٧٠.

الَّذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ (١)، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا﴾ (٢)، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (٣)، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ (٤).

ورغم وضوح الرسالة الظاهرة من هذه الآيات، إلا أن مضمونها، الذي يدعو إلى التوحيد والقيم الأخلاقية السامية كالعدالة والمساواة، قد يتعارض مع مصالح بعض الناس. وهذا التعارض يدفعهم إلى محاولة تشويش الرسالة والتشكيك فيها، مما يؤدي إلى نوع من الحيرة والاضطراب لدى عامة الناس حول صحة الرسالة؛ وهنا تظهر الحاجة الملحة إلى دليل قاطع وبرهان واضح، وهو ما تحققه المعجزة.

وبذلك، يصبح الإعجاز أو المعجزة ضرورة دفاعية؛ لحماية مضمون الرسالة بكل ما تحتويه من عقيدة وأحكام أخلاقية وفقهية، وإثبات صحتها بشكل لا يقبل الشك. وهكذا، فإن الإعجاز لم يكن مجرد وسيلة دعائية، بل كان في الأساس أداة دفاعية ضرورية لحماية الحق وإظهاره في مواجهة محاولات التشكيك والتشويش.

---

(٢) سبأ: ٦.
(٣) الحج: ٥٤.
(٤) المؤمنون: ٧٠.
(١) النمل: ١٤.

إعجاز القرآن في أبرز دراسات المتقدمين والمتأخرين

تكلمنا سابقاً وقلنا: إن الإعجاز مفهوم أعم من المعجزة، نعم القرآن هو المعجزة الخالدة، وهو أساس كلّ إعجاز.

وفي عصر النبوة، أدرك المشركون والكفار أن القرآن الكريم يتجاوز قدرات البشر وأنه كلام الله سبحانه وتعالى؛ حيث اتضح لهم أن القرآن معجزة لا يمكن محاكاتها، كما ذكرنا ذلك سابقاً في موضوع التحدي الإلهي.

واستمر هذا الحال خلال حياة الصحابة والتابعين، حيث لم تكن هناك حاجة ملحة لدراسة تفاصيل الإعجاز القرآني أو استكشاف جوانبه المختلفة. وظل الوضع على هذا النحو طوال القرنين الأول والثاني الهجريين، إذ لم يتحول اهتمام العلماء من مجرد الإقرار بكون القرآن معجزة إلى تحليل مظاهر إعجازه بشكل مفصل.

١- الإعجاز في القرن الثالث الهجري

مع بداية القرن الثالث الهجري، برز اهتمام المسلمين بدراسة إعجاز القرآن الكريم. تناول العلماء من مختلف التخصصات جوانب الإعجاز في أسلوب القرآن، ومعانيه وعلومه وموضوعاته. كان الهدف الرئيسي فهم سبب عجز البشر عن الإتيان بمثله، وتحديد وجوه الإعجاز فيه.

وتمحورت الدراسات حول الإجابة على أسئلة جوهرية: لماذا كان القرآن معجزاً للبشر؟ وما وجه الإعجاز الذي تحدى به القرآن العرب؟ ما الذي أعجز العرب عن الإتيان بمثله؟ وهل التحدي والإعجاز مستمران؟

ونتيجة لهذا الاهتمام، تطور إعجاز القرآن ليصبح علمًا مستقلاً متخصصًا في الدراسات البيانية والموضوعية للقرآن الكريم. وقد ظهرت آراء مهمة متباينة حول وجوه الإعجاز القرآني، في هذا القرن، وإليك أهمها:

الرأي الأول: إنكار الإعجاز، ومن أبرز الشخصيات التي أنكرت الإعجاز:

أ- **ابن الراوندي** (أبو الحسين أحمد بن يحيى): وهو من أبرز المتكلمين المعتزلة

الذين ارتدوا لاحقًا، وقد عاش في بغداد، ثم ألحد وانفصل عن المعتزلة [١] واشتهر بأنه أنكر إعجاز القرآن أساساً، وادعى قدرة الناس على الإتيان بمثله.

ب- **عيسى بن صبيح المزدار**: وهو الملقب براهب المعتزلة" لزهده وعلمه. قال: "إن القرآن غير معجز، لا بقوة القدر ولا بضعف القدرة"[٢]. فادعى أن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة ونظمًا وبلاغة[٣].

الرأي الثاني: نظرية الصرفة، وسوف يأتي عنها الكلام مفصلاً لاحقاً، هذه النظرية طرحها إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي (٢٢٠هـ)، فقد زعم أن القرآن ذاته ببلاغته وفصاحته ونظمه غير معجز، وإنما إعجازه في صرف الله العرب عن معارضته.

قال في كتابه الإعجاز: "إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام"[٤]. فاعتبر أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن وسلب علومهم به.

الرأي الثالث: الإعجاز البياني، هذا الرأي دافع عنه الجاحظ (٢٥٥هـ) في كتابه "نظم القرآن"[٥]، وهو يُعدُّ من أوائل من تصدى لقضية الإعجاز بالدراسة والنقد. وكان يرى أن الإعجاز ذاتي له، يتمثل في نظمه وبلاغته[٦]. واستدل بعجز العرب عن معارضة القرآن رغم تحديهم وتفوقهم في البلاغة[٧].

---

(٢) لسان الميزان، ابن حجر، ج١، ص٣٢٣-٣٢٤. تاريخ آداب العرب، الرافعي، ج٢، ص١٨٠.
(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص١٠٥.
(٤) انظر: الفَرق بين الفِرق، عبد القاهر البغدادي، ص١٥٥. المواقف، الإيجي، ج ٣ ص٦٦٤.
(٥) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص٨.
(٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ج٢، ص٩٦.
(٧) هناك شواهد عدة على اعتقاده بالإعجاز البياني، انظر مثلاً: رسائل الجاحظ، ج٣، ص٢٢٩.
(٨) انظر: رسائل الجاحظ، ج٣، حجج النبوة، ص٢٢٩.

قال في بعض رسائله: "وكذلك دهرُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، كان أغلب الأمور عليهم، وأحسنها عندهم، وأجلها في صدورهم، حسنُ البيان، ونظم ضروب الكلام... فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه، فلم يزل يقرعهم بعجزهم"(١). وقد اعتبر أن إعجاز القرآن من أعظم ما أوتي النبي من آيات.

يقول في كتابه الحيوان: "وفي كتابنا المنزّل الذي يدلّنا على أنّه صدقٌ: نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدّلائل التي جاء بها من جاء به"(٢).

لكن موقف الجاحظ من الصرفة لم يكن حاسماً، فإنه رغم دفاعه عن الإعجاز البياني، ظهر في بعض كتاباته ما يشير إلى اعتقاده بالصرفة. فقد قال في كتاب الحيوان: "ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحدّاهم الرّسول بنظمه"(٣).

وهذا التناقض قد يكون نتيجة تأثره بالتيار المعتزلي أو عدم وجود ضابط يفسر الإعجاز القرآني بشكل كامل.

الرأي الرابع: رأي أبو الحسن علي بن سهل (ابن ربن الطبري)؛ وهو نصراني تحول إلى الإسلام، عاش في عهد الخليفة المتوكل (٢٦٠ أو ٢٧٠هـ). ألف كتاب "الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم". وقد أكد على إعجاز القرآن من خلال: جمعه بين التوحيد والأخلاق والتشريع بأسلوب بليغ. وكون صاحبه أمياً لم يعرف كتابة ولا بلاغة.

قال في كتابه الدين والدولة: "إني لم أجد لأحدٍ عربي ولا عجمي، هندي ولا

---

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٢٧٩-٢٨٠.
(٣) المصدر نفسه.
(١) الحيوان، الجاحظ، ج٤، ص٤٠٥.

رومي، كتاباً جمع من التوحيد والتهليل والثناء على الله عز وجل والتصديق بالرسل والأنبياء، والحثّ على الصالحات الباقيات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والترغيب في الجنة والتزهيد في النار، مثل هذا القرآن منذ كانت الدنيا. فمن جاءنا بكتاب هذه نسبته ونعته، وله من القلوب هذا المحل والجلالة والحلاوة، ومعه هذا النصر واليمن والغلبة، وكان صاحبه الذي نزل عليه أمياًّ، لم يعرف كتابةً ولا بلاغةً قط، فهو من آيات النبوة لا شك فيه ولا مرية. "(١). فاعتبر أن البلاغة والمضمون الذي يحقق صلاح الإنسان هما وجها الإعجاز في القرآن.

والخلاصة: أن القرن الثالث الهجري شهد تطورًا ملحوظًا في دراسة إعجاز القرآن، حيث انتقل البحث من مجرد إثبات وجود المعجزة إلى تحديد وجوه الإعجاز فيها. فقدم العلماء آراءً متنوعة، تراوحت بين إنكار الإعجاز والقول بالصرفة وإثبات الإعجاز البياني، مما أسس لعلم مستقل في الدراسات القرآنية.

٢- الإعجاز في القرن الرابع الهجري

وأشهر من تكلم في هذا القرن عن الإعجاز القرآني هو:

١-أبو الحسن الأشعري (٣٢٤ هـ) وهو أحد العلماء الكبار الذي ينتسب له المذهب الأشعري، فقد ورد نقلاً عن ابن حزم في كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، قوله: "روي عن الأشعري وهو أن المعجز الذي تحدى الناس بالمجيء بمثله هو الذي لم يزل مع الله تعالى ولم يفارقه قط ولا نزل إلينا ولا سمعناه"(٢).

ويظهر من كلامه أنه لا يرى أن القرآن الذي نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو المعجزة، بل يعتقد أن ثمة قرآناً عند الله لم ينزل لنا هو المُعجز، وهو كلام غير مقبول، ولا له مبرر ودليل واضح.

---

(٢) الدولة والدين في إثبات نبوة النبي محمد، ص٩٨-٩٩.

(١) الفصل في الملل، ابن حزم، ج٣، ص١٠.

٢- الطبري، المفسر المعروف (٣١٠هـ)، فقد تعرض في تفسيره للإعجاز ضمن آيات التحدي التي وردت في القرآن، ومجمل رأيه: أن القرآن معجزة مستمرة لا يقدر الجن والإنس في كلّ زمان على الإتيان بمثله، وأن العرب قد عجزوا عن معارضته وأن وجه الإعجاز في القرآن بلاغته وأسلوبه ونظمه.

قال في تفسيره: "ومن أشرف تلك المعاني التي فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله: نظمه العجيب، ورصفه الغريب، وتأليفه البديع، الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سورة منه الخطباء، وكلت عن وصف شكل بعضه البلغاء، وتحيرت في تأليفه الشعراء، وتبلدت قصورا عن أن تأتي بمثله لديه أفهام الفهماء. فلم يجدوا له إلا التسليم، والإقرار بأنه من عند الواحد القهار"(١).

٣-المفسر حسن القمي: وممن بحث في هذا القرن في الإعجاز، القمي حسن بن محمد المفسر(٣٧٨هـ) وكان ينظر للإعجاز برؤية كلامية أكثر منها تفسيرية، وقد أكد القمي أن طبيعة المعجزة يمكن أن تُعرف، ولا يمكن أن توصف، مثل قطعة الذهب النقي أو جمال الوجه، فهو يدرك بالإحساس، وكل من حاول أن يبرهن على أن الإعجاز كان بالصرفة أو الخروج عن أنواع الكلام المعروفة أو الخلو من التناقض أو الإخبار عن الغيب فهو مخطئ مطلقاً(٢).

٤-أبو الحسن الرماني: وممن ألف في الإعجاز في القرن الرابع علي بن عيسى الرماني، وهو من العلماء الذين انتصروا للإعجاز بالنظم وأنه يقوم على أساس تلاؤم الألفاظ(٣). ونقل السيوطي عنه أن كان يعتقد بالصرفة، وأن "وجوه إعجاز القرآن تظهر من جهات ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة والتحدي للكافة،

---

(٢) جامع البيان، الطبري، ج١، ص٢٠٠-٢٠١.
(٣) انظر: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة، نعيم الحمصي، ص٦١.
(٤) المصدر نفسه، ص٦٢.

والصرفة والبلاغة، والإخبار عن الأمور المستقبلة"[١].

٥- الخطابي (٣٨٨هـ) وهو أبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم الأديب. يُعدُّ الخطابي من أوائل العلماء الذين بحثوا في الإعجاز بحثاً علمياً منظماً حاول فيه استكشاف أسرار الإعجاز القرآني وأسرار دلائل هذا الإعجاز.

فقد ألف كتابا سماه (بيان إعجاز القرآن) وركز فيه على الإعجاز اللغوي البلاغي. وهو بهذا قد فتح باباً من الأبواب التي كانت تمنع كثير من الصحابة وغيرهم ممن سبقه في الخوض في هكذا مسائل. ومما ساعد في الخوض في مسألة الإعجاز ظهور علم الكلام في بداية نشوئه أول القرن الثالث، الذي أسهم في إثارة الجدل والخلاف بين المسلمين فيما يتعلق بالعقيدة، وكان القرآن أبرز الأدلة التي يستدل بها صحة العقيدة. ومن هنا أفضى ذلك إلى التعمق في القرآن الكريم وفي دلالاته.

ويرفض الخطابي الإعجاز بالصرفة، كما يكشف ذلك كتابه البيان، قال: " وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه، الصرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة فهي أي المعارضة وإن كانت مقدوراً عليها غير معجوز عنها... إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس...**﴾ ثم قال: وذلك أي القائلين بالصرفة طريقه التكلف والاجتهاد وسبيله التأهب والاحتشاد"[٢].

وكذلك ينكر الإعجاز الغيبي، مثل قوله تعالى: ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾[٣]. يقول: ولا شك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من إعجازه ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كلّ سورة من سور القرآن، وقد جعل الله في صفة كلّ سورة أن تكون معجزة في نفسها لا يقدر أحد من

(٢) الإتقان، السيوطي، ج٤، ص١٨.
(٣) انظر: بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص٢٢-٢٣.
(٤) الروم: ٢-٣.

الحق أن يأتي بمثلها[١].

وقال إنما صار القرآن معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ وفي حسن نظم وأصح المعاني. كذلك أشار الخطابي إلى إعجاز التأثير أي ما يصنعه في القلوب والنفوس بحيث حين تسمعه تشعر بالحلاوة واللذة[٢].

٣- الإعجاز في القرن الخامس الهجري

هذا القرن يُعدُّ العصر الذهبي لفكرة إعجاز القرآن قياساً بالقرون السابقة. فقد كثرت الدراسات فيه وكثر العلماء الذي تكلموا فيه.

وممن تكلم فيه: أبو العلاء المعري (٤٤٩هـ)، وابن حزم الأندلسي(٤٥٦هـ) الذي قال بالصرفة أيضاً، وهو ينفي الإعجاز البلاغي[٣]. وكذلك ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) الذي يرى الصرفة، قال في كتابه سر الفصاحة: "وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك"[٤].

مضافاً للسيد المرتضى، والطوسي، والباقلاني والجرجاني. وهؤلاء الأشهر في القرن الثالث لا سيما الباقلاني والجرجاني ممن لهما أراء مهمة وإضافات نافعة اعتمد عليهما العلماء فيما بعد، وبفضلهما عُدّ هذا القرن من العصور الذهبية.

---

(٢) المصدر السابق، ص٢٢-٢٣.

(٣) انظر: بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص٢٦-٢٨.

(٤) قال في كتاب الفصل: "فلو كان إعجاز القرآن، لأنه في أعلى درج البلاغة لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هارون والجاحظ وشعر أمرئ القيس، ومعاذ الله من هذا، لأن كلّ ما يسبق في طبقته لم يؤمن أن يأتي من يماثله ضرورة، فلا بد لهم من هذه الخطة أو من المصير إلى قولنا: إن الله تعالى منع من معارضته فقط". وقال: " فصحّ أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلاً، وأن الله تعالى منع الخلق من مثله، وكساه الإعجاز، وسلبه جميع كلام الخلق". الفصل في الملل والنحل، ج٣، ص١٢. وانظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص١٢٣.

(١) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص١٠٠.

١- الشريف المرتضى (٤٣٦هـ): ألف كتاباً في الإعجاز عنوانه "الموضح عن جهة إعجاز القرآن، وهو الكتاب المعروف بالصرفة، وقد اشتهر المرتضى برأيه بالصرفة وأن القرآن بفصاحته وبلاغته ونظمه ممكن للعرب لكن الله صرف الناس عن الإتيان بمثله. بمعنى أن الله سلبهم العلوم التي يحتاجون لها في المعارضة ليأتوا بمثل القرآن، وسوف يأتي تفصيل ذلك عندما نتكلم عن الصرفة في جهة الإعجاز.

٢- محمد بن الحسن الطوسي (٤٦٠هـ)، فقد كان يرى الصرفة في الإعجاز، وقد عدل عن ذلك، ورأى أن الإعجاز إنما يكون بالفصاحة القصوى لكن في دائرة النظم المخصوص بالقرآن، قال: "وأقوى الأَقوال عندي قول مَن قال: إنّما كان معجزاً خارقاً للعادة لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النَظم المخصوص، دون الفصاحة بانفرادها، ودون النَظم بانفراده، ودون الصِّرفة. وإن كنت نصرتُ في شرح الجمل القول بالصِّرفة، على ما كان يذهب إليه المرتضى"(١).

٣- أبو بكر الباقلاني (٤٠٣هـ) يُعدُّ المؤسس الثاني للمذهب الأشعري، وهو أحد أبرز العلماء المتكلمين، له كتاب في الإعجاز، ومما تميز به من أفكار أن القرآن لا يقتصر إعجازه على عصر النبوة بل هو معجز في كلّ عصر، قال: "فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة عمت الثقلين وبقيت بقاء العصرين ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد"(٢).

وينقل الباقلاني ثلاثة أوجه من الإعجاز: قال: "في جملة وجوه إعجاز القرآن ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز: **أحدها:** يتضمن الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه... **والوجه الثاني:** أنه كان معلوماً من حال النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كان أمياً لا يكتب، ولا يحسن

---

(٢) الاقتصاد، الطوسي، ص ١٧٣.

(١) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص٨.

أن يقرأ. وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين، وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام، إلى حين مبعثه، فذكر في الكتاب، الذي جاء به معجزة له: قصة آدم عليه السلام، وابتدأ خلقه...ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه، إلا عن تعلم، وإذ كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا متردداً إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ، فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه، عُلم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي. **والوجه الثالث:** أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه"(١).

وهو يرفض فكرة الصرفة، ويؤكد على الإعجاز البلاغي بما يتضمن النظم والروعة والجمال والإتقان في كلّ آيات القرآن الكريم، وأن هذا النظم والأسلوب والبلاغة يتجاوز قدرة البشر، وقد أكثر من الشواهد الأدبية حتى ربما طغت على الكتاب. نعم إن من يدرك هذا الإعجاز "من كان متناهياً في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة؛ فهو متى ما سمع القرآن عرف إعجازه"(٢). وينبه على أن غير العرب يمكنهم أن يدركوا الإعجاز وذلك من خلال اطلاعهم على عجز العرب عنه، يقول: "الأعجمي لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه، وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها من كان من أهل صنعة الفصاحة، فإذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم، وجرى مجراهم في توجه الحجة عليه"(٣).

٤-عبد القادر الجُرجاني (٤٧١هـ)": وهو متكلم وأديب، رائد علم البلاغة

(٢) المصدر السابق، ص٣٣-٣٥.
(٣) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص٢٦.
(١) المصدر نفسه، ص٢٥.

القرآنية والنظم القرآني، وقد ألف كتاباً مهماً - مضافاً إلى أربعة كتب أخرى -اسمه (دلائل الإعجاز) قدم فيه نظرية مهمة في إعجاز القرآن، ولعل هذا الكتاب يُعدُّ من أهم كتب الإعجاز، وقد أكّد فيه على مسألة نظم القرآن، وبيّن أنه لا يستطيع أحدٌ أن يتعرّف على إعجاز القرآن ما لم يُدرك النَظْم الموجود في القرآن ويُحسن فهمه، وأن الإعجاز قائم على الصورة الجميلة التي تنقل المعنى مع حسن الأداء وحسن العرض، فإن الألفاظ ومعانيها إذا لم تنتظم في سياق تركيبي؛ متعلق فيه الكلام بعضه ببعض، فلا قيمة لتلك الألفاظ والمعاني، فهو يرفض أن يكون الإعجاز مستنداً إلى طبيعة الألفاظ أو إلى معانيها أو سهولتها وعذوبتها المجردة، بل رفض حتى رجوعه إلى الاستعارات أو المجازات أو الفواصل أو الإيجاز ونحو ذلك.

وباختصار هو يرى أن استعمال اللفظ ليدل على معناه الذي وضع له لا يكون مصدراً للإعجاز بمجرد ذلك؛ لأن ذلك مقدور لأهل اللغة العرب آنذاك، خصوصاً فطاحل الفصاحة والشعراء منهم، بل المصدر هو دلالة ذلك اللفظ على المعنى الذي يكتسبه خلال نظمه ونسجه في سياق تركيبي.

يقول الجرجاني في دلائل الإعجاز: "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها"(١). وسوف يأتي توضيحٌ أكثر في ذلك عند الكلام عن نظرية النظم لاحقاً.

٤- الإعجاز في القرن السادس الهجري

من أشهر من تكلموا في الإعجاز في هذا القرن: أبو حامد محمد الغزّالي (٥٠٥هـ)، ومحمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ)، وابن عطية الأندلسي (٥٤١هـ). والقاضي عِياضُ بن موسى اليحصبي (٥٤٤هـ)، وفضل بن حسن الطبرسي (٥٤٨هـ).

---

(١) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ج١، ص٣٩.

أما الغزّالي فهو أشهر من تكلم عن الإعجاز في هذا القرن. وكان يعتقد أن القرآن على منهاج واحد في النظم، مناسب أوله آخره، وعلى درجة واحدة في غاية الفصاحة، لا يشتمل على الغث والسمين مثل كلام البشر، ومسوق لمعنى واحد، وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى وصرفهم عن الدنيا إلى الدين، وكلام البشر يتطرق له الاختلاف إذ كلام الشعراء مثلاً إذا قيس عليه وجد فيه اختلاف في منهاج النظم ثم اختلاف في درجات الفصاحة بل في أصل الفصاحة حتى يشتمل على الغث والسمين فلا تتساوى رسالتان ولا قصيدتان بل تشتمل قصيدة على أبيات فصيحة وأبيات ضعيفة"(١).

في كتابه المهم (إحياء علوم الدين)، وكتاب (جواهر القرآن ودرره) أوضح الغزالي: أن القرآن قد احتوى كلّ العلوم الدينية والدنيوية، فقد ذكر أن الآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً، وأن علياً عليه السلام قال: لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب، وقال أبو الدرداء لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً. وقد قال بعض العلماء لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر، وقال آخرون القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ كلّ كلمة علم ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف؛ إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن، وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهره التفسير لا يشير إلى ذلك، بل كلّ ما أشكل فيه على النظار، واختلف فيه الخلائق في النظريات

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج٤، ص٢٣.

والمعقولات، ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها"[١].

أما الزمخشري؛ فهو برغم تأثره بآراء المعتزلة إلا أنه كان لا يقبل الرأي إلا إذا اطمأن له قلبه؛ ولهذا كان يرفض أن الإعجاز بالصرفة، ولا يرى أن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثله لكن الله صرفهم عن المعارضة.

لم يؤلف الزمخشري كتاباً خاصاً بالإعجاز، بل ما فعله أهم من ذلك بأن ركز جهده على تقييم أدلة الإعجاز وشواهده من آيات القرآن الكريم، فكان تفسيره المعروف بـ بالكشاف عن حقائق غوامض التنزيل من أجل هذه الغاية، فكل آية من كتاب الله يتطلع فيها للكشف عن إعجاز النظم القرآني وأسراره في المفردات والتراكيب القرآنية. وهكذا فسر القرآن كله تفسيراً عرض فيه روائع النظم القرآني من دون إشارة وذكر إلى نوع إعجاز القرآن ووجهه، بل هدفه أن يكشف ما وراء تلك الروائع من أسرار تنبئ عن فضل هذه الكلام وعلوه على سائر كلام البشر[٢].

أما ابن عطية، فقد قال في كتابه الوجيز: "اختلف الناس في إعجاز القرآن بم هو؟ فقال قوم: إن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وإن العرب كلفت في ذلك ما لا يطاق، وفيه وقع عجزها. وقال قوم: إن التحدي وقع بما في كتاب الله تعالى من الأنباء الصادقة، والغيوب المسرودة. وهذان القولان إنما يرى العجز فيهما مَن قد تقررت الشريعة ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم في نفسه، وأما من هو في ظلمة كفره فإنما يُتحدى فيما يَبِنُ له -بينه وبين نفسه- عجزُه عنه، وأن البشر لا يأتي بمثله، ويتحقق مجيئه من قبل المُتحدي.

وكفّارُ العرب لم يمكنهم قط أن ينكروا أن رصف القرآن ونظمه وفصاحته متلقى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإذا تُحدِّي هؤلاء الكفار إلى ذلك،

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي، ج١، ص٢٨٩.
(١) انظر الإعجاز في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، ص٢٩٨-٣٠٢.

وعجزوا فيه، عَلِم كلّ فصيحٍ ضرورةَ أن هذا نبيٌّ يأتي بما ليس في قدرة البشر الإتيان به، إلا أن يخص الله تعالى من يشاء من عباده. وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذاق، وهو الصحيح في نفسه: أن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه"(١).

أما القاضي عِياض في كتابه "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" فقد أوضح أنه يعتقد أن القرآن لا يقتصر على وجه واحد من الإعجاز، بل له وجوه عديدة، ويمكن حصرها في أربعة وجوه:

أولها: حسن تأليفه والتئام كلمه، وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب.

ثانيها: صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ووقفت مقاطع آيه وانتهت فواصل كلمات إليه ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه.

الثالث: ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوجد.

الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه، ويأتي به على نصه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه صلى الله عليه وسلم أميٌّ، لا يقرأ ولا يكتب"(٢).

أما الطبرسي، هو أحد علماء الشيعة الإمامية وقد تعرض في مقدمة كتابه مجمع البيان إلى أهم الآراء في الإعجاز، قال: "العلم بكون القرآن معجزاً خارقاً للعادة،

---

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ج١، ص٥٢.
(٣) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ج١، ص٢٥٨-٢٦٩.

والاستدلال به على صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والكلام في وجه إعجازه، وهل هو ما فيه من الفصاحة المفرطة، أو ما له من النظم المخصوص، والأسلوب البديع، والصرفة"(١).

ولم يبد رأيه في تحديد الوجه الصحيح للإعجاز من هذه الوجوه التي ذكرها، ويظهر من تفسيره في سور وآيات القرآن: أن القرآن معجز باحتوائه على علوم الأولين والآخرين، وأنه معجز بفصاحته ونظمه وأسلوبه، وأنه معجز بقوة تأثيره في هدايته البشر ولا يمكن أن تشعر بالملل في تلاوته.

وقد نفى إعجاز الصرفة، وعلل نفيها بقوله: "ولو كان وجه الإعجاز الصرفة لكان الركيك من الكلام أبلغ في باب الإعجاز، وقال شارحاً آية التحدي في سورة الإسراء: "على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في فصاحته وبلاغته ونظمه، على الوجوه التي هو عليها من كونه في الطبقة العليا من البلاغة، والدرجة القصوى من حسن النظم، وجودة المعاني، وتهذيب العبارة، والخلو من التناقض، واللفظ المسخوط"(٢).

٥- الإعجاز في القرن السابع الهجري

أشهر من تحدّث عن الإعجاز في القرن السابع: فخر الدين الرازي والسكاكي، وآخرون مثل: الآمدي سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد الشافعي (٦٣١هـ) ونصير الدين الطوسي (٦٧٢هـ) وعبد الله بن عمر البيضاوي (٦٨٥ هـ).

أما فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) فهو متكلم وفقيه ومفسر معروف، قد تكلم الرازي عن الإعجاز في أكثر من كتاب، وله كتاب في الإعجاز عنوانه: "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" ذكر فيه أن الدليل على إعجاز القرآن هو عجز العرب عن معارضته

---

(٢) تفسير مجمع البيان، الطبرسي، ج ١ ص ٤٢.

(١) المصدر السابق، ج٦، ص٢٩٠. وانظر: فكرة إعجاز القرآن، ص٩٦.

مع طلب التحدي منهم، وأن هناك أربعة أوجه ذكرها العلماء في مسألة الإعجاز:

الوجه الأول: مذهب الصرفة وقد أبطل هذا المذهب، إذ كيف يمكن أن يحصل التعجب من فصاحة القرآن مع سلب العرب قدرتهم على أن يأتوا بمثله؟ **والوجه الثاني** في الإعجاز: غرابة أسلوبه ومغايرته عما اشتهر بين العرب من الشعر والخطب والرسائل، وهذا الوجه أيضاً أبطله، لأن غرابة الأسلوب ليست هي المانعة من الإتيان بمثله. **والوجه الثالث:** عدم تناقض القرآن، وهذا أيضاً أبطله بأنه يلزم منه أن يكون كلام البشر إذا لم يكن فيه تناقض من المعجز أيضاً. **الوجه الرابع:** الإخبار عن الغيب، وهذا عنده باطل أيضاً، لأن الغيوب لا توجد في كلّ سورة وآية في القرآن. وهكذا لم يبق غير أن يكون القرآن معجزاً في خصوص الفصاحة. وينقل عنه السيوطي أن الرازي كان يعتقد أن الإعجاز يتمثل في الفصاحة، وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب[١].

وفي تفسيره المعروف يظهر من كلامه أنه يرى مذهب الصرفة، قال: "القرآن لا يخلو إمّا أن يُقال: إنّه كان بالغاً في الفصاحة إلى حدّ الإعجاز أو لم يكن كذلك، فإن كان الأَوّل ثبت أنّه معجز، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة، فعدم إتيانهم بالمعارضة، مع كون المعارضة ممكنةً، ومع توفّر دواعيهم على الإتيان بها أَمر خارق للعادة، فكان ذلك معجزاً، فثبت أنّ القرآن معجز على جميع الوجوه، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب"[٢].

أما السكاكي، فهو يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي (٦٢٦هـ)، فقيه وضليع في اللغة والأدب، له كتاب اسمه (مفتاح العلوم) ذكر فيه أن وجه الإعجاز في القرآن في بلاغته وفصاحته وهو يدرك بالذوق، يقول

(٢) الإتقان، السيوطي، ج٤، ص٩. انظر: فكرة إعجاز القرآن، ص٩٩ وما بعدها.
(٣) التفسير الكبير، الفخر الرازي، ج٢، ص٣٤٨.

في كتابه المفتاح: "واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن يدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين (المعاني والبيان)"(١).

ثم ذكر أربعة وجوه للإعجاز وأبطلها جميعاً، أولها الصرفة، ثم غرابة الأسلوب، ثم سلامته من التناقض ثم اشتماله على الغيوب، وبعد مناقشته لهذه الأوجه، قال: " فهذه أقوال أربعة، يخمّسُها ما يجده أصحاب الذوق: من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك على هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين، بعد فضل إلهي من هبة يهبها بحكمته من يشاء، وهي النفس المستعدة لذلك، فكلٌّ ميسّر لما خلق له، ولا استبعاد في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه"(٢).

أما نصير الدين الطوسي، الفيلسوف الشيعي المعروف، فقد تعرض للإعجاز في كتاب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء المتكلمين، قال:" إعجاز القرآن على قول قدماء المتكلمين وبعض المحدثين: في فصاحته، وعلى قول بعض المتأخرين: في صرف عقول الفصحاء القادرين على المعارضة"(٣).

وهكذا البيضاوي تكلم عن الإعجاز في تفسيره، وبين أنه في الفصاحة والبلاغة وكمال المعنى وصحته وقوته. قال في تفسير آيات التحدي: " قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا القرآن في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى"(٤).

وما يمكن ملاحظته على علماء القرن السابع أنهم لم يأتوا بشيء جديد، بل ينقلون أراء السابقين عليهم مع توضيح لها.

---

(٢) مفتاح العلوم، السكاكي، ص٤١٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٥١٢-٥١٣.
(٤) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، ص٢٠٩.
(١) انظر: أنوار التنزيل (تفسير البيضاوي)، ج٣، ص٢٦٦.

٦- الإعجاز في القرن الثامن الهجري

أشهر من تكلم في هذا القرن عن الأعجاز الزملكاني في كتابه (التبيان في إعجاز القرآن، وابن تيمية في كتبه المتفرقة مثل: (مجموع الفتاوى) وكتاب (الصحيح لمن بدل دين المسيح)، ويحيى بن حمزة العلوي، والأصبهاني، وابن قيم الجوزية في كتابه الفوائد المشوق إلى علم القرآن وعلم البيان، وابن كثير والشاطبي، والزركشي صاحب كتاب البرهان في علوم القرآن. نتعرض لكلمات اثنين منهم وهم الزملكاني وابن تيمية ثم نستعرض آراء البقية باختصار:

فالزملكاني (٧٢٧هـ) يقول: "وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف: بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنةً، وعلت مركباته معنىً، بأن يوضع كلّ فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى"[١].

أما ابن تيمية (٧٢٨هـ) فيظهر من كلامه في بعض كتبه، أن الإعجاز في وجوه متعددة، مثل اشتماله على كلّ العلوم ومثل إخباره عن المغيبات، ومثل النظم وترابط المفردات، مثل الأسلوب في التعبير مثل الاستعارات والأمثال، يقول في مجموع الفتاوى: "ثم إنه معجز في نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله ففيه دعوة الرسول وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته وفيه ما جاء به الرسول وهو نفسه برهان على ما جاء به. وفيه أيضاً من ضرب الأمثال وبيان الآيات على تفضيل ما جاء به الرسول ما لو جمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن ما عندهم إلا بعض ما في القرآن" [٢].

وذكر في كتاب: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، وجوهاً عديدة للإعجاز، وضعّف فقط جهة الصرفة، يقول: "وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة

---

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج٤، ص٩.

(١) مجموع الفتاوى، ج١٧، ص٤٥.

فصاحته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط، بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة: من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك.

ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة...وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن، هو حجة على إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كلّ قوم تنبهوا لما تنبهوا له... ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي - مع تمام الموجب لها - أو بسلب القدرة التامة، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاما"(١).

أما يحي ابن حمزة العلوي (٧٤٩هـ)، فهو يرى أن الإعجاز في فصاحة القرآن وبلاغته، أما ابن الجوزية فهو تارة يرفض الصرفة وأخرى يظهر من كلامه أن يقبل بها، وفي نفس الوقت يظهر قبوله بالإعجاز البلاغي حتى في قصار السور.

وأما ابن كثير فهو يرى أن الأعجاز في البلاغة وفي مضمون القرآن وموضوعه وأثره في النفوس ويرفض الصرفة، ويعتقد أن السور القصار جداً معجزة، فالقرآن كله معجز. وأما الشاطبي فله رأي تميز به في مسألة الإعجاز العلمي، فهو ينكر أن يكون القرآن مشتملاً على كلّ العلوم، بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ولو كان مشتملاً كلّ العلوم لصرح به الصحابة الذين هم أكثر فهما منا بالقران.

وأما الزركشي (٧٤٩هـ) فلم يكن له رأي خاص في الإعجاز، بل حاول جمع

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج٥، ص٤٢٨-٤٢٩.

آراء من سبقوه في كتابه (البرهان في علوم القرآن)، فذكر جميع الوجوه التي ذكرها العلماء، وأكّد على أن هذه الوجوه ليست محصورة بل يمكن أن توجد وجوه جديدة يتم اكتشافها في وقت لاحق(١).

٧- الإعجاز في القرن التاسع – نهاية القرن الثالث عشر الهجري

في هذا الفترة الزمنية الممتدة من القرن التاسع وإلى نهاية القرن الثالث، أيضاً لا توجد أفكار جديدة تضاف لما ذكره السابقون، سوى جمع الأقوال وتوضيحها.

ومن أبرز علماء هذا الفترة الذين تعرضوا للإعجاز القرآني: حسب التسلسل الزمني: ابن خلدون، السيوطي، الشهاب الخفاجي، الشوكاني، الآلوسي.

أما عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هـ) فقد تعرّض في مقدمته المشهورة- مقدمة ابن خلدون- للإعجاز، وكان رأيه أن الإعجاز القرآني: في بلاغته، وفي علو مراتب كلامه، الذي يكون في انتقاء الألفاظ، وجودة رصفها وتركيبها، وهذا لا يمكن لأي إنسان أن يدركه إلا من عنده ملكة التذوق في اللغة العربية، يقول: "إعجازه في وفاء الدّلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال مع الكلام فيما يختّص بالألفاظ في انتفائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الّذي تقصّر الأفهام عن إدراكه.

وإنّما يدرك بعض الشّيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللّسان العربيّ وحصول ملكته، فيُدرك من إعجازه على قدر ذوقه. فلهذا كانت مدارك العرب الّذين سمعوه من مبلّغه أعلى مقاماً في ذلك؛ لأنّهم فرسان الكلام وجهابذته، والذّوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحّه"(٢).

أما جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) فقد تعرض في كتابه معترك الأقران

(٢) انظر: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة، نعيم الحمصي، ص١٥٣-١٥٤.
(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج١، ص٧٦٢.

لوجوه إعجاز القرآن، فذكر خمساً وثلاثين وجهاً منها، ابتداءً بوجه العلوم التي احتواها القرآن، ومروراً بكونه محفوظاً من الزيادة والنقصان وحسن التأليف، وختاماً بالوجه الأخير، وهو ألفاظه المشتركة التي أطال فيها كثيراً، وربما استغرقت ثلثي الكتاب، ويقصد بالمشترك: الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر أو أقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر. فصار هذا الوجه من أعظم إعجازه(١).

وكل ما فعله السيوطي أنه استعرض كلّ الوجوه السابقة والتي عاصرها للإعجاز ونسبتها إلى مصادرها الأصلية، ولم يتعرض لنقدها بشكل كاف. ولم يتضح رأيه في تحديد وجه خاص منها، بل قال: إن الصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه، مستحضراً قول السكاكي في المفتاح: "اعلم أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها" (٢).

أما شهاب الخفاجي (١٠٦٩هـ) فهو الأديب أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري، له كتاب حاشية وتعليق على تفسير البيضاوي عنوانه: (عنايه القاضي وكفاية الراضي)، وفي بعض تعليقات هذه الحاشية تعرض للإعجاز، وهناك بيّن رأيه بأن القرآن معجز بفصاحته، وهذا هو الوجه الصحيح، وهو الوجه الذي وقع فيه التحدي وعجز الناس، بسبب تلك الفصاحة عن الإتيان بمثله:

يقول في هذا الكتاب: "المماثلة المصرّح بها لا تكون منشأ للعجز، لأنّ المراد ائتوا بمقدار بعض ما من القرآن، مماثل له في البلاغة والأسلوب المعجز"(٣).

وقال في مورد آخر: "إعجاز القرآن بفصاحته لا باشتماله على المغيبات، وكثرة العلوم، إذ لو كان كذلك لم يكن لقوله مفتريات معنى، أمّا إذا كان بالفصاحة

(٢) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج١، ص١٢- ٣٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٥.

(٤) عنايه القاضي وكفاية الراضي، ج٢، ص٣٤.

فالفصيح يكون صدقاً وكذباً، ولا يمنع احتمال كون الإعجاز هو الأسلوب الغريب، وعدم اشتماله على التناقض"(١). كما أنه يرفض أن يكون الإعجاز والتحدي بصرف العرب عن الإتيان بمثله، قال: " فالمراد أسكتهم للعجز لا للصرفة"(٢).

وقد أقرّ أن الفصاحة هي الوجه الحق في الإعجاز، قال: "قول [البيضاوي] وهو القرآن المعجز بفصاحته، إشارة إلى المذهب الحق في الإعجاز"(٣).

أما الشوكاني (١٢٥٠هـ) فله كتاب مهم في التفسير بعنوان: (فتح القدير) تعرض فيه للإعجاز عند تفسيره آيات التحدي، قال: "وقع الخلاف بين أهل العلم هل وجه الإعجاز في القرآن هو كونه في الرتبة العلية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر، أو كان العجز عن المعارضة للصرفة من الله سبحانه لهم عن أن يعارضوه، والحق الأول"(٤).

وقال في مورد آخر: "أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بما يقطعهم، ويبين كذبهم، ويظهر به عجزهم، فقال: قل فأتوا بعشر سور مثله أي: مماثلة له في البلاغة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، وفخامة المعاني، ووصف السور بما يوصف به المفرد، فقال: مثله، ولم يقل: أمثاله؛ لأن المراد مماثلة كلّ واحد من السور، أو لقصد الإيماء إلى وجه الشبه، ومداره المماثلة في شيء واحد، وهو البلاغة البالغة إلى حد الإعجاز"(٥).

ويتضح بذلك أن وجه الإعجاز الذي يختاره الشوكاني هو البلاغة وفخامة المعنى دون أن عجزهم عن الإتيان؛ بسبب مانع الصرفة.

---

(٢) عنايه القاضي وكفاية الراضي، ج٥، ص٧٩.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٦.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩.
(٥) فتح القدير، الشوكاني، ج١، ص٦٣.
(١) المصدر نفسه، ج٢، ص٥٥٢.

أما أبو الثناء الآلوسي، محمود شهاب الدين (١٢٧٠هـ) المفسّر والمحدّث والأديب، فله تفسير معروف بعنوان (روح المعاني) قد تعرّض في مقدمة هذا التفسير في الفائدة السابعة التي خصصها لبيان وجه إعجاز القرآن، قال: "اعلم أن إعجاز القرآن مما لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه والأهم بالنسبة إلينا بيان وجه الإعجاز والكلام فيه على سبيل الإيجاز فنقول: قد اختلف الناس في ذلك، فذهب بعض المعتزلة إلى أن وجه إعجازه اشتماله على النظم الغريب والوزن العجيب والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من العرب في مطالعه وفواصله ومفاصله..."[1].

وهكذا ذكر جميع الوجوه التي قيلت في الإعجاز، مع ذكر الاعتراضات على كلّ وجه، ثم يستعرض رأيه الخاص: وهو أن وجه الإعجاز في النظم والبلاغة والإخبار عن الغيب وتوافقه مع العقل، يقول: "إن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب، وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى، وقد يظهر كلها في آية، وقد يستتر البعض، كالإخبار عن الغيب ولا ضير ولا عيب، فما يبقى كاف، وفي الغرض واف"[2].

٨- الإعجاز القرآني في العصر الحديث وأبرز العلماء

نقصد من العصر الحديث: بداية القرن الرابع عشر وما تلاه، ويعد هذا القرن العصر الذهبي للإعجاز، فقد كثر المتكلمون فيه في الإعجاز مع اختلاف مستويات تفكيرهم، ويمكن تقسيم المتكلمين عن الإعجاز إلى طائفتين؛ الأولى: اقتصرت على وجه واحد من الإعجاز وهو الإعجاز العلمي ولم تتكلم كثيراً عن الوجوه الأخرى للإعجاز، مثل: الطنطاوي وموريس بوكاي ومحمد الشعراوي، والطائفة الثانية: تكلمت عن كلّ وجوه القرآن في الإعجاز، سواء العلمية أم غيره، مثل محمد عبده والرافعي

---

(٢) روح المعاني، الآلوسي، ج١، ص٢٨.
(١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٨-٣٢.

وسيد قطب وأمين الخولي ومحمد عبد الله دراز.

وسوف نتكلم عن الطائفة الأولى ثم نتبعها بالثانية، وسوف نقتصر على بعض الشخصيات المهمة دون الاستغراق لجميع الشخصيات.

أ- الطنطاوي جوهري

الطنطاوي جوهري(١٣٥٨هـ) عالم مصري، يوصف بحكيم الإسلام، صاحب كتاب الجواهر في تفسير القرآن، وفيه يبين العلاقة بين آيات القرآن والعلم.

امتاز تفسيره بالنزعة العلمية بشكل واضح، يقول الذهبي صاحب كتاب التفسير والمفسرون: "بعد أن قرأت الكثير من التفسير أستطيع أن أعطيك صورة واضحة عن منهج المؤلف وطريقته، التي سلكها فيه.

وذلك أن المؤلف رحمه الله يفسر الآيات القرآنية تفسيرًا لفظيًّا مختصرًا لا يكاد يخرج عما كُتب في التفاسير المألوفة لنا، والمتداولة بين أيدينا، لكنه سريعًا ما يخلص من هذا التفسير الذي يسميه لفظيًّا، ويدخل في أبحاث علمية مستفيضة، يسميها هو لطائف أو جواهر.

هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب في العصر الحديث. أتى بها المؤلف ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلى هذه الأبحاث، ونبه على تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة".

ويتابع الذهبي: "ثم إننا نجد المؤلف رحمه الله يضع لنا في تفسيره هذا كثيرًا من صور النباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة، وتجارب العلوم بقصد أن يوضح للقارئ ما يقول توضيحًا يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهد المحسوس"(١).

(١) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ج٢، ص٣٧٢-٣٧٣. مكتبة وهبة، القاهرة.

ويتضح أن طنطاوي يعتقد أن الإعجاز يتمثل في خصوص هذه المسائل العلمية، لكنه لم يذكر وجه الإعجاز بنحو صريح، وإن كانت بعض عباراته توحي بذلك.

يقول طنطاوي في تفسير بعض آيات سورة البقرة: "اعلم أن معجزات الأنبياء لا بد أن يكون لها عند الناس مبادئ، بها نعقلها، ألا ترى أن الناس يرون رؤيا صالحة بأنفسهم أو يسمعونها من غيرهم؟

فلولا ذلك لم يصدقوا الأنبياء في إخبارهم بالغيب، فاعلم أن هذا القرآن جاء للناس وهو يتلى صباحاً ومساء، وتمر عليه السنون والأعوام والناس يؤمنون به، ولا يجسر أحدٌ من المؤمنين أن يقول لم كان كذا فيما لم يدركه فهمه؟ حتى إذا جاء من يدرك المقصود منه، عرفه فأبرزه للناس"(١).

وهذه العبارة تكشف أنه يرى معجزة النبي في القرآن بما يشتمل عليه من أسرار علمية يتم اكتشافها على يد العلماء.

ب- موريس بوكاي

وممن كانت له نزعة الإعجاز العلمي الطبيب الفرنسي، موريس بوكاي (١٤١٨هـ) الذي نشأ مسيحياً كاثوليكياً، ثم أسلم، وقد درس الكتب المقدسة عند اليهود والمسلمين، وألف كتاب: "التوراة والأناجيل والقران الكريم والعلم " وقد ترجم للغة العربية، مضافاً لستّ عشرة لغة تقريباً.

يقول بوكاي في كتابه هذا: "لقد أدهشني دقة بعض تفاصيل الكتاب المندرجة في النص الأصلي؛ بسبب توافقها مع أحدث مفاهيمنا اليوم، ولكن التي لا يمكن لإنسان في عصر محمد أن تكون له عنها أي فكرة، والذي يدهش فكر من يواجه مثل هذا النص للمرة الأولى هو غزارة الموضوعات المطروحة مثل الخلق والفلك وعرض بعض الموضوعات الخاصة بالأرض وجنس الحيوان والنبات وتكاثر

---

(١) الجواهر في تفسير القرآن، طنطاوي، ج١، ص٩٩.

الإنسان، فإذا كان كاتب القرآن بشراً، فكيف أمكنه في القرن السابع الميلادي كتابة ما يثبت أنه اليوم متفق مع المعارف العلمية الحديثة؟"

ويضيف قائلاً: "أنه لا يكفي لكي نفهم الآيات القرآنية التبحر في المعارف اللغوية بل لا بد من تملك معارف علمية متنوعة جداً"(١).

ج- محمد الشعراوي

الشخصية الثالثة التي اتسمت بالميل للإعجاز العلمي في القرآن هي شخصية محمد متولي الشعراوي (١٤١٩هـ)، اشتهر بتفسير القرآن بأسلوب مبسط وميسر، حتى استطاع الوصول لشريحة كبيرة من المسلمين في العالم. له كتاب مهم عنوانه "معجزة القرآن" وهو كتاب اتسم بالتفسير العلمي للقرآن، وبين فيه الإعجاز العلمي في آيات كثيرة، يقول في مقدمة كتابه:

"ومحمد عليه الصلاة والسلام جاء والعرب قوم بلاغة وفصاحة، فجاء لهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه، وهي بلاغة القرآن، فقالوا ساحر، وقالوا مجنون، على أن إعجاز القرآن ليس لغوياً فقط، ولكن له جوانب كثيرة من الإعجاز التي يتحدى به الله وتعالى الإنس والجن إلى يوم القيامة، والقرآن له عطاء يتجدد مع كلّ جيل من الأجيال، وإذا كانت المعجزة هي خرقاً للعادة، مقرونةً بالتحدي، ولا يستطيع أحد معارضته، فقد تأتي المعجزة خرقاً للعادة ولكنها ليست مقرونة بالتحدي، بل لإثبات طلاقة قدرة الله في كونه، بحيث لا يُخضع الإنسانُ كلّ الأشياء للأسباب والمسببات، بل إن الإنسان المؤمن يجب أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى فيما تعجز عنه الأسباب(٢).

ويقول: إن معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين، معجزات

---

(٢) انظر: القرآن والإنجيل والتوراة والعلم، ص١٤٨-١٤٩.
(١) انظر: معجزة القرآن، ج١، ص١٠.

الرسل خرقت قوانين الكون، وتحدت وأثبتت أن الذي جاءت على يديه رسول صادق من الله، لكنها معجزات كونية، من رآها فقد آمن بها، ومن لم يرها صارت عنده خبراً إن شاء صدقه وإن شاء لم يصدقه، على أن معجزة القرآن تختلف في أوجه كثيرة عن المعجزات الأخرى، وفي القرآن إعجاز لا يتنبه إليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره، حينئذ يتبين أن للقرآن وجوه إعجاز أخرى أو جديدة.

إن للقرآن عطاءً لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق، ذلك أن القرآن للعالمين أي الدنيا كلها، وإلا لو أفرغ القرآن عطاءه الإعجازي في قرن من الزمان لاستقبل القرون الأخرى بلا عطاء[1].

إن الأشياء المتصلة بقوانين الكون والخلق تلك الأشياء التي لم يكن للعقل البشري الاستعداد العلمي وقت نزولها ليفهمها تماماً، مثلاً: كروية الأرض إحدى الحقائق التي تحدث عنها القرآن، الغلاف الجوي المحيط بالأرض، علم الأجنة، دوران الأرض حول نفسها، الزمن، نسبية الزمن، تناولها النبي صلى الله عليه وسلم مروراً وترك للعقل في كلّ جيل أن يأخذ قدر حجمه، والمعجزة هنا في القرآن أن يعطي لكل عقل قدر حجمه[2].

وربما يكون سبب اهتمامه بالجانب العلمي للقرآن، لدفع شبهة التناقض بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية.

د- محمد عبده

ومن علماء الطائفة الثانية التي اهتمت بكل وجوه الإعجاز، هو محمد عبده بن حسن خير الله (١٣٢٣هـ)، مفكر وفقيه إسلامي مصري، يُعدُّ أحد رموز التجديد

---

(٢) معجزة القرآن، ج١، ص١٧-٢٢.

(١) المصدر نفسه، ص٢٣.

في الفقه الإسلامي بهدف مواكبة متطلبات العصر، له تحقيق وشرح على كتاب دلائل الإعجاز للجرجاني، وله مجموعة دروس في التفسير جمعها تلميذه محمد رشيد رضا في كتاب (تفسير المنار)، وهو كتاب تفسير مشهور وقد بين فيه وجوه الإعجاز في آيات القرآن من حيث الأسلوب والبلاغة والمغيبات وسلامته من الاختلاف. وهو يختار أن الإعجاز في أسلوبه ونظمه وبلاغته، وبهذا يؤكد ما ذهب له الجرجاني، ويرفض الصرفة ويسخر منها.

جاء في تفسير المنار: "إعجاز القرآن: قد ثبت بالفعل، وتواتر فيه النقل، وحسبك منه وجود ما لا يحصى من المصاحف في جميع الأقطار التي يسكنها المسلمون، وكذا في غيرها، ووجود الألوف من حفاظه في مشارق الأرض ومغاربها، وهي تحكي لنا هذه الآيات في التحدي بإعجازه، ولو وجد له معارض أتى بسورة مثله لتوفرت الدواعي على نقلها بالتواتر أيضاً، بل لكانت فتنة ارتد بها المسلمون على أدبارهم.

ولما كان إعجازه لمزايا فيه تعلو قدرة المخلوق علماً وحِكَماً، وبياناً للعلم والحكمة، حار العلماء في تحديد وجه الإعجاز، بعد ثبوته بالعلم اليقيني الذي بلغ حدّ الضرورة في ظهوره، حتى قال بعض علماء المعتزلة: إن إعجازه بالصرفة، يعنون أن الله تعالى صرف قدرة بلغاء العرب الخلص في عصر التنزيل عن التوجه لمعارضته، فلم يهتدوا إليها سبيلاً، ثم تسلسل ذلك في غيرهم واستمر إلى عصرنا هذا، وهذا رأيُ كسولٍ أحبَّ أن يريح نفسه من عناء البحث، وإجالة قدح الفكر في هذا الأمر، وللباحثين فيه أقوال، كتبت فيها فصول، وألفت فيها رسائل وكتب.

إن إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه، بوجهين:

الأول: اشتماله على النظم الغريب والوزن العجيب، والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من كلام العرب في مطالعه وفواصله ومقاطعه...ولعمري إن مسألة النظم والأسلوب لإحدى الكبر، وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر، ولم يوفها أحد

حقها، على كثرة ما بدأوا وأعادوا فيها، وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد، وإنما هو مائة أو أكثر.

الثاني: بلاغته التي تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء قبله وفي عصر تنزيله وفيما بعده، ولم يختلف أحد من أهل البيان في هذا، وإنما أورد بعض المخالفين بعض الشبه على كون بلاغة كلّ سورة من قصار سوره بلغت حد الإعجاز فيه، والقائلون به لا يحصرون إعجاز كلّ سورة فيه.

ويتحقق التحدي عندهم بإعجاز بعض السور القصيرة بغيره، كأخبار الغيب في سورة الكوثر التي هي أقصر سوره، على أن مسيلمة تصدى لمعارضتها بمحاكاة فواصلها، فجاء بخزيٍ، كان حجة على عجزه، وصحة إعجازها.

ومن الناس من لا يفقه سر هذه البلاغة، ويماري فيما كتب علماء المعاني والبيان من قواعدها، زاعمين أنه يمكن حمل كلّ كلام عليها، وأن الإحالة على الذوق فيها إحالة على مجهول، لا تقوم به حجة ولا يثبت به مدلول؛ لأن الذوق المعنوي كالحسي خاص بصاحبه "من ذاقَ عرفَ ".

وسبب هذا جهلهم اللغة العربية الفصحى نفسها، فقد مرت القرون في إثر القرون على ترك الناس لمدارسة الكلام البليغ منها، واستظهاره واستعماله، واقتصار مدارس الأمصار على قراءة كتب النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع، وهي أدنى ما وضع في فنونها فصاحة وبياناً، وأشدها عجمة وتعقيداً، وهي الكتب التي اقتصر مؤلفوها على سرد القواعد بعبارة فنية دقيقة بعيدة عن فصاحة أهل اللغة، وعن بيان المتقدمين الواضعين لهذه الفنون ومن بعدهم إلى القرن الخامس، كالخليل وسيبويه وأبي علي وابن جني وعبد القاهر الجرجاني، حتى صار أوسع الناس علماً

بهذه الفنون أجهل قراء هذه اللغة بها، وأعجزهم عن فهم الكلام البليغ منها"[١].

هـ- مصطفى صادق الرافعي

ومن الطائفة الثانية، مصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعي (١٣٥٦هـ) وهو أديب وشاعر وكاتب، عاش حياة حافلة باللغة العربية وآدابها، له عدة مؤلفات، منها: (تاريخ آداب العرب) وفي هذا الكتاب خصص الجزء الثاني منه في إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة، ثم جعل هذا الجزء كتاباً مستقلاً بنفس العنوان: (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية).

وفي هذا الكتاب المهم عالج الرافعي بدقّة حقيقة الإعجاز القرآني ومنزلة القرآن الكريم في اللغة وإعجازه البياني. فقد كان الرافعي يرى أن الإعجاز له بعد ديني وقيمة لغوية ذات جمال شكلي يتجاوز كلّ إمكانات البشر.

وقد استعرض - قبل أن يبيّن رؤيته الخاصة في حقيقة الإعجاز - ما قيل في وجوه الإعجاز من المتكلمين وغيرهم، منتقداً إياها في بعضها ومعارضاً في بعض آخر، ثم في آخر المطاف يقرر رأيه في الإعجاز الذي تمثل في نظم كلمات القرآن وكيفية إنتاجها للمعنى؛ مؤكداً في الوقت ذاته إن القرآن معجز في تاريخه ومعجز في أثره الإنساني وفي حقائقه، لكنما الكلام في بيان إعجاز القرآن في نفسه من حيث هو كلام عربي، هذا النحو من الإعجاز الذي يتناغم وينسجم ويتلاءم مع اتجاه الرافعي الأدبي.

يقول: "أما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن، وما حققناه بعد البحث، وانتهينا إليه بالتأمل وتصفح الآراء وإطالة الفكر وإنضاج الروية، وما استخرجناه من القرآن نفسه في نظمه ووجه تركيبه واطراد أسلوبه؛ ثم ما تعاطيناه لذلك من التنظير

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، ج١، ص١٦٥-١٦٧. وانظر: رسالة التوحيد، محمد عبده، ص١٣١-١٣٤.

والمقابلة... أن القرآن معجز بالمعنى الذي يُفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، هو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة، وإنَّما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية، يشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ، كأنها مفرغة إفراغاً من ذوْب تلك المواد كلها"(١).

ثم يقول: "وبعد، فهذا الذي وقفناك عليه هو كلّ ما صدقوا وكذبوا فيه من خبر المعارضة، أما إن القرآن الكريم لا يعارض بمثل فصاحته وتركيبه، وبمثل ما احتواه، ولو اجتمعت الإنس بما يعرفونه، وأمدهم الجن بما لا يعرفونه، وكان بعضهم لبعض ظهيراً، فهو ما نبسطه فيما يلي، وذلك هو الحق الذي لا جمجمة فيه، ولا يستعجم على كلّ بليغ له بصر بمذاهب العرب في لغتها وحكمة مذاهبها في أساليب هذه اللغة، وقد تفقه بالبحث في ذلك والكشف عن دقائقه، وكان يجري من هذه الصناعة البيانية على أصل ويرجع فيها إلى طبع"(٢).

ثم يقول أيضاً: "وهذا الأسلوب فإنما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز، وليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزاً وهو الذي قطع العرب دون المعارضة، واعتقلهم عن الكلام فيها، وضربهم بالحجة من أنفسهم وتركهم على ذلك يتلكؤون. ثم هو الذي مثل لهم اليأس قائماً لا يتصل به الطمع، وصور لهم العجز غالباً لا تنال منه القدرة.

وقد كانوا يتساجلون الكلام، ويتقارضون الشعر، ويتناقضون في أغراضه ومعانيه، حين لم يكن من الفرق عند فصحائهم بين فنّ وفنّ من القول إلا ما يكون من تفاوت المعاني واختلاف الأغراض وسعة التصرف، وكان أسلوب الكلام قبيلاً واحداً وجنساً معروفاً، ليس إلا الحرُّ من المنطق والجزل من الخطاب، وإلا

---

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص١٠٩.
(١) المصدر نفسه، ص١٢٩.

اطّراد النسق، وتوثيق السرد، وفصاحة العبارة، وحسن ائتلافها.

فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب، وألوان المنطق. ليس في ذلك إعناتَ ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته، ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود؛ حتى أحسُّوا بضعف الفطرة القوية، وتخلف الملكة المستحكمة؛ ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه، وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم، وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب أو اعتراض مساغه إلى هذه النفس"(١).

فالأسلوب والنظم هو مناط الإعجاز القرآني عنده؛ فهو آية الجمال والجلال في القرآن الكريم، مع اعترافه بأنه ليس أول من قال بفكرة النظم في الإعجاز القرآني، لكنه حريص على أن يتناول هذه الفكرة بأسلوبه عندما أدرك حلاوة هذا النظم وروعته من خلال ذوقه الأدبي، وبهذا يفترق عن الجرجاني على أساس أن ثمة فهماً خاصاً ناتجاً من تذوقه هو، أدق وأشمل مما كان يعتقد به عبد القادر الجرجاني.

فلم يحصر فكرة النظم في توخي قواعد النحو كما فعل الجرجاني - وسوف يأتي بيان ذلك لاحقاً- ومن هنا اعتنى كثيراً بالعلاقة بين حروف القرآن بعضها ببعض، وما تدل عليه من معنى، بينما أهملها الجرجاني.

وتجلى دقة الرافعي في بيان فكرة النظم في القرآن الكريم، عندما بدأ بحروفه وأصوات هذه الحروف وما تدل عليه من معنى، ثم الكلمات التي تشكّلها تلك الحروف، ثم جمل القرآن وكلمات هذه الجمل، ليصل لاحقاً إلى غرابة الأوضاع التركيبية في نظم القرآن كله.

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص١٣١.

لقد أولى الرافعي عناية مركزة بالكلمة المفردة وفي نسقها ونظمها، فقد تكون الكلمة الواحدة من الجملة أو حتى الحرف الواحد في الكلمة أبلغ في الإيحاء وتصوير المعنى في الذهن من تركيب جمل متعددة. ولم يترك ذلك مجرد نظرية فقط بل مزج ذلك بنماذج متنوعة من التطبيقات القرآنية. فكل حرف في القرآن له أهمية في مورده، سواء أكانت هذه الأهمية من جهة المعنى أم من جهة موسيقى هذا الحرف التي تكسب الكلام رونقًا وجمالاً وروعة، يقول: "إنّ في هذه الزيادة لونًا من التصوير، لو هو حُذف من الكلام؛ لذهب كثيرٌ مِن حُسنه وروعته"(١).

وسوف نتكلم عن بعض التطبيقات التي ذكرها الرافعي عندما نتناول نظرية النظم عند الجرجاني لاحقاً.

و- سيد قطب

سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي (١٣٨٥هـ) داعية إسلامي وكاتب وشاعر وأديب، له عدة مؤلفات، وفي مجال القرآن ثلاثة كتب مهمة: "التصوير الفني للقرآن"، و"مشاهد القيامة في القرآن"، وكتابه المشهور في التفسير: "في ظلال القرآن".

وفي كتابه التصوير الفني للقرآن لم يتكلم عن وجه الإعجاز بشكل صريح، لكن بملاحظة الأمثلة القرآنية التي يتحدث عنها يطمئن القارئ في أنه يؤمن بأن وجه الإعجاز في القرآن هو خصوص البياني، وإن كان في الوقت ذاته لم يهمل الحديث عن الوجوه الأخرى منه، يقول في تفسيره ظلال القرآن: " إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به"(٢).

لقد كان سيد قطب يبحث عن منبع السحر الذي وصف العرب فيه القرآن،

---

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص١٥٩.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٤ ص ٢٢٥٠

ولم يكن هو العلوم الكونية ولا سحر التشريع ولا الأمور الغيبية، بل هو أمر آخر؛ لأن هذا الانبهار بالقرآن ثابت في السور الأولى التي لم يكن فيها تشريع مثل سورة العلق والمزمل، فلا بد أن يكون السحر القرآني في وجه آخر، ويرى سيد قطب أن منبع السحر هو النسق القرآني.

يقول: "يجب أن نبحث عن منبع السحر في القرآن قبل التشريع المحكم، وقبل النبوءة الغيبية، وقبل العلوم الكونية، وقبل أن يصبح القرآن وحدة مكتملة تشمل هذا كله، فقليل القرآن الذي كان في أيام الدعوة الأولى كان مجرداً من هذه الأشياء التي جاءت فيما بعد، وكان مع ذلك محتوياً على هذا النبع الأصيل الذي تذوّقه العرب، فقالوا: إن هذا إلا سحر يؤثر.

فأين هو السحر الذي تحدث عنه الوليد بن المغيرة؟ ... لا بد إذن أن السحر الذي عناه كان كامناً في مظهر آخر غير التشريع والغيبيات والعلوم الكونية، لا بد أنه كامن في صميم النسق القرآني ذاته"(١). فهذا نوع من التوفيق في تصوير التناسق النفسي بين الأحاسيس المتتابعة المنبعثة من تتابع الآيات وهو لون من ألوان التناسق الأولية في القرآن(٢).

وقد أثنى على الجرجاني، وقال: "إن رجلاً واحداً من الباحثين في البلاغة والإعجاز - سابق للزمخشري - بلغ غاية التوفيق المقدّر لباحثٍ في عصره، هو عبد القادر الجرجاني، فلقد أوشك أن يصل إلى شيء كبير في كتابه دلائل الإعجاز لولا قصة المعاني والألفاظ ظلت تخايل له من أول الكتاب إلى آخره، فصرفته عن كثير مما كان وشيكاً أن يصل إليه"(٣)

---

(٢) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص١٨-١٩.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٨
(١) المصدر نفسه، ص٣٠-٣١.

وينقل عن الجرجاني مثالاً على النظم في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿**واشتعل الرأس شيباً**﴾ وقوله تعالى: ﴿**وفجرنا الأرض عوناً**﴾ ثم يعلق: "رحم الله عبد القاهر لقد كان النبع منه على ضربة معول فلم يضربها، إن الجمال في ﴿**اشتعل الرأس شيباً**﴾ و ﴿**فجرنا الأرض عيوناً**﴾ هو ذلك الذي قاله من ناحية النظم، وفي شيء آخر وراءه هو: هذه الحركة التخيلية السريعة التي يصورها التعبير القرآني، حركة الاشتعال التي تتناول الرأس في لحظة والحركة التي تفور بها الأرض في ومضة، فهذه الحركة التخيلية تلمس الحس، وتثير الخيال، وتشرك النظر، والمخيلة في تذوق الجمال، وهي في ﴿**واشتعل الرأس شيباً**﴾ أوضح وأقوى.

وليست له في الحقيقة، وهذه الحركة هي عنصر الجمال الصحيح، فإن في التعبير بالاشتعال عن الشيب جمالاً، وإن في إسناد الاشتعال إلى الرأس جمالاً آخر، يكمل أحدهما الآخر، وهذا هو الذي وقف دونه عبد القادر(١).

فالفرق بين عبد القادر وسيد قطب، أن الأخير يرى أن هناك خصائص عامة في التعبير القرآني مضافة للنظم والنسق هي عنصر الإعجاز والجمال في القرآن. هذه الخصائص العامة هي الأصول العامة للجمال الفني فيه.

وهذه الأصول العامة تمثل في كيفية التصوير الفني للمعاني بطريقة تجعل السامع أو القارئ يعيش المعنى ويعيش الواقعة وكأنه يراها ويسمعها ويتذوقها، فليس النظم هو العنصر الوحيد في الإعجاز بل يضاف له هذا الجمال في التصوير، وفي هذا السياق يقول: " لقد كانت السمة الأولى للتعبير القرآني هي اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية، وإبرازها في صور حسية، والسير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعية، والحوادث الماضية، والقصص المروية، والأمثال القصصية، ومشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، والنماذج الإنسانية، كأنها كلها

---

(٢) المصدر السابق، ص٣٣-٣٥.

حاضرة شاخصة. بالتخييل الحسي الذي يفعمها بالحركة المتخيلة"[1].

ز- أمين الخولي

أمين إبراهيم عبد الباقي الخولي (١٣٨٥هـ) أديب وباحث وكاتب، ويعد من أبرز رموز الحركة التجديدية في الفكر الإسلامي، له عدة مؤلفات، ومنها ما يتعلق بالإعجاز: (البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها)، و (التفسير معالم حياته ومنهجه اليوم)، (بحث الإعجاز النفسي).

يتحدث الخولي عن البلاغة وتأثرها بالفلسفة والكلام - في بحثه الموسوم بالبلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها - وارتباطها بالإعجاز، يقول:

"بل الحق إن قضية الإعجاز قد أثرت تأثيراً كبيراً في توجيه التأليف في البلاغة وتكوّن الآراء في وجه حُسنِ الكلام، وكان لها أكثر الأثر فيما نرى من مذاهب في ذلك، كما أن لها الفضل الأكبر في ظهور مؤلفات بلاغية بعينها، مما لا يمكن فهمه الفهم الجيد إلا بعد الرجوع إلى مذاهب المتكلمين في الإعجاز كما تشرحها كتب العقائد.

وقد مضى القوم على أن الغرض من البلاغة والغاية منها إنما هي تأثير الإعجاز في البلاغة، في معرفة وجه الإعجاز، كذلك يقرر ابن خلدون في تاريخ البيان بمقدمته: "والمتأخرون حين يتكلمون عن المبادئ العشرة يقولون: إن فائدة علوم البلاغة معرفة إعجاز القرآن ولاتصالها بهذا الأمر الاعتقادي كان فضلها أنها من أشرف العلوم الأدبية"[2].

ويرى الخولي: أن الفلسفة أضرت بالبلاغة، فقد جعلت ميزان معرفة حُسن القول: هو العقل وقياسات المنطق، بينما المعيار الوحيد حصراً هو الذوق الوجداني

(٢) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص٢٤١.
(٣) انظر: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، الخولي، ص١٦٨-١٦٩.

والإحساس الأدبي[١].

كما انتقد رأي المتكلمين أيضاً في قصر البلاغة على الإعجاز، وبيّن أن القول بتعليل الإعجاز قد أضر بالبلاغة كثيراً، وما هو إلا رأي زائف، وإن شاع وساد عند المتأخرين، وأن السكاكي -الذي يراه من أبطال البلاغة - من الذين بينوا فساده، بأن رفض القول بإمكان تعليل الإعجاز وبيان وجهه، وتراجع عن هذه الطريقة بعد ما كان قد اندفع لها مع أصحابها، وأنكر ما عداها حيناً، عندما قال:

"واعلم أن شأن الإعجاز عجيب، يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلّا، وأن وجه الإعجاز من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك إليه إلا الذوق وهو يكتسب بطول خدمة علم المعاني والبيان"[٢].

وهكذا يرى الخولي أن طريق معرفة الإعجاز هو الذوق الفني والممارسة الأدبية للبلاغة على ما تقضي به أصول التربية الفنية الصحيحة، ومن هنا يكون قصر البلاغة على بيان الإعجاز قصراً فنياً لا ضرر منه مطلقاً، لكن لن يتحقق الإعجاز الذوقي بدراسة تعريفات البلاغة التقليدية ومناقشات تلك التعريفات ودراسة حواشي علماء البلاغة والتعليقات عليها والخوض في الخلاف على الاستعارة وأشباهها، لأن ذلك لن يكون ذوقاً أدبياً، ولن يحقق الغرض البلاغي ولا الديني من إدراك الإعجاز، بل هو خطأ، بل تقصير ديني، فهو لا ينتهي إلى فهم الإعجاز ولا بيان وجهه، بل يرين على البصيرة ويضعف قوة إدراكها[٣].

وفي مجال التفسير يعتقد الخولي: أن القرآن لا بد أن يُدرس من حيث هو كتاب

---

(٢) المصدر السابق، ص١٧٠.

(٣) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ص١٧٣-١٧٤.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص١٧٤.

العربية الأكبر، ومن حيث كونه أثرها الأدبي الأعظم، ولابد أن يُدرس درساً أدبياً كما تدرس الأمم المختلفة عيون آداب اللغات المختلفة[١].

فالقرآن كتاب الفن العربي الأقدس، والدرس الأدبي للقرآن بالمستوى الفني دون نظر إلى أي اعتبار ديني، هو الغرض الذي يجب أن يسبق كلّ غرض ويتقدم كلّ مقصد. وهذه الدراسة هي ما تسمى اليوم تفسيراً، لأنه لا يمكن بيان غرض القرآن ولا فهم معناه إلا بها[٢].

ومن هذا المنهج الأدبي الذي ارتضاه في تفسير القرآن ينطلق الخولي إلى التفسير النفسي والقول بالإعجاز النفسي للقرآن، انطلاقاً من الصلة الوثيقة بين البلاغة وعلم النفس، ويبين أن هناك حاجة إلى تفسير نفساني للقرآن يقوم على الإحاطة المستطاعة بما عرف العلم من أسرار حركات النفس البشرية، وكيف تلطّف القرآن لذلك كله، وماذا استخدم من حقائق نفسية.

فالتفسير النفسي يقوم على أساس وطيد من صلة الفن القولي بالنفس الإنسانية، وأن الفنون على اختلافها ومن بينها الأدب ليست إلا ترجمة لما تجده النفس[٣].

فإذا كان وصل البلاغة بعلم النفس وإقامتها على ذلك الأساس الذي يمضي العلم قدماً في الكشف عنه، سيهدينا إلى قول محدث أو رأي جديد في فهم الإعجاز القرآني، ولو لم يكن تعليلاً له بالمعنى التام، فتلك فضيلة لهذا الرأي في حل قضية الإعجاز الكبرى أو في دونها من الحل.

فالتكرار مثلاً في القرآن يقوم على اعتبار نفسي إنساني عالمي، يراه علماء النفس من أقوى طرق الإقناع، وخير وسائط تركيز الرأي والعقيدة في النفس البشرية

---

(٢) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ص٣٠٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣١٦.

على هينة وفي هوادة، دون استثارةٍ لمخالفيها بالجدل والمشادة في نظم البرهان والتعرض ابتداء للاستدلال[١].

ومن هنا يتمثل الإعجاز النفسي عند الخولي في معرفة الله تعالى للشؤون النفسية لخلقه، ومن ثم توظيف ذلك -في الاستعمالات القرآنية- للظواهر النفسية والنواميس الروحية التي أدار عليها بيانه القرآني، مستدلاً وهادياً ومقنعاً ومجادلاً ومثيراً ومهدداً.

فالقرآن قد راعى قواعد نفسية من أجل ترسيخ الاعتقاد، وراعى طرق الانفعال ونواحي التأثير وجوانب الاطمئنان، وأثار من هذا ما يؤيد حجته وأظهر دعوته. فقد جاء القرآن نسيجاً على قوالب دقيقة وأنوال نفسية لا يدَ لمتفننٍ بها، ولا سبيل إلى التزامها ورعايتها، بل لم تكن سبيل إلى التكهن بطرف منها أو التنبه لبعضها، فهذه صنيع فوق قدرة البشر وقوى الناس، وذاك قول في الإعجاز وعلته النفسية منتهٍ إلى علم ما لم يكن، وضبط ما كان مجهولاً بعيد المنال[٢].

ح- محمد دراز

محمد عبد الله دراز (١٣٧٧هـ) عالم مصري، وباحث وكاتب متميز في علوم القرآن، له مؤلفان مهمان في المجال القرآني: **(النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن)** و **(دستور الأخلاق في القرآن)**.

كتابه النبأ العظيم كتاب عظيم فعلاً وهدفه الأول هو إثبات سماوية القرآن وربانيته، ومن غير الممكن أن يكون صنيع بشر؛ ولهذا تجده يتحدث في موارد عديدة منه كلها حافلة بدلائل الإعجاز، وغرضه من ذلك الدفاع عن القرآن وتعزيز الإيمان به.

---

(٢) المصدر السابق، ص٢١٠.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٣-٢٠٤.

إن الكلام عن محمد دراز طويل وممتع، وهو بحاجة إلى مقال منفرد يخصص له، فإنّ كتابه "النبأ العظيم" يُعدُّ مَعْلَمًا بارزًا شامخًا بين كلّ الدراسات القرآنية التي تناولت موضوع الإعجاز. وسوف نقتصر على مقتطفات من كلامه بما يتناسب مع الاختصار.

لقد ركز دراز على فكرة مباينة أسلوب القرآن لسائر الأساليب، في قضية الإعجاز اللغوي، ابتداءً من البناء الصوتي وانتهاءً إلى القرآن في جملته؛ وقد سعى إلى إبراز تلك الخصائص، مقارناً ذلك مع منهج الإنسان في البيان، وطريقته في الكشف عن معانيه، وجوانب النقص في هذا الكشف الإنساني، ما يبرز جوانب الكمال في البيان القرآني.

ونلاحظ أن دراز يشترك مع سيد قطب في أن كليهما هدفهما الوصول للخصائص العامة للبيان القرآني، فإن سيد قطب أكّد على خاصية التصوير الفني التي اتبعها القرآن في جميع أغراضه التشريعية وغيرها، بينما أكّد دراز على خصائص البناء الصوتي، ثم خصائص بناء المعنى في كلّ سورة منه وفيما بين سورة وسورة، ثم في جملته.

لقد تحدث دراز عن وجوه الإعجاز في ثلاثة منها: الأول: الإعجاز اللغوي والثاني: العلمي، والثالث: سماه الإصلاحي التهذيبي الاجتماعي. واعتنى عناية فائقة بالإعجاز اللغوي، كون هذا الوجه هو الذي وقع فيه التحدي بالقرآن جملة وتفصيلاً في سورة منه(١).

وقد كشف أن حسن الاختيار في استعمال اللغة وتوظيفها في تحقيق أغراض المتكلم قد يعلو بالكلام حتى يسترعي السماع، ويثلج الصدر، ويملك القلب، ذلك أن اللغة فيها العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، وفيها العبارة

(١) النبأ العظيم، محمد دراز، ص١٠٨.

والإشارة والفحوى والإيماء، وفيها الخبر والإنشاء، وفيها الجمل الاسمية والفعلية، وفيها النفي والإثبات، وفيها الحقيقة والمجاز، وفيها الإطناب والإيجاز، وفيها الذكر والحذف، وفيها الابتداء والعطف، وفيها التعريف والتنكير، وفيها التقديم والتأخير، وهلم جراً.. ومن كلّ هذه المسالك ينفذ الناس إلى أغراضهم.

فالجديد في لغة القرآن أنه في كلّ شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسها رحمًا بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كلّ مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين. لا يومًا أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلًا، ولا الساكن يبغي عن منزله حِوَلًا.. وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان(١).

إن دراز أراد أن يوصل فكرة غرابة الأسلوب، فكرّس كثيراً من كلامه لإبراز هذه الغرابة، فاستطاع أن يُفهم القارئ أن الأسلوب القرآني يحمل طابعًا لا يلتبس معه بغيره، ولا يجعل طامعًا يطمع أن يحوم حول حماه؛ بل يدعُّ الأعناق، تشرئب إليه ثم يردها؛ ناكسةً الأذقان على الصدور.

فكل من يرى بعينين أو يسمع بأذنين إذا وضع القرآن بإزاء غير القرآن في كفتي ميزان، ثم نظر بإحدى عينيه أو استمع بإحدى أذنيه إلى أسلوب القرآن، وبالأخرى إلى أسلوب الحديث النبوي وأساليب سائر الناس، وكان قد رُزق حظًّا ما من الحاسة البيانية والذوق اللغوي؛ فإنه لا محالة سيؤمن بهذه الحقيقة الجلية، وهي أن أسلوب القرآن لا يدانيه شيء من هذه الأساليب كلها(٢).

---

(٢) النبأ العظيم، ص١٢١.
(١) المصدر نفسه، ص١٢٩.

وهذه الغرابة في الأسلوب امتازت بجملة من الخصائص، وأول ما يسترعي ويستدعي الانتباه هو خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره، فدعْ القارئ المجود يقرأ القرآن، يرتله حق ترتيله، نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه. ثم انتبذْ منه مكانًا قصيًّا، لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومدّاتها وغنّاتها، واتصالاتها وسكتاتها، ثم ألقِ سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جُرّدت تجريداً، وأرسلتْ ساذجةً في الهواء.

فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب، لا تجده في كلام آخر. وستجد اتساقًا وائتلافًا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر، وستجد شيئًا آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر.

ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر؛ فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتًا بيتًا، وشطرًا شطرًا، وتسمع القطعة من الموسيقى؛ فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبًا متقاربًا. فلا يلبث سمعك أن يمجّها، وطبعك أن يملّها، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد.

وهذا بخلاف القرآن فأنت دائماً في لحن متنوع متجدد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل، على أوضاع مختلفة، يأخذ منها كلّ وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالةٌ ولا سأمٌ، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد[1].

ويصطلح دراز على هذا الأسلوب الرائع بالجمال التوقيعي في لغة القرآن، الذي يراه أنه لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب. فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟!

يقول دراز: "إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٣-١٣٤.

النظام الصوتي البديع الذي قُسّمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوعًا يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزّعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعًا بالقسط الذي يساعد على ترجيع الصوت به، وتهادي النفس به آنًا بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى، فيجد عندها راحته العظمى.

وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حدّ الإسراف في الاستهواء، ثم إلى حدّ الإملال في التكرير، فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها، سواء منه المرسل والمسجوع، بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوبٌ تغضّ من سلاسة تركيبه، ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه(١).

ثم يكشف لنا أن الأمر لا يقتصر على البناء الصوتي، بل يشمل الجمال التنسيقي في رصف حروف القرآن وتأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة:

يقول: "فإذا ما اقتربت بأذنك قليلًا قليلاً، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذةٌ أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها؛ هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفَس، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلم جرّاً، فترى الجمال اللغوي ماثلًا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تنافر.

وهكذا ترى كلامًا ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها، برقة الحاضرة وسلاستها، وقدّر فيها الأمر تقديرًا، لا يبغي بعضهما على بعض. فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين

(٢) المصدر السابق، ص١٣٤.

وسلالتهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل، عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم(١).

ومضافاً لروعة تنسيق الحروف ثمة المعاني القرآنية التي هي معجزة أيضاً، فقد اشتملت هذه على العلوم العجيبة، فتلك خطوة أخرى ونظرة خارجة عن البحث اللغوي جملة.

إذ الفضيلة البيانية إنما تعتمد دقة التصوير، وإجادة التعبير عن المعنى كما هو، سواء عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ما تناوله عقول الناس أو لا يكون، بل سواء عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ما تتناوله عقول الناس أو لا يكون، بل سواء عندها أن يكون ذلك المعنى حقيقة أو خيالًا، وأن يكون هدى أو ضلالًا، عكس الفضيلة العلمية، فإنها عائدة إلى المعنى في نفسه على أي صورة أخرجته، وبأي لغة عبرت عنه(٢).

ويخلص دراز إلى أن نظم القرآن الكريم قد جمع إلى الجمال عزةً وغرابةً، وأن هذا الجمال كان قوةً إلهيةً حفظ بها القرآن من الفقد والضياع، وأن هذه الغرابة كانت قوةً أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز(٣).

ونختم - بحديث دراز الممتع عن الإعجاز اللغوي في القرآن - البحث في نظرات ودراسات وآراء العلماء في مسألة الإعجاز، سواء المتقدمين والمتأخرين، وننتقل بعد ذلك إلى بيان قضية الصرفة، التي قال بها بعض العلماء: في كونها سرّ الإعجاز، وسرّ عجز الناس عن الإتيان بمثل القرآن.

---

(٢) المصدر السابق، ١٣٥..

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(١) المصدر نفسه، ص١٣٦.

إعجاز الصرفة

- مفهوم الصرفة
- القائلون بالصرفة وما يعترض عليهم

بعد التمهيد، ندخل الآن في وجوه الإعجاز، وقلنا في التمهيد إن أحد الأقوال في وجوه الإعجاز هو الصرفة، وقد ذهب لهذا القول مجموعة من العلماء، منهم: النظّام المعتزلي والسيد المرتضى وابن حزم الأندلسي، وغيرهم كما سوف يأتي. وإن هذا القول كان أحد الدواعي الرئيسة للاهتمام بالإعجاز القرآني.

وقلنا في بحث نظرات في الإعجاز -في القرن الثالث- أن الجاحظ قد ردّ على أستاذه النظّام قوله بالصرفة في كتاب بعنوان (نظم القرآن). ونظرية الصرفة نظرية مهمة، كانت شائعة في القرن الثالث والرابع الهجري.

أولاً: مفهوم الصرفة

الصرفة في اللغة من الثلاثي (صرف) وهو "أصل واحد يدل على: رجع الشيء، ومن ذلك: صرفت القوم صرفاً وانصرفوا، إذا رجّعتهم فرجعوا"[1] أو قل هو: "رد الشيء عن وجهه"[2].

وفي الاصطلاح: هناك أكثر من معنى كما سوف يتضح لاحقاً، لكن المعنى الذي اتفق عليه أغلب القائلين به هو: "أن الله تعالى صرف قدرة وهمة العرب عن معارضة القرآن"[3].

ثانيًا: منشأ فكرة الصرفة

في تحليل منشأ القول بالصرفة يوجد رأيان:

الرأي الأول: إن القول بالصرفة نشأ نتيجة تأثر العلماء العرب بالفلسفات الهندية

---

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٣، ص٣٤٢.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، ج٩، ص١٨٩.

(١) بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص٢٢.

واليونانية، فقد حدث في القرن الثالث تحديداً وفي العصر العباسي انجذابٌ نحو الفلسفة غير الإسلامية، مثل الفلسفة الهندية، والفلسفة اليونانية والفارسية، واهتم علماء الكلام بدراسة هذه الفلسفات والأفكار، من قبيل معتقدات البراهمة، وهو اسم يُطلق على أفراد الطبقة العليا من رجال الدين في الديانة الهندوسية التي تعد أكبر الديانات في الهند. ومن أهم كتب البراهمة كتاب "الفيدا" الذي يعني الحكمة والمعرفة. هذا الكتاب عنونه البيروني باسم "بيذ" وقال إنه يتضمّن الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب بالتحديد والتعيين والثواب والعقاب، ومعظمه على التسابيح وقرابين النار بأنواعها التي لا تكاد تحصى.

وقال إن البراهمة يتلونه من غير أن يفهموا تفسيره ويتعلموه كذلك فيما بينهم، وهو كتاب يجمع كلّ العلوم الغيبية، فهو العلم لما ليس بمعلوم، ولا يجوّزون كتابته لأنّه مقروء بألحان فيتحرّجون عن عجز القلم وإيقاعه زيادة أو نقصاناً في المكتوب، يقول البيروني: "وليس "بيذ" على ذلك النظم السائر، بل هو بنظم غيره، فمنهم من يقول: إنّه معجز لا يقدر أحد منهم أن ينظم مثله، والمحصّلون منهم يزعمون أنّ ذلك في مقدورهم لكنّهم ممنوعون عنه احتراما له"(١).

يقول أبو زهرة: "وعندما دخلت الأفكار الهندية في عهد أبي جعفر المنصور، من والاه من حكام بني العباس، تلقّف الذين يحبون كلّ وافد من الأفكار، ويركنون إلى الاستغراب في أقوالهم، فدفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا ذلك القول، ويطبقوه على القرآن، وإن كان لا ينطبق، فقال قائلهم: إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه، بل؛ لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله"(٢).

---

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة، البيروني، ص٨٨-٨٩.
(١) المعجزة الكبرى، أبو زهرة، ص٥٨.

ويرى الرافعي أن القول بالصرفة مزيج بين الفلسفة اليونانية والدين، يقول: "ثم لما نَجَمَت آراء المعتزلة بعد أن أقبل جماعة على دراسة كتب الفلسفة مما وقع إليهم عن اليونان وغيرهم، نبغت لهم شؤون أخرى من الكلام، فمزجوا بين تلك الفلسفة على كونها نظراً صرفاً، وبين الدين على كونه يقيناً محضاً، واختلفت بهذا آراؤهم في وجه إعجاز القرآن اختلافاً يقوم بعضه على بعض"(١).

وهذا الرأي الأول في المنشأ يلاحظ عليه فيما يتعلق بالبراهمة وكتابهم والعبارة التي أوردها البيروني: أنه لا دلالة فيه على الصرفة بمعناه في الإعجاز، وهو صرف الله بقدرته الناس ومنعهم عن أن يأتوا بمثل القرآن، بل كلّ ما تفيده العبارة أنهم ممنوعون من الإيتاء بمثل ما في "الفيدا" احتراماً له، فالمنع تكليفي لا تكويني، فقد تكون لهم القدرة ولكن لا يفعلون ذلك من باب الاحترام.

الرأي الثاني: أن منشأ القول بالصرفة لم يأت من تأثير الفكر الفلسفي الهندي أو اليوناني، بل القول بها جاء انسياقاً مع ذائقة العرب في النثر البديع والشعر الطويل والسجع الغريب والمعلقات ونحوها، إذ كيف يعجزون عن الإتيان بمثل أقصر سورة أو بعض كلمات لا تتجاوز العشرة مع أن الجمل في اللغة العربية مركّبةٌ من ألفاظٍ ومعاني لتلك الألفاظ، وفيها تقديمٌ وتأخيرٌ وحذفٌ وما إلى ذلك من أساليب.

فإذا كان القرآن يسير وفقاً للقواعد والطرائق التي اعتادت العرب عليها، فما الذي يمنع إذن من الإتيان بمثله؟ فإمَّا أنَّ القرآن ليس بمعجزٍ، ويمكن أن يأتي العرب بمثلهِ، وهذا غير ممكن، وإمَّا الإذعان بأن القواعد اللغوية العربية لا علاقة لها بقواعد القرآن وأساليبه الخاصة به، وهو أيضاً ليس صحيحاً، فيتحتم أن يكون المانع هو مانعاً إلهياً تكوينياً منع العرب وصرف همتهم عن تقليد القرآن والإتيان بمثله. أي أن العجز عن الإتيان بمثل القرآن لا يمكن تفسيره منطقياً إلا لأن صارفاً

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص١٢١.

إلهياً صرفهم عن الإتيان بمثله، أو صرفهم عن الاهتمام بالمعارضة أو سلبهم العلوم التي تمكنهم من معارضة القرآن.

ثالثًا: العلماء المشهورون بإعجاز الصرفة

يمكن لنا أن نقسم العلماء الذين يعتقدون بالصرفة إلى طائفتين: الأولى طائفة مشهورة بالصرفة وأخرى ليست كذلك.

ومن الطائفة الأولى ثمة أربعة أسماء اشتهرت بإعجاز الصرفة:

١-النظّام البصري المعتزلي

هو أبو إسحاق، إبراهيم بن سيار البصري (٢٣١هـ) من كبار علماء المعتزلة، كان متكلماً وشاعراً وأديباً [١]ويعدُّ أحد فرسان أهل النظر والكلام على مذهب المعتزلة، وله في ذلك مؤلفات كثيرة، وله شعر رقيق فيه المعاني على طريقة المتكلمين، وأبو عثمان الجاحظ كثير الحكاية والرواية عنه[٢].

وقد وصفه الجاحظ قائلاً: "الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له؛ فإن صح ذلك فأبو إسحاق من أولئك" [٣]. وهذا المديح وغيره، يكشف أن النظام يتوقد ذكاءً ويتدفق فصاحة. وقد اشتهر أنه أول من قال من العلماء بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم.

قال أبو الحسن الأشعري في المقالات:

"واختلفوا في نظم القرآن هل هو معجز أم لا؟ على ثلاثة أقاويل... وقال النظام: الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما

(٢) الفهرست، ابن النديم، ص٢١١.
(٣) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج٦، ص٦٢٣.
(٤) الإعلام، الزركلي، ج١، ص٤٣.

فيهم"[1]. وقال الشهرستاني: "قوله في إعجاز القرآن إنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبرا وتعجيزاً، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً"[2].

ونلاحظ أن خصومه من الأشاعرة يطعنون في خصاله ويذمونه، فقد جاء في ترجمته في كتاب الفَرقُ بين الفِرَق: أنه خالط بعد كبره ملاحدة الفلاسفة، وكان معجباً بقول البراهمة بإبطال النبوات، لكنه لم يظهر هذا القول، خوفاً من القتل.

وقد أنكر إعجاز القرآن في نظمه، وأنكر ما روي من معجزات للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من انشقاق القمر ونبوع الماء من بين أصابعه وغيرها، وأن المعتزلة متفقون على تكفيره[3].

ونقل القاضي عبد الجبار أنه في آخر لحظات حياته قيل كان يدعو بهذا الدعاء: "اللّهمّ إن كنت تعلم أنّي لم أقصّر في نصرة توحيدك ولم أعتقد مذهباً إلاّ سنده التوحيد، اللّهمّ إن كنت تعلم ذلك فاغفر لي ذنوبي، وسهِّل عليّ سكرات الموت. فمات من ساعته"[4].

٢-السيد المرتضى

هو أبو القاسم، علي بن الحسين بن موسى الموسوي (٤٣٦هـ)، يلقب بالشريف المرتضى، وعلم الهدى، يُعدُّ من كبار علماء الشيعة الإمامية. له مؤلفات كثيرة جداً.

ونقل عنه الذهبي: "وكان من الأذكياء الأولياء، المتبحرين في الكلام والاعتزال،

(٢) مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، ج١، ص١٧٩.
(٣) الملل والنحل، الشهرستاني، ج١، ص٥٦-٥٧.
(٤) الفرق بين الفرق، البغدادي، ص١١٣-١١٤.
(٥) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، القاضي عبد الجبار، ص٢٤٦.

والأدب والشعر، لكنه إمامي جلد"[١].

ويمكن القول: إن الصرفة قد تبلورت وفرضت نفسها كنظرية وشيدت أركانها على يد السيد المرتضى، وإن كان تاريخياً يُعدُّ انبثاقها معتزلياً، لكن لم تكن الصرفة في وقتها واضحة المعالم.

وقد تكلمنا -مختصراً- عن رأي السيد المرتضى فيما تقدم في بحث الإعجاز في القرن الخامس، وقلنا إن للمرتضى كتاباً في الصرفة عنوانه الموضح عن جهة إعجاز القرآن، وقد خصصه للتنظير للصرفة وإقامة الأدلة على صحتها ودفع الإشكالات الواردة عليها، وبطلان غيرها من الآراء. وفي هذا الكتاب قال: "إن الله تعالى صرف فصحاء العرب عن معارضة القرآن وحال بينهم وبين تعاطي مقابلته[٢].

وقال أيضاً في الموضح: "والتحدي وقع بالإتيان بمثله في فصاحته وطريقته في النظم، والصرفة على هذا إنما كانت بأن يسلب الله تعالى كلّ من رام المعارضة- وفكر في تكلفها في الحال- العلومَ التي يتأتى معها مثل فصاحة القرآن وطريقته في النظم.

وإذا لم يقصد المعارضة وجرى على شاكلته في نظم الشعر ووصف الخطب والتصرف في ضروب الكلام، خلي بينه وبين علومه، ولم يخل بينه وبين معرفته؛ ولهذا لا نصيب في شيء من كلام العرب ما يقارب القرآن في فصاحته مع اختصاصه في النظم بمثل طريقته"[٣].

كما أنه تكلم عن الصرفة أيضاً في كتبه الأخرى مثل كتاب الذخيرة في علم الكلام، وفيه قال: "اختلف الناس في جهة دلالة القرآن على النبوة، فقال قوم أن

---

(٢) سير إعلام النبلاء، الذهبي، ج١٧، ص٥٨٩. طبعة مؤسسة الرسالة.

(٣) الموضح عن جهة إعجاز القرآن، ص٩٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٥-٣٦.

وجه دلالة القرآن على النبوة صرف العرب عن معارضته وسلبهم العلم الذي يتمكنون من مماثلة نظمه وفصاحته، ولولا هذا الصرف لعارضوا، وإلى هذا الوجه أذهب، وله نصرت في كتابي المعروف بالموضح عن جهة إعجاز القرآن، وقد حكي عن أبي إسحاق النظام القول بالصرفة من غير تحقيق لكيفتها وكلام في نصرتها"[1].

وقد أصر المرتضى على الصرفة لقدرة هذه النظرية في اعتقاده أن تجيب عن كلّ الإشكالات التي ترد على الإعجاز، وسوف نذكر بعضاً منها لاحقاً.

٣- ابن حزم الأندلسي

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي. كان عالمًا مشهورًا في الأندلس، اشتهر بمعرفته الواسعة، ويعد من أكبر علماء الإسلام تصنيفاً، فقد كتب مؤلفات عديدة، في موضوعات متنوعة مثل الفقه والمنطق والتاريخ والأخلاق والفلسفة. وهو فقيه المذهب الظاهري، وهو مذهب يقوم على رفض القياس الفقهي، والاقتصار على الدليل شرعي الواضح من القرآن أو السنة النبوية، توفى سنة **٤٥٦هـ.** قال عنه الذهبي: "الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الفارسي الأصل، الفقيه الحافظ، المتكلم، الأديب، صاحب التصانيف"[2].

وقد بيّن رأيه في وجه الإعجاز القرآني في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل، قال: " وقد ظن قوم إن عجز العرب ومن تلاهم من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن في أعلى طبقات البلاغة. وهذا خطأ شديد ولو كان ذلك وقد أبى الله عز وجل أن يكون لما كان حينئذ معجزة؛ لأن هذه صفة كلّ باسق في طبقته، والشيء الذي هو كذلك وإن كان قد سبق في وقت ما فلا يؤمن أن

---

(٢) الذخيرة في علم الكلام، المرتضى، ص٣٧٩.

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج١٨، ص١٨٤.

يأتي في غد ما يقاربه، بل ما يفوقه، ولكن الإعجاز في ذلك إنما هو أن الله عز وجل حال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله، ورفع عنهم القوة في ذلك"[١]. ويتضح من كلامه أن يؤمن بالصرفة بمعنى رفع القدرة التي تمكنهم من الإتيان بمثل القرآن ومجاراته حتى في أقصر سوره.

٤- ابن سنان الخفاجي

هو عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان، أبو محمد الخفاجي الحلبي، شاعر وأديب، له ديوان شعر، وله كتاب "سر الفصاحة"، المتوفى سنة ٤٦٦هـ[٢]. ويعد كتاب سر الفصاحة من أهم الكتب الأدبية التي اهتم بها العلماء، وقد فرق ابن سنان في هذا الكتاب بين الفصاحة التي جعلها وصفاً للألفاظ والبلاغة التي تكون وصفاً للألفاظ مع معانيها، فكل كلام بليغ هو فصيح حتماً لكن ليس كلّ فصيح بليغاً، كما في الكلام الذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه[٣].

وسوف يأتي ذلك في مباحث لاحقة إن شاء الله عندما نتكلم عن الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

وابن سنان أيضاً يعتقد أن وجه إعجاز القرآن لا يتمثل في الفصاحة والبلاغة، بل بالصرفة. يقول في كتابه سر الفصاحة: "الصحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته وأن فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصرف وهذا هو المذهب الذي يعول عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم"[٤]. وقال في موضع آخر: "وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سُلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ج١، ص٨٧. طبعة القاهرة.
(٣) الأعلام، الزركلي، ج٤، ص١٢٢. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج١، ص٣٢٥.
(٤) مقدمة كتاب سر الفصاحة لعبد المتعال الصعيدي. طبعة سنة ١٩٥٢.
(٥) سر الفصاحة، ابن سنان، ص٢٢٥.

ذلك"[١]. وفي مورد ثالث: " ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهى القرآن في تأليفه"[٢].

هؤلاء العلماء الأربعة هم الأشهر في اعتناق مذهب الصرفة في إعجاز القرآن الكريم بنحو واضح وصريح.

رابعاً: العلماء غير المشهورين بإعجاز الصرفة

وهناك علماء رأيهم هو الصرفة لكن لم يكن ذلك بنحو صريح وجلي، أو كان رأياً ثانوياً أو كانوا يعتقدون بها ثم تركوا ذلك؛ ولهذا لم تكن لهم شهرة في الصرفة، وهم الطائفة الثانية، ومنهم:

١-الجاحظ (٢٥٥هـ)

قال في كتاب الحيوان: "ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحدّاهم الرّسول بنظمه. ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه. ولو طمع فيه لتكلّفه، ولو تكلّف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة؛ لعظمت القصّة على الأعراب وأشباه الأعراب، والنّساء وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثر القيل والقال"[٣].

ويظهر من كلامه أنه يرى الصرفة لا لأن العرب لهم القدرة على الإتيان بمثله، ومنعهم الله ورفع قدرتهم، بل الصرف حصل من الله حماية للقرآن بأن سلب همة ممن يقصدون إغرار الناس الذين لا علم لهم بمزايا نظم القرآن، وإلّا فإنّ

(٢) سر الفصاحة، ص١٠٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٩٩.
(١) كتاب الحيوان، الجاحظ، ج٤، ص٣٠٥.

القرآن معجزٌ في نظمه.

٢-القاضي عياض اليحصبي (٥٤٤هـ)

هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي، ذكره الذهبي قائلاً: " "الإمام، العلامة، الحافظ الأوحد، شيخ الإسلام. سارت بتصانيفه الركبان، واشتهر اسمه في الآفاق. وهو من أهل العلم والتفنن والذكاء والفهم"(١).

لم يصرح القاضي عياض بالصرفة لكنه نسبها إلى جماعة ولم ينكرها عليهم، فكأنه يميل إليها، قال في كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى: "وقد اختلف أئمة أهل السنة في وجه عجزهم عنه، فأكثرهم يقول: إنه مما جمع في قوة جزالته ونصاعة ألفاظه وحسن نظمه وإيجازه وبديع تأليفهم وأسلوبه لا يصح أن يكون في مقدور البشر، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن أقدار الخلق عليها كإحياء الموتى، وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ويقدرهم الله عليه، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون، فمنعهم الله هذا وعجّزهم عنه، وقال به جماعة من أصحابه، وعلى الطريقين فعجز العرب عنه ثابت، وإقامة الحجة عليهم -بما يصح أن يكون في مقدور البشر وتحديهم بأن يأتوا بمثله- قاطع، وهو أبلغ في التعجيز وأحرى بالتقريع، والاحتجاج -بمجيء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر- لازم، وهو أبهر آية وأقمع دلالة"(٢).

٣-الشيخ المفيد (٤١٣هـ)

هو محمد بن محمد بن النعمان الحارثي الملقب بالشيخ المفيد، من جلّ متكلّمي الإمامية، انتهت إليه رئاسة الإمامية في وقته، وكان مقدَّماً في العلم والكلام، وكان

---

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٢٠، ص٢١٣-٢١٤.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ج١، ص٢٦٦-٢٦٧. وانظر: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار، السفاريني، ج١، ص١٧٥، قال: "قلت: وفي شفاء أبي الفضل القاضي عياض بعض ميل للقول بالصرفة".

فقهياً، متقدّماً فيه، حسن الخاطر، دقيق الفطنة، حاضر الجواب[1].

قال في كتابه أوائل المقالات: "القول في جهة إعجاز القرآن، وأقول: إن جهة ذلك هو الصرف من الله تعالى لأهل الفصاحة واللسان عن المعارضة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بمثله في النظام عند تحديه لهم، وجعل انصرافهم عن الإتيان بمثله وإن كان في مقدورهم دليلاً على نبوته صلى الله عليه وآله وسلم، واللطف من الله، تعالى مستمر في الصرف عنه إلى آخر الزمان، وهذا من أوضح برهان في الإعجاز"[2].

وهذا الكلام صريح من المفيد في اعتقاده بالصرفة لكن بعض علماء الشيعة مثل المجلسي ادعى أن المفيد يعتقد بالإعجاز البلاغي المتمثل بالفصاحة والبلاغة.

قال: "وأما وجه إعجازه فالجمهور من العامة والخاصة، ومنهم الشيخ المفيد قدس الله روحه، على أن إعجاز القرآن بكونه في الطبقة العليا من الفصاحة، والدرجة القصوى من البلاغة"[3]. فربما كان هناك كتاب للمفيد ذكر رأياً غير الصرفة فيه، وكان هذا الكتاب متأخر عن كتاب أوائل المقالات.

٤- الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)

هو أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني أو الأصبهاني، هو أديب ومن العلماء المتكلمين، على مذهب أهل السنة- كما هو الصحيح- كان في وقته يُقرن بالغزالي، له مجموعة من المصنفات، منها المفردات في غريب القرآن، ومنها الذريعة إلى مكارم الشريعة، وله تفسير للقرآن[4].

---

(٢) الفهرست، الطوسي، ص٢٣٨.
(٣) أوائل المقالات، المفيد، ص ٦٣.
(٤) بحار الأنوار، المجلسي، ج ١٧، ص ٢٢٤.
(٥) الأعلام، الزركلي، ج٢، ص٢٥٥.

ووصفه الذهبي بأنه: "العلامة الماهر، المحقق الباهر، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني، الملقب بالراغب، صاحب التصانيف، كان من أذكياء المتكلمين"[١].

قال في تفسيره: "فلما رُئي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كلّ واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن، وعجزهم عن الإتيان بمثله، وليس تهتز غرائزهم ألبتة للتصدي لمعارضته، لم يخف على ذي لب أن صارفاً إلهياً يصرفهم عن ذلك، وأي إعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيرة في الظاهر أن يعارضوه، ومجبرة في الباطن عن ذلك"[٢].

٥- الغزالي أبو حامد (٥٠٥ هـ)

ترجمه الذهبي قائلاً: "الشيخ، الإمام، البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط"[٣].

قال في كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد" بعد أن ذكر أن الجزالة والفصاحة مع النظم العجيب معجزٌ خارج عن قدرة البشر، استدرك وقال: وربما يقال: إن العرب لها القدرة على الإتيان بمثله، وانصرفوا عنه؛ بسبب انشغالهم بالحروب، فأجاب: "فإن انصرافهم عن المعارضة لم يكن إلا بصرْفٍ من الله تعالى، والصرف عن المقدور المعتاد من أعظم المعجزات"[٤].

---

(٢) سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص١٢٠-١٢١.
(٣) تفسير الراغب الأصفهاني، ج١، ص٤٦.
(٤) سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٣٢٢-٣٢٣.
(٥) الاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي، ص١١٣.

٦- الماوردي (٤٥٠هـ)

ترجمه الذهبي قائلاً: "الإمام العلامة، أقضى القضاة، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الماوردي، الشافعي، صاحب التصانيف، منها كتاب الحاوي، والأحكام السلطانية وأعلام النبوة"[١].

قال في كتابه الأخير عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم وبلغت عشرين وجهاً، وجعل الوجه الأخير هو الصرفة، وذكر معنيين لها، قال: "من إعجازه: الصرفة عن معارضته، واختلف من قال بها، هل صرفوا عن القدرة على معارضته أو صرفوا عن معارضته مع دخوله في مقدورهم على قولين، والصرفة إعجاز على القولين معاً، في قول من نفاها وأثبتها، لخرقها للعادة فيما دخل في القدرة"[٢].

٧- الجويني (٤٧٨ هـ)

ترجمه الذهبي قائلاً: "الإمام الكبير، شيخ الشافعية، إمام الحرمين، أبو المعالي عبد الملك ابن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف الجويني، صاحب التصانيف"[٣].

قال في كتابه شرح العقيدة النظامية: "القرآن بلغة العرب، وليس بعيداً عن مبلغ اقتدارهم في جزالته وأسلوبه، فلم يقدروا على الإتيان بمثله... وتبين قطعاً أن الخلق ممنوعون عن مثل ما هو من مقدورهم؛ وذلك أبلغ عندنا من خرق العوائد بالأفعال البديعة في أنفسها، ومن هدي لهذا المسلك فقد رشد إلى الحق المنير"[٤].

٨- الفخر الرازي (٦٠٦هـ)

الفخر الرازي المتكلم صاحب التفسير والتصانيف: محمد بن عمر بن الحسين بن

(٢) سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص٦٤-٦٥.
(٣) أعلام النبوة، ص٨٩-٩٠.
(٤) سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص٤٦٨.
(٥) العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، الجويني، ص٧٢-٧٣.

الحسن بالفخر الرازي، ويقال له: ابن خطيب الري، الفقيه الشافعي، أحد المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار نحو من مئتي مصنف، وكان إمام الدنيا في عصره"[١].

قال في تفسيره المعروف بتفسير الفخر الرازي أو التفسير الكبير:

"واعلم أن كونه معجزاً يمكن بيانه من طريقين... الطريق الثاني: أن نقول القرآن لا يخلو إما أن يقال: إنه كان بالغاً في الفصاحة إلى حدّ الإعجاز، أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول: ثبت أنه معجز، وإن كان الثاني: كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة، فعدم إتيانهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة، ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها، أمرٌ خارق للعادة، فكان ذلك معجزاً، فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب"[٢].

فالصرفة عند الفخر الرازي تشكل مكملاً للإعجاز البياني، فالقرآن في نظره معجز في فصاحته وبلاغته ونظمه في السور التي من الواضح أنه يتعسر على مثل العرب أن يأتوا بمثلها، لكن ثمة سور في القرآن مثل سورة يا أيها الكافرون أو سورة العصر لا يمكن القول فيها إن العرب -بما يمتلكون من مواهب في الفصاحة والبلاغة - يمتنع عليهم الإتيان بمثلها، ومع قدرتهم عليها لم يستطيعوا الإتيان بمثلها، وهذا تفسيره أن الله تعالى صرفهم قهراً عن تقليدها.

يقول: "فإن قيل: قوله ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ يتناول سورة الكوثر، وسورة العصر وسورة الكافرون، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله، أو بما يقرب منه ممكن.

فإن قلتم: إن الإتيان بأمثال هذه السور خارج عن مقدور البشر، كان ذلك مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين، قلنا: فلهذا السبب

---

(٢) البداية والنهاية، ابن الأثير، ج١٥، ص٣٤-٣٦.

(٣) تفسير الفخر الرازي، ج٢، ص٣٤٧-٣٤٨.

اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة إلى حد الإعجاز، فقد حصل المقصود، وإن لم يكن الأمر كذلك، كان امتناعهم عن المعارضة - مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره -معجزاً، فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز"[١].

نكتفي بهذا المقدار من ذكر العلماء الذين اعتقدوا بإعجاز الصرفة، وهناك علماء آخرون تركنا ذكرهم مراعاة للاختصار، والهدف من ذكر هذه المجموعة الكبيرة من العلماء هو تبيين أن مذهب الصرفة ليس مذهباً ورأياً عابراً، بل اعتقاد هذا العدد من العلماء يكشف عن أسس قوية عندهم استندوا لها في هذا الرأي.

خامساً: الآراء في معنى إعجاز الصرفة

هناك ثلاثة آراء مهمة في تفسير إعجاز الصرفة:

١- صرف الهمم والدواعي

أول التفاسير هو أن الله تعالى صرف عن العرب الهمم والدواعي، وذلك بأن الله تعالى قد صرف اهتمام العرب عن المعارضة للقرآن؛ فلم يحصل داع للمعارضة وباعث لها في القلب. وهو قول النظام وأتباعه.

قال الرماني: "أمّا الصَّرْفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أَهل العلم في أنّ القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة، كخروج سائر المعجزات الّتي دلّت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز الّتي يظهر منها للعقول..."[٢].

وقال الإيجي: "واختلف في كيفية الصرف، فقال الأستاذ أبو إسحاق النظّام: صرفهم الله عنها مع قدرتهم عليها، وذلك بأن صرف دواعيهم إليها مع كونهم مجبولين عليها، خصوصاً عند توفّر الأسباب الداعية في حقّهم كالتقريع بالعجز

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٣٤٩.
(٣) النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن الرماني، ص١١٠.

والاستنزال عن الرئاسات والتكليف بالانقياد، فهذا الصرف خارق للعادة، فيكون معجزاً"[١].

٢- صرف علوم الفصاحة والنظم

وثاني التفاسير أن الله تعالى أزال العلوم من نفوسهم، وذلك بأن الله تعالى سلب العرب العلوم التي تمكنهم من الإتيان بمثل القرآن، فالهمم والدواعي للإتيان بمثله متوفرة، لكن كلما هموا بتقليد القرآن لم يستطيعوا لفقدانهم علوم ذلك، وهو رأي الشريف المرتضى وتبعه ابن سنان الخفاجي. قال الشريف المرتضى: "والصرفة على هذا إنما كانت بأن يسلب الله تعالى كلّ من رام المعارضة- وفكر في تكلفها في الحال- العلومَ التي يتأتى معها مثل فصاحة القرآن وطريقته في النظم"[٢].

وقال ابن سنان الخفاجي: "إذا عدنا إلى التحقيق وجدنا إعجاز القرآن: صرف العرب عن معارضته، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة، وقت مرامهم ذلك..."[٣].

وليس واضحاً من هذا الكلام كيفية سلب العلوم، فإن فيه أكثر من احتمال، يقول صاحب كتاب الطراز: "ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين، أحدهما، أن يقال: إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم ومحاها عنهم، وثانيهما، أن يقال: إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم، خلا أن الله تعالى صرف دواعيهم من تجديدها، مخافة أن تحصل المعارضة"[٤].

---

(٢) كتاب المواقف، الإيجي، بشرح القاضي الجرجاني، ج ٨ ص ٢٤٦.
(٣) الموضح عن جهة إعجاز القرآن، ص٩٣.
(٤) سرّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٠٠.
(١) الطراز لأسرار البلاغة، المؤيد العلوي، ج٣، ص٢١٨.

وفي الاحتمال الأول لسلب العلم؛ أن علوم الفصاحة والبلاغة التي تُمكّنهم من الإتيان بمثل القرآن كانت عند العرب مستمرة ومتجددة، لكن الله تعالى أزالها ومحاها عنهم. وعلى هذا التفسير ينبغي القول إن العرب قبل البعثة النبوية في بلاغتها وفصاحتها تختلف عما بعد البعثة، فإن تلك الفصاحة خمد توهجها، وضعفت عما كانت عليه.

وفي الاحتمال الثاني لصاحب كتاب الطراز يفيد أن العرب ما كانت عندها العلوم التي تمكنهم من الإتيان بمثل القرآن، لكن هذه العلوم يمكن أن تتجدد عندهم، وأن الله تعالى منع من تجددها حتى لا يتمكنوا من الإتيان بمثل القرآن.

ويرى القاضي عبد الجبار أن معنى سلب العلوم أي "أعدمهم الله العلوم التي معها يمكن الكلام الفصيح، فصار ذلك ممتنعاً عليهم لفقد العلم"[١].

ويمكن إضافة احتمال ثالث: هو ظاهر كلام ابن سنان المتقدم بقوله: "**وقت مرامهم ذلك**": أن الصرف وسلب العلوم يكون عندما يعزمون على المعارضة، أي حين يقررون ذلك من حيث الزمان، ثم تعود العلوم لما كانت عليه لاحقاً.

بل هذا الاحتمال الثالث هو الظاهر من كلام السيد المرتضى في بيانه مذهبه في كتابه الموضح؛ إذ قال فيه: "والصرفة على هذا إنما كانت بأن يسلب الله تعالى كلّ من رام المعارضة وفكر في تكلفها في الحال العلوم التي يتأتى معا مثل فصاحة القرآن وطريقته في النظم، وإذا لم يقصد المعارضة وجرى على شاكلته في نظم الشعر ووصف الخطب والتصرف في ضروب الكلام خُلّي بينه وبين علومه"[٢].

وعلى هذا التوضيح الثالث لسلب العلوم لن تكون بعض الإشكالات الآتية على الصرفة صحيحة.

---

(٢) المغني في أبواب التوحيد، القاضي عبد الجبار، ص٢١٨.
(١) الموضح عن جهة إعجاز القرآن، ص٣٦.

٣- صرف القدرة التكوينية

التفسير الثالث هو صرف القوة والقدرة البدنية والعقلية، وهو ظاهر كلام ابن حزم الأندلسي السابق.

قال سعد الدين التفتازاني(٧٩٢هـ): "الصرفة إمّا بسلب قدرتهم، أو بسلب دواعيهم، أو بسلب العلوم التي لابدّ منها في الإتيان بمثل القرآن، بمعنى أنّها لم تكن حاصلةً لهم، أو بمعنى أنّها كانت حاصلةً فأزالها الله"[١].

ووجه اختلاف هذا التفسير الثالث للصرفة عما قبله، أن في هذا التفسير يمتلك العرب الهمة وعندهم العلوم التي يستطيعون بها مجاراة القرآن وتقليده، لكن عند الشروع في الإتيان بمثله يفقدون القدرة العقلية والبدنية على ذلك، كما لو أن شخصاً يمتلك القدرة على عبور النهر، لكن كلما حاول ذلك وجد نفسه مشلولاً؛ فعجز عن العبور. وهذا التفسير لا يختلف عن الثاني في أن المسلوب هو القدرة، لكن تارة تسلب القدرة من خلال سلب العلوم، وتارة أخرى تسلب القدرة مباشرة كما في هذا التفسير الثالث.

سادساً: الاعتراضات والإشكالات على الصرفة

لم تكن نظرية إعجاز الصرفة مقبولة عند أغلب العلماء، وواجهت مجموعة من الاعتراضات والإشكالات والمناقشات، وهذا الإشكالات قد تختلف وتتنوع باختلاف معنى الصرفة الذي مرّ في أشكاله الثلاثة.

الاعتراض الأول

أن القول بالصرفة يستلزم ألّا يكون المعجز هو القرآن ذاته، بل المعجز هو المنع من الإتيان بمثله فالمعجز هو من فعل منهم مثل القرآن، وإن لم يكن هذا القرآن

---

(١) شرح المقاصد في علم الكلام، التفتازاني، ج ٢، ص ١٨٤. وانظر: كتاب الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المؤيد بالله يحيى العلوي، ج٣، ص٢١٨.

خارقاً للعادة.

كما لو افترضنا أن الله تعالى قد جعل معجزة نبيه الكريم مع قومه هي تمكنه من المشي أو الكلام أو تحريك يده، وفي الوقت ذاته منع القوم جميعهم من ذلك، فالمعجز ليس هو المشي ولا تحريك اليد ولا الكلام بل المعجز هو منعهم من ذلك؛ لأنه هو الخارج عن العادة. وهذا يعني أن القرآن ليس فيه أي مزية، مع أن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1]. فلو كان المعجز هو المنع لم يصح من الله تعالى أن يطلب من الإنس والجن أن يكون بعضهم لبعض ظهيراً؛ لأن المعاونة والمظاهرة إنما تمكن مع القدرة لا مع العجز والمنع[2].

وبعبارة أخرى: الآية لها دلالة على عجزهم مع بقاء همتهم وقدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يكن فائدة لاجتماعهم؛ فاجتماعهم مع عدم القدرة بمنزلة عجز اجتماع الموتى، ولا فخر بذلك[3].

الاعتراض الثاني

لو كان الإعجاز هو الصرفة لا القرآن ذاته، لزم وجودُ كلامٍ للعرب قبل البعثة يعدل ويناظر كلام الله تعالى في قرآنه الكريم، فإن الصرفة بناء على صحتها حصلت في وقت البعثة، لكننا لم نعثر على هكذا، كلام سواء في شعرهم أم نثرهم أم خطبهم في الجاهلية.

---

(٢) الإسراء: ٨٨.

(٣) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار، ج١٦، ص٣٣٢. وانظر: إعجاز القرآن للباقلاني، ص٣٠-٣١.

(٤) انظر: الإتقان، السيوطي، ج٤، ص٧، وانظر: بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص٢٣. قال بعد ذكر آية التحدي في قوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله...) "فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد. والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها".

يقول الباقلاني في هذا السياق: "ولو كانوا صرفوا على ما ادَّعاه، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عمَّا كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب التأليف؛ لأنَّهم لم يتحدوا به، ولم تلزمهم حجته، فإذا لم يوجد في كلام قبله مثله علم أن ما ادَّعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان"[1].

الاعتراض الثالث

القول بالصرفة يتنافى مع صفات القرآن التي وصفها الله في قرآنه الكريم، فهناك جملة من المواصفات يمتنع معها القول بالصرفة.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا**﴾[2] ، يعني أن هذا القرآن من شأنه أن يسيِّر الجبال ويقطع به الأرض ويكلم به الموتى. وقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...**﴾[3] فلو صحت الصرفة فهذا يعني سلب هذه الصفات الذاتية عن القرآن[4].

الاعتراض الرابع

لو أن الإعجاز كان بالصرفة لزم أن ينقل لنا التاريخ أن العرب كانوا يتعجبون من أنفسهم؛ بسبب العجز الذي طرأ عليهم، ولكانوا اتهموا النبي بالسحر في منعهم من الإتيان بمثل القرآن، بينما لم ينقل لنا التاريخ ذلك عنهم. بل التاريخ ينقل لنا تعجبهم من ذات القرآن وانبهارهم به، وفي هذا التعجب والاستعظام من بلاغة القرآن وفصاحته ونظمه نقل تاريخي كثير من أمثال الوليد بن المغيرة وغيره.

يقول الجرجاني: "ومما يلزمهم على أصل المقالة أنه كان ينبغي لهم لو أن العرب

---

(٢) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص٣٠.

(٣) الرعد: ٣١.

(٤) الزمر: ٢٣.

(١) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص٦١.

كانت منعت منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها أن يعرفوا ذلك من أنفسهم، ولو عرفوا لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك، ولكانوا قد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به، ولكنك قد سحرتنا، واحتلت في شيء حال بيننا وبينه"، فقد نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور، كما لا يخفى، وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم، ويشكوه البعض إلى البعض، ويقولوا: "ما لنا قد نقصنا في قرائحنا، وقد حدث كلول في أذهاننا" مع أنه لم يرو ولم يذكر أنه كان منهم قول في هذا المعنى، لا ما قل ولا ما كثر، وهو دليل أن قول الصرفة فاسد، ورأى ليس من آراء ذوى التحصيل"(١).

الاعتراض الخامس

إن القول بالصرفة يتنافى مع إجماع العلماء، فإن إجماعهم - قبل ظهور القول بالصرفة- كان قائماً على أن إعجاز القرآن ذاتي، ولا يمكن الإتيان بمثله، لتوفره على مميزات تجعله فوق قدرة البشر، والقول بالصرفة يعني سلب الإعجاز الذاتي المتفق عليه، بينما تكون الصرفة هي المعجز والخارق للعادة، وهذا يعني أن القرآن لا فضيلة له على غيره، وهو خلاف إجماع المسلمين.

يقول القرطبي: "قال النظّام وبعض القدرية: إن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته، والصرفة عند التحدي بمثله؛ وهذا فاسد؛ لأن إجماع الأمة - قبل حدوث المخالف - أن القرآن هو المعجز، فلوا قلنا إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن كونه معجزاً، وذلك خلاف الإجماع، وإذ كان كذلك عُلم أن نفس القرآن هو المعجز؛ لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة"(٢).

وهناك مخالفة أخرى للإجماع، فإن الهدف من الصرفة هو المنع من الإتيان

---

(٢) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٦١٤. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، الزملكاني، ص٥٣.

(١) تفسير القرطبي، ج١، ص٧٥.

بمثل القرآن ليكون ذلك يكون شاهداً على صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا المنع يحصل عند التحدي بالإتيان بمثله، وذلك يستلزم خلو القرآن من الإعجاز بعد زمن التحدي، وهو خلاف ما اتفق عندهم أنه معجزة خالدة قبل التحدي وبعده.

قال السيوطي: " فيلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي وخلو القرآن من الإعجاز وفي ذلك خرق لإجماع الأمة أن معجزة الرسول العظمى باقية ولا معجزة له باقية سوى القرآن"(١).

الاعتراض السادس

القول بأن الله تعالى قد صرف العرب عن الاهتمام بالإتيان بالمثل من خلال سلب الدواعي لذلك، هذا الافتراض يكذبه الواقع التاريخي، كيف يقال ذلك وهم الذين لم يدخروا وسعاً في سبيل القضاء على القرآن والتخلص ممن أنزل عليه(٢).

بل كيف يقال ذلك وهم الذين أوفدوا أفصحهم وأشعرهم عتبة بن ربيعة ليفاوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ترك سب آلهتهم مقابل ما يشاء من المال وكل ما يرغب؟

فهذا يدل على أن القرآن كان هدفاً لهم لإبطاله، لأنه يسفه أحلامهم ويسب آلهتهم. وغير ذلك من الشواهد كما في قضية محاولة اغتيال النبي وتفريق دمه على القبائل. فكان يكفيهم مؤونة ذلك كله الإتيان بمثل القرآن ولو بسورة قصيرة. فترك الإتيان بالمثل واللجوء إلى وسائل أخرى مثل القتل وغيره دليل على عجزهم. هذا الاعتراض بناء على تفسير الصرفة بزوال الهمم كما عند النظام وأتباعه(٣).

---

(٢) الإتقان، السيوطي، ج٤، ص٨.
(٣) مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، ص٦٥.
(١) انظر: الطراز لأسرار البلاغة، ج٣، ص٢١٩.

الاعتراض السابع

بناء على رأي الشريف المرتضى في الصرفة الذي يرى أن الله سلب العلوم التي تمكنهم من الإتيان بمثله وليس سلب الاهتمام من الأصل. هنا يقال في ردّ ذلك: لم نرصد تاريخياً أن العرب قد انحطت علومهم بعد التحدي عن علومهم قبل التحدي، فلو قارنا بين أساليبهم في الكلام قبل البعثة وبعدها لم نجد تفاوتاً في ذلك. فلو كانت العلوم سلبت منهم بعد التحدي لماذا لم يرجعوا إلى أسلوب كلامهم قبل التحدي في إتيان المثل؟[١].

يقول صاحب الطراز: "والمعلوم من حال العرب أن عقولهم ما زالت بعد التحدي بالقرآن وأن حالهم في الفصاحة والبلاغة بعد نزوله كما كان من قبل"[٢].

وهذا الإشكال يمكن دفعه ولا يكون صحيحاً لو فسرنا الصرفة بمعنى صرف العلوم وقت الهمة بالمعارضة، ثم تعود لهم هذه العلوم كما تقدم ذلك في تفسيرات الصرفة الثلاثة.

الاعتراض الثامن

لو كان الإعجاز بالصرفة لكان الأقوى في الحجة، والأبين في الدلالة، أن يجيء القرآن في أدنى درجات البلاغة لا في أعلى مراتبها؛ لأن الأدنى أبلغ في الأعجوبة، فإن الذي يعجز عن كلام هو في مستوى كلام الناس أو أدنى منه، يكون ذلك دليلاً على أن هناك قوة غالبة، حالت بينه وبين المعارضة، ولم يكن هناك حاجة لمجيء القرآن الكريم في نظم بديع، ومستوى رفيع عجيب؛ لأن الأقرب إلى قوة الدليل، ووضوح الحجة حين تكون الصرفة هي الوجه للإعجاز- أن يكون القرآن في مستوى كلامهم، أو دونه.

---

(٢) مباحث في إعجاز القرآن، ص٦٧.

(١) الطراز لأسرار البلاغة، المؤيد العلوي، ج٣، ص٢٢٠.

يقول الجرجاني في هذا السياق: "إن من حق المنع إذا جعل آية وبرهانًا، ولا سيما للنبوة، أن يكون في أظهر الأمور وأكثرها وجودًا، وأسهلها على الناس، وأخلقها بأن تبين لكل راء وسامع أنه قد كان منع، لا أن يكون المنع من خفي لا يعرف إلا بالنظر، وإلا بعد الفكر، ومن شيء لم يوجد قط ولم يعهد"(١).

الاعتراض التاسع

لو كانت الصرفة هي الإعجاز فإن ذلك يستلزم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إما أنه قادر على الإتيان بمثل القرآن أو أن فصاحته نزلت مرتبتها بسبب النبوة، وكلاهما ممتنع، وتوضيح ذلك:

إن الذي يذهب للصرفة بمعنى أن العرب سلبت منهم فنون الكلام؛ ولهذا لم يتمكنوا من الإتيان بمثل القرآن، هنا يتوجه له سؤال: هل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مشمول بهذا السلب أم أنه مستثنى من ذلك؟ فإن أجاب: أن النبي مستثنى من سلب تلك العلوم، فهذا يعني أنه قادر على الإتيان بمثل القرآن، مع أن ذلك غير صحيح قطعاً. ولو أجاب إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يستثن من ذلك السلب، عندئذ يقال إن النبوة صارت سبباً لنقصان مرتبة النبي في الفصاحة والبلاغة، وهذا أيضاً ليس بصحيح.

وفي هذا السياق يقول الجرجاني: "واعلم أنه يلزمهم أن يقضوا في النبي صلى الله عليه وسلم بما قضوا في العرب، من دخول النقص على فصاحتهم، وتراجع الحال بهم في البيان، وأن تكون النبوة قد أوجبت أن يُمنعَ شطرًا من بيانه، وكثيراً مما عُرف له قبلها من شرف اللفظ وحسن النظم.

ذاك لأنهم إذا لم يقولوا ذلك، حصل منه أن يكون عليه السلام قد تلا عليهم: **﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القرآن لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ**

(٢) دلائل الإعجاز، ص٦٢١-٦٢٢.

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (١)في حالٍ هو يستطيع فيها أن يجيء بمثل القرآن ويقدر عليه، ويتكلم ببعض ما يوازيه في شرف اللفظ وعلو النظم.

اللهم إلا أن يقتحموا جهالة أخرى، فيزعموا أنه عليه السلام قد كان من الأصل دونهم في الفصاحة" (٢). وبهذا نختم البحث في إعجاز الصرفة.

---

(٢) الإسراء: ٨٨.

(١) دلائل إعجاز القرآن، ص٦١٣-٦١٤.

الإعجاز البياني في القرآن الكريم

- مفهوم الإعجاز البياني
- الإعجاز في بلاغة القرآن وفصاحته
- الإعجاز في نظم القرآن وأسلوبه
  - الدقّة في اختيار الألفاظ
  - التناغم الصوتي في القرآن الكريم
  - تركيب الجملة في القرآن الكريم
- أساليب التعبير القرآني
  - التقدم والتأخير
  - أسلوب التوكيد في القرآن الكريم
  - الحذف والذكر
  - التعريف والتنكير
  - التشابه والاختلاف

بعد أن أنهينا البحث في إعجاز الصرفة ننتقل الآن لدراسة الإعجاز البياني، وهو المتمثل في بلاغة القرآن وفصاحة ألفاظ وروعة نظمه، ويعبر عنه بالإعجاز اللغوي أو الإعجاز البلاغي أيضاً، وهذا النحو من الإعجاز هو المتفق عليه بين أغلب العلماء.

أولاً: مفهوم الإعجاز البياني وتطوره وعناصره

الإعجاز البياني مركب من مفردتين، وقد مرّ بحث معنى كلمة الإعجاز وهو الضعف وعدم القدرة، أما البيان، فهو بحاجة إلى بحث خاص للوقوف على معناه.

١-مفهوم البيان وتطوره

البيان مصدر من الثلاثي (بين) والباء والياء والنون أصل واحد، وهو: "بعد الشيء وانكشافه وبان الشيء، فالبينُ: الفراقُ، يقال: بانَ يبينُ بيناً وبينونةً، وأبان

إذا اتضح وانكشف"[١]. والبيان: الفصاحة، كلام بيّن: فصيح[٢] وفلان أبين من فلان، أي أفصح منه وأوضح كلاماً"[٣]. وفي الاستعمال القرآني لم يبتعد عن هذا المعنى، فقد ورد في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ و في قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ والمراد بهذا كله الإظهار[٤].

وورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله: "إن من البيان لسحراً"[٥] وفُسّر البيان في كلامه بأنه: إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب"[٦].

فالبيان لغةً هو الاتضاح والإظهار والانكشاف والفصاحة وعلّو الكلام. وهذا المعنى اللغوي شامل وواسع.

ثم تضيق هذا المعنى عند العلماء في اصطلاحهم الذي يكون عادة متفرعاً على المعنى اللغوي الأصلي، فأصبح له أكثر من تعريف، منها أنه: "المنطق الفصيح المُعْرِب عمّا في الضمير"[٧]. ومنها: "إظهار المعنى وإيضاحه للمخاطب مفصلاً مما يلتبس به ويشتبه من أجله"[٨]. ومنها: "إظهار المتكلمِ المرادَ للسامع، أو: "إظهار المعنى وإيضاح ما كان مستوراً قبله"[٩].

وظلت هذه الكلمة يراد بها المعنى العام الواسع حتى عند كثير من العلماء مثل الجاحظ (٢٥٦هـ) الذي قال عنه: " "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك

---

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ج١، ص٣٢٧.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري، ج١٥، ص٣٥٨.
(٤) الصحاح، الجوهري، ج٥، ص٢٠٨٢.
(٥) كشف الأسرار، عبد العزيز البخاري، ج٣، ص١٠٤.
(٦) صحيح البخاري، ج٥، ص ٢١٧٦.
(٧) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، ج١، ص١٧٤.
(٨) الكشاف، الزمخشري، ج٤، ص٤٤٣. طبعة دار الكتاب العربي.
(٩) العدة في أصول الفقه، أبو يعلى، ج١، ص١٠٠.
(١٠) الجرجاني، التعريفات، ص٤٧.

قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله، كائناً ما كان ذلك البيان، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان"(١).

وأبو الحسن الرماني(٣٨٤هـ) الذي قال إن البيان هو "الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة، وإنما قيل ذلك لأنه قد يأتي التعقيد في الكلام الذي يدل، ولا يستحق اسم البيان"(٢).

وعبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) جعل الفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان تدل على معنى واحد متقارب، وهو "مما يُعبَّر به عن فضلِ بعضِ القائلين على بعضٍ، من حيثُ نَطقوا وتكلَّموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أَنْ يُعْلِمُوهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم"(٣).

وابن الأثير ((٦٣٧هـ) الذي يرى أن البيان هو الفصاحة والبلاغة، قال: "فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية. وهو والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة، وهي دلالة خاصة، والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن"(٤).

ويمكن القول إن لفظ "البيان" في هذه المرحلة في مجال الأدب وفن القول والكلام ونتيجة ترادفه مع البلاغة، قد تضيق قليلاً عن المفهوم اللغوي الشامل الواسع للكلمة فأصبح معناه ذات مدلول بلاغي وهو: الإعراب عما في النفس من

---

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، ج١، ص١١.
(٣) العمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق القيرواني، ج١، ص٢٥٤.
(٤) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ج١، ص٤٣.
(٥)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ج١، ص٣٧.

خواطر وأفكار بالقول أو الكتابة بتعبير يتسم بتمام الدلالة وجمال الصورة[١].

وظل هذا المفهوم للبيان بمعناه الأدبي حتى قام السكاكي (٦٢٦هـ) بتضييق معنى البيان وحجره في أحد أقسام البلاغة، فقال في تعريفه: بأنه "**إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه، كالاستعارة والكناية والتشبيه وغيرها**"[٢].

فلو كان في ذهنك معنى واحداً مثل الكرم، يمكن لك أن تؤدي معناه للسامع بطرق مختلفة، فتارة تؤديه بطريق صريح، فتقول: زيد كريم، وأخرى بطريق الكناية، فتقول: زيد كثير الرماد، وثالثة بطريق التشبيه، فتقول: زيد كالبحر، ورابعة بطريق الاستعارة، فتقول: رأيت البحر عندنا وهكذا.

فالسكاكي خصص البيان وجعله قسماً مستقلاً من علوم البلاغة، وأصبحت علم البلاغة تمثل علم المعاني وعلم البيان، وألحق بهما قسماً آخر وهو البديع. وبهذا أصبحت كلمة البيان عنواناً لعلم له أصول وقواعد بواسطتها يتم إبراز المعنى بصور مختلفة، بعضها أوضح من بعض مع مطابقة كلّ منه لمقتضى الحال.

وفي المحصلة نفهم أن مصطلح "**البيان**" له معنيان:

الأول: معنى أدبي يشمل الإيضاح وكل ما يختلج في النفس من المعاني والأفكار والأحاسيس والمشاعر بأساليب تمتاز بالدقة والإصابة والوضوح والجمال، وهذا المعنى العام يجمع فنون البلاغة الثلاثة، وهو المراد عن إطلاق لفظ البيان.

الثاني: معنى علمي ضيق وهو: إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، وهو مختص بأحد علوم البلاغة[٣].

وبعد هذا الكلام عن البيان وتطوره نقول إن البيان في اصطلاح الإعجاز البياني

---

(٢) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية، د. شفيع السيد، ص٣٢.
(٣) الطراز لأسرار البلاغة، العلوي، ج١، ص١٠. وانظر: مفتاح العلوم، السكاكي، ص١٦٢.
(١) انظر: البيان في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص٧-١٢.

يقصد به المعنى الثاني.

فالإعجاز البياني للقرآن الكريم هو اصطلاح يشير إلى: "تفرّد النص القرآني وتفوقه من حيث الأسلوب اللغوي، والتعبير المتمثل بالبلاغة والفصاحة، بحيث يعجز البشر عن محاكاته أو مجاراته ويكون أمراً مستحيلاً بالنسبة للبشر.

٢- عناصر الإعجاز البياني

ومن التعريف أعلاه يتضح أن الإعجاز البياني هو عبارة أخرى عن الإعجاز اللغوي أو البلاغي، فإن التفرّد والتفوّق حاصل بالأسلوب التعبيري والبلاغة والفصاحة، وبكلمة أخرى فإن الإعجاز البياني مستبطن لمعنى البيان الذي أشرنا لتعريفه سابقاً، وهو يختزل إيضاح المعنى بأجمل عبارة وأتم الدلالة، وحينما نرصد النص القرآني نشعر بوضوح بجمال الأسلوب والبلاغة والفصاحة، وهذا الجمال والروعة تمثل في مجموعة من العناصر:

١. **التناسق والتناغم:** فهو يتضمن التوافق بين الألفاظ والمعاني، والتوازن بين الجمل والألفاظ، بحيث تكون النصوص القرآنية متناسقة ومتوازنة بشكل رائع.

٢. **التصوير الفني:** فهو يتضمن استخدام الصور البلاغية مثل الاستعارة، والتشبيه، والكناية، والمجاز، التي تساهم في إيصال المعاني بشكل أكثر تأثيراً وجاذبية.

٣. **الإيجاز والإطناب:** فإن القرآن يستخدم الإيجاز في بعض المواضع ليكون النص قصيراً ومكثفاً دون إخلال بالمعنى، كما يستخدم الإطناب في مواضع أخرى لتفصيل المعاني وإيضاحها بشكل كامل.

٤. **التكرار:** يستخدم القرآن التكرار بشكل فني لتأكيد المعاني ولتعزيز الرسائل الأساسية التي يرغب في إيصالها.

٥. **التراكيب اللغوية:** يتميز القرآن بتراكيبه اللغوية المبتكرة والفريدة التي لم يكن العرب قادرين على الإتيان بمثلها، رغم بلاغتهم وفصاحتهم العالية.

٦- **الجمال الصوتي:** فإن القرآن يتميز بالإيقاع الموسيقي والنغمة المتناغمة التي تنتج عن تلاوة القرآن، مما يزيد من تأثيره الجمالي والنفسي على السامع والقارئ.

هذا البيان الأدبي الرائع بجميع عناصره يُعدُّ من أوجه التحدي التي وجهها القرآن إلى العرب بأن يأتوا بسورة من مثله، مما يعزز الإيمان بأن القرآن الكريم كلام الله المعجز الذي لا يستطيع البشر محاكاته.

ثانيًا: الإعجاز البياني في بلاغة القرآن وفصاحته

العنصر الأساس في الإعجاز البياني للقرآن الكريم هو بيانه للمعنى بألفاظ تتسم بالبلاغة والفصاحة. ولنتعرف على معنى البلاغة والفصاحة.

إذا ما فرقنا بين البلاغة والفصاحة كما هو رأي بعض العلماء مثل ابن الأثير الذي يقول أن الكلام يسمى بليغاً لأنه بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية، والبلاغة عنده شاملة للألفاظ والمعاني، وهي أخص من الفصاحة، فإن كلّ كلام بليغ هو فصيح، لكن ليس كلّ كلام فصيح بليغاً، فعندئذ لابد أن نعطي تعريفاً خاصاً للبلاغة يميزه عن الفصاحة.

١-مفهوم البلاغة والفصاحة والفرق بينهما

أ-مفهوم البلاغة

البلاغة في اللغة مصدر من الثلاثي (بلغ) والباء واللام والغين أصل واحد، وهو الوصول إلى الشيء. تقول: بلغت المكان، إذا وصلت إليه"[١]. وفي مفردات الراغب الأصفهاني: "البلاغ البلوغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكاناً كان أو زماناً، أو أمراً من الأمور المقدرة"[٢].

---

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ج١، ص٣٠١.
(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص١٤٤.

وفي الاصطلاح عُرّفت البلاغة بتعريفات أكثرها مبهمة وغير واضحة، من قبيل أنها: "لمحة دالة على ما في الضمير" أو أنها: "معرفة الفصل من الوصل" أو أنها: "الإيجاز من غير هجر والإطناب من غير خطل". أو أنها: " إدراك المطالب وإقناع السامع". أو أنها: " قليل يفهم وكثير لا يسأم، وغير ذلك[١].

وفي المقابل نجد أن هناك تعريفات واضحة مثل التعريف الذي ذكره أبو هلال العسكري(٣٩٥هـ) بقوله إن البلاغة: "كلّ ما تبلّغ به المعنى قلبَ السامع فتمكّنه في نفسه كتمكّنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن"[٢].

ومثل تعريف الآمدي (٣٧٠هـ)، قال: "والبلاغة إنما هي إصابة المعنى، وإدراك الغرض، بألفاظ سهلة عذبة مستعملة، سليمة من التكلف، لا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة، ولا تنقص نقصاناً يقف دون الغاية"[٣].

والتعريف المشهور لها هو: "**مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته**"[٤]. ومعنى مقتضى الحال، أي الحال الذي يكون عليه السامع عند إلقاء الكلام عليه، فلو كان السامع لم يحمل في ذهنه أي معنى سابق عما يريد المتكلم أن ينقله له، عندئذ ليس من الصحيح أن يأتي المتكلم بألفاظ تؤكد المعنى، بل يأتي به خالياً من التأكيد، وهكذا.

ويمكن أن نقول إن البلاغة هي: "**إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، بعبارة سهلة يسيرة موجزة، تؤثر أثرها في نفس السامع**"[٥].

وفي التعريف يتضح أن البلاغة وصف للمعنى الذي يكون اللفظ وسيلة

---

(٢) انظر: العقد الفريد، ابن عبد ربه (٣٢٨هـ)، ج٢، ص١٢٣.
(٣) الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص١٠.
(٤) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الآمدي، ج١، ص٤٢٤.
(٥) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ج١، ص٤١.
(١) انظر: النكت على إعجاز القرآن، الرماني، ص٧٥.

لإظهاره، بخلاف الفصاحة التي سوف يأتي الكلام عنها. فالكلام الذي يظهر معناه بأحسن صورة يوصف بالبليغ.

وعلى أي حال هذه البلاغة حتماً تتفاوت في مرتبتها، لأن هذا الإيصال للمعنى مع حسن الصورة لن يكون متساوياً عند الجميع، ولهذا يقول الرماني: "فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك فهو ممكن، كبلاغة البلغاء من الناس"(١).

ب- مفهوم الفصاحة

الفصاحة في اللغة: مصدر من الثلاثي (فصح) "والفاء والصاد والحاء أصل يدل على خلوص في شيء ونقاء من الشوب، ومن ذلك: اللسان الفصيح: الطليق، وكل واضح مفصح"(٢).

وأفصح اللبن إذا أزيل عنه الرّغوة، وأفصح الأعجمي إذا خلص كلامه عن اللكنة واللحن، وقالوا: لا يسمّى الفصيح فصيحاً حتى تخلص لغته عن اللّكنة الأعجميّة، ولا توجد الفصاحة إلا في العرب (٣).

وكذلك تعني الظهور والإبانة، "وأفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنها الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء"(٤).

فالفصاحة تعني النقاء وتعني الظهور والبيان، لكن دلالتها على الخلوص والصفاء والنقاء من الشوائب أكثر من دلالتها على الإبانة والوضوح والظهور(٥).

---

(٢) المصدر السابق.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٤، ص٥٠٦-٥٠٧.
(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، ج٧، ص٦.
(٥) الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص٧.
(١) البلاغة والفصاحة لغة واصطلاحاً، د. محمد جابر فياض، ص٧٣.

ج- الفرق بين الفصاحة والبلاغة

في مسألة الفرق بين البلاغة والفصاحة هناك رأيان: **الأول**: أنهما لفظان لهما معنى واحد وإن اختلف أصلاهما اللغوي، فالمعنى في كلّ منها هو الإبانة والإظهار؛ ولهذا نجد بعض البلاغيين وعلماء اللغة يرادفون بين اللفظين، فيستعملون لفظ البلاغة والفصاحة في معنى واحد. **والرأي الثاني**: أنهما مختلفان في المعنى، وذلك أنّ الفصاحة تمام آلة البيان فتكون مقصورة على اللفظ، والآلة تتعلّق باللفظ دون المعنى، والبلاغة تعني إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى.

لكن الرأي الثاني لا يمنع أن يتصف الكلام بكونه فصيحاً وبليغاً فيما إذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيّد السبك، غير مستكره، ولا متكلّف. فيجمع بين البلاغة والفصاحة. وقد يكون بليغاً دون أن يكون فصيحاً فيما إذا كان يجمع نعوت الجودة، ولم يكن فيه فخامةٌ في اللفظ وجزالةٍ[١].

والراجح أن هناك فرقاً بين البلاغة والفصاحة، فإن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني. فلا يقال في كلمة واحدة -لا تدل على معنى يفضل عن مثلها- بليغة، وإن قيل فيها إنها فصيحة. وكل كلام بليغ فصيح، وليس كلّ فصيح بليغاً كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه"[٢]. وعلى هذا يقال: معنى بليغ، ولفظ فصيح.

فالمعنى الاصطلاحي للفصاحة المقارب لمعناها اللغوي: "**خلوص اللفظ عن التعقيد في تركيب الأحرف والألفاظ جميعاً**". فلو سلمت اللفظة الواحدة عن تنافر تركيبها، ولم تكن من قبيل كلمة: "الهعخع" وهو شجر، وسلم تركيب الألفاظ عن التنافر أيضاً، عندئذ تتصف الكلمة والكلام بالفصاحة.

---

(٢) الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص٨.

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٥٩.

فالألفاظ قد تكون متساوية في وضوح المعنى الموضوع لها، لكن بعضها ثقيل ومتنافر وغريب وبعض سهل يسير، فتكون الأولى أفصح لخلوها من الثقل والتنافر والغرابة.

إذن الفصاحة هي النقاء والخلوص، وهي تارة تكون في المفرد فيكون خالصاً ونقياً من تنافر حروفه ومن الغرابة ومن مخالفة القياس - وسوف يأتي معنى مخالفة القياس- وتارة أخرى تكون الفصاحة في الكلام، فيكون نقياً من ضعف التأليف وتنافر الكلمات(١).

وأفضل تعريف للفصاحة أنها: "عبارة عن الألفاظ البينة الظاهرة، المتبادرة إلى الفهم، والمأنوسة الاستعمال بين الكتّاب والشّعراء لمكان حسنها"(٢).

د- شروط الفصاحة في اللغة

ومما تقدم يتضح أن هناك شروطاً للفصاحة في الكلمة أو في الكلام المتكون من كلمات وجمل، أما في الكلمة فاشترطوا في فصاحة المفردة:

١-عدم تنافر الحروف وهي وصف للكلمة الثقيلة في النطق مثل كلمة "**هعخع**" في كلام الأعرابي: تركتها ترعى الهعخع (اسم شجر).

٢-عدم الغرابة وعدم الوحشية وعدم التوعر: مثلاً: "**تكأكأتم عليّ كتكأكؤكم على ذي جنة، افرنقعوا عني**".

٣-عدم مخالفة القياس، بأن لا تكون شاذة، مثال: "**الحمد لله العلي الأجلل**" بدل الأجل، والقياس المفترض الأجل بإدغام اللام، أو كلمة" "**ظننوا**" بدل ظنوا.

٤-إلا تكون مكروهة السماع، بل ينبغي أن تكون حسنة، وأفضل من غيرها، فلا تكون قبيحة، لا تطيب النفس بسماعها، مثل كلمة: "**عسلج**" التي تعبر عن

(٢) التعريفات، الجرجاني، ص ١٦٧.
(١) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص١٩.

معنى الغصن. أو قولك للشخص الكريم: "**كريم الجرشي**" يعني: كريم النفس.

٥-إلا تكون عامية: "**تفرعن**" مشتقة من اسم فرعون. وهو من ألفاظ العامة. تفرعن فلان إذا طغى. أو كلمة فطير، فهي كلمة مبتذلة.

هذا بالنسبة للكلمة المفردة، **أما في الكلام المركب من مفردات**: فأيضاً اشترطوا في فصاحته خلوه من مجموعة من العيوب، منها:

١- خلوه من ضعف التأليف: "**ولو أن مجداً أخلدَ الدهرَ واحداً... من الناس أبقى مجدُهُ الدَّهرَ مُطْعِمَا**". وهنا الضعف نتيجة رجوع الضمير في الفاعل "مجده" إلى المفعول به "مطعماً" المتأخر لفظاً ورتبةً، والمفروض عوده على المتقدم. ومعنى البيت: أنه لو كان مجد الإنسان سبباً لخلوده في هذه الحياة الدنيا، لكان مطعم بن عدي أولى الناس بالخلود، لأنه كان من أهل المجد.

٢- خلوه من تنافر الكلمات مجتمعة، مثل: "**وقبرُ حربٍ بمكان قفرٍ... وليس قربَ قبرِ حربٍ قبرُ**" تجد تكرار القاف مع الفاء والراء قد أوجب الثقل في النطق مما أخل بفصاحة الكلام، بحيث لا يمكن تكراره ثلاث مرات متوالية.

٣- خلوه من التعقيد اللفظي: يأتي بكلام غير منتظم، مثل: "**ما قرأ إلا واحداً محمد مع كتاباً أخيه**" ويقصد ما قرأ محمد مع أخيه إلا كتابا واحداً.

٤- خلوه من كثرة التكرار، مثل: "**لها منها عليها**" في قول من يصف الفرس الأصيل: "**وتسعدني بغمرةٍ بعد غمرة سبوحٍ... لها منها عليها شواهد**". أي لها من خلقها شواهد على عتقها وأصالتها[1].

٢- معنى أن القرآن معجز في الفصاحة والبلاغة

وبما تقدم يتضح أيضاً معنى أن القرآن كان معجزاً في بلاغته وفصاحته، فإن

---

(١) انظر: الطراز لأسرار البلاغة، العلوي، ج٣، ص٢٩ وما بعدها.

القرآن استعمل أفصح الألفاظ وأحسنها، في كلّ القرآن الكريم، فلم نجد كلمة ثقيلة أو متنافرة في حروفها أو ثقيلة في اللفظ أو غريبة ومستهجنة أو مخالفة للقياس، ومع الفصاحة جمع البلاغة، فتميّز القرآن بسحرٍ في ظلّ عذوبةِ ألفاظه وجمالِ تأليفهِ ونظمه، وبداعةِ سبكه، لا يُشبه الشعرَ ولا النثر، وأنه كتاب جاء في قالبٍ لم يسبق له نظيرٌ، فله جاذبيةٌ خاصة، هذه الفصاحة وهذه البلاغة لم يكن العرب قادرين على الإتيان بمثلها، بل وجدوا أنفسهم متخاذلين أمامها، مع أن كلّ القرآن مؤلف من حروفهم وكلماتهم.

ثالثًا: الإعجاز البياني في نظم القرآن وأسلوبه

بعد أن تكلمنا عن الإعجاز البياني المتمثل بالبلاغة والفصاحة، نتكلم الآن عن الإعجاز البياني للقرآن المتمثل في نظمه الفريد أولاً ثم نتكلم عن هذا الإعجاز في أسلوبه المتميز.

١-الإعجاز البياني في نَظْم القرآن

كون القرآن معجزاً في نظمه وتأليفه قد تعرض له كثير من العلماء في وقت مبكر جداً، فقد ألف الجاحظ (٢٥٥هـ) كتابه في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه، وبديع تركيبه [(١)]. وألف في النظم أيضاً محمد الواسطي (٣٠٦هـ) والرماني، ثم اشتهر عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) بإعجاز النظم، وهو يُعدُّ أحد المؤسسين لعلم البلاغة، وله كتابان مهمان "دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة" وهما من أهم الكتب التي أُلفت لبيان إعجاز القرآن الكريم، وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر. وقد طبق الجرجاني نظريته هذه تطبيقاً عملياً على آيات من كتاب الله مقارناً لها مع نصوص من أشعار العرب، فجمع بذلك بين النظرية والتطبيق.

ولم يكن الجرجاني هو الأول الذي بسط الكلام في الإعجاز البياني بالفصاحة

---

(١) الحيوان، ج١، ص١١.

والبلاغة والنظم، وصنف فيه كتاباً، بل سبقه غيره، يقول الرافعي في هذا السياق: "كثير من المتوسمين بالأدب يظنون أنه أول من صنف فيه ووضع من أجله كتابه المعروف، وذلك وهمٌ، فإن أول من جوَّد الكلام في هذا المذهب وصنف فيه، أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (٣٠٦هـ)، ثم أبو عيسى الرمّاني (٣٨٢هـ) ثم عبد القادر، وهذا الرأي كان هو السبب في وضع علم البيان"[١].

بل يمكن القول إن علماء المعتزلة كلهم يعتقدون بإعجاز القرآن في نظمه وتأليفه، فقد ذكر الأشعري (٣٢٤هـ) في مقالات الإسلاميين أن المعتزلة متفقون على ذلك، إلا نفراً منهم، قال: "فقالت المعتزلة إلا النظام وهشاماً الفوطي وعباد بن سليمان: تأليف القرآن ونظمه معجزٌ، محالٌ وقوعه بينهم، كاستحالة إحياء الموتى منهم، وإنه علم لرسول الله"[٢].

وللقاضي عبد الجبار المعتزلي إسهام كبير في تبلور نظرية النظم وتطورها، وهناك تقارب كبير بين رأي عبد الجبار ورأي الجرجاني في مسألة النظم، إلا أن عبد الجبار عبر عنها بالضم لا بالنظم، يقول القاضي: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلم وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة،

وقد تكون بالموقع أو بالمواضعة أو بالإعراب"[٣] فهو يرى العلاقة الوثيقة بين فصاحة الكلام وأسلوب نظمه، وأن هذا النظم هو الفضاء الذي يقع فيه. وهذه الفكرة ذاتها التي يدور عليها النظم عند الجرجاني.

وأحد الأسباب التي أدت إلى أن يتبنى الجرجاني نظرية النظم ويتوسع فيها

---

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص١٠٣. طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨.
(٣) مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، ج١، ص١٧٩.
(١) المغني في أبواب التوحيد، ج١٦، ص١٩٩.

ويؤسس لها، هو أن القرآن حاز أعلى مراتب البلاغة والفصاحة والبيان، وقد نزل على العرب فتحداهم فأعجزهم، فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، ولا أن يأتوا بسورة أو بآية واحدة.

فما الذي أعجزهم فيه؟ وما سر إعجابهم به؟ مع أن العرب تميزوا بالقدرة على الفصاحة والبلاغة، كيف لا وهم أفصح الناس لساناً وبلاغة؟!

أجاب الجرجاني عن ذلك قائلاً: "أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادي آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها وفي مضرب كلّ مثل، مساق كلّ خبر، وصورة كلّ عظة وتنبيه وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كلّ حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها"(١).

إذن يتضح أن النظم هو عنصر مهم أسهم في إحداث العجز على أن يأتي العرب بمثل القرآن، مضافاً للفصاحة والبلاغة والبيان.

والنظم في القرآن لا ينفصل عن الفصاحة بمفهومها الواسع، بل هو أحد عناصرها، وهذا يؤكده الجرجاني في قوله: "اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تُعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم"(٢).

أ- مفهوم النظم في كلام القرآن

النظم في اللغة: من الثلاثي (نظم) والنون والظاء والميم: أصل يدل على تأليف شيء، ونظمت الخرز نظماً، ونظمت الشعر وغيره، ويقال: ما لهذا الأمر نظام أي استقامة، والنظم ما تناسق على نسق واحد، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه

---

(٢) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ج١، ص٣٩.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٢٩.

إلى بعض، فقد نظمته[١]. ولم يستعمل القرآن الكريم كلمة "النظم" في جميع آياته. بل استعاض القرآن عن ذلك بكلمات مرادفة مثل الإحكام ونحوه.

والنظم في اصطلاح علماء أهل اللغة: تنسيق الكلام بنحو "تقتفي فيه آثارَ المعاني، وتُرتِّبُها على حسب ترتُّب المعاني في النفس، وليس النظم هو مجرد توالي ألفاظ الكلام في النطق، بل هو تناسق دلالة تلك الألفاظ"[٢].

يقول الجرجاني: "النظم والترتيب في الكلام: عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلام لا في ألفاظها، وهو كمن يأخذ الأصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيباً يحدث عنه أنواع من الرسم"[٣].

وهكذا يحصر الجرجاني معنى للنظم في: **"توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنك ترتب المعاني، أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك"[٤].**

والجرجاني يفرق بين أصول النحو وبين علم النحو، فعلم النحو عنده أوسع من القواعد التي تتعلق بالإعراب والرفع والنصب والجر، فهذه القواعد لا تحقق النظم، بل ما يحققه هو اختيار المعاني النحوية الوظيفية داخل التركيب اللغوي، وارتباطها بالمعنى النفسي في الذهن.

وهذا أمر مهم جدير بالالتفات له وهو الفارق عند الجرجاني بين أصول النحو التي تمثل قوانين اللغة المعيارية التي تعصم المتكلم لو علم بها من الوقوع في الخطأ في الكلام، وبين علم النحو الذي هو عبارة عن النظم المتمثل في الخصائص الفنية والأدبية للكلام الذي حاول الجرجاني أن يؤسس له قوانين جديدة.

---

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٥، ص٤٤٣. وانظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ج١٤، ص٢٨٠. لسان العرب، ابن منظور، ج١٢، ص٥٧٨.
(٣) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ج١، ص٤٩.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٠٠.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٧٧.

ومعاني النحو عنده هي مجموع الأساليب المختلفة التي تحقق النظم، مثل أسلوب التقديم والتأخير وأسلوب الإخبار بالوصف تارة والإخبار بالفعل تارة أخرى، ومثل الإضمار تارة والإظهار تارة أخرى ونحو ذلك، وهذه الأساليب هي التي تغير الكلام وترفعه من مستوى إلى مستوى آخر، فالأسلوب -كما يقول- هو نوع من النظم والطريقة فيه[١].

فالنظم إذن هو طريقة خاصة في التعبير عن المعنى تختلف من متكلم لآخر، تبعاً لاختلاف المعنى أو الغرض والأسلوب الذي يستخدمه المتكلم في الدلالة على ذلك الغرض أو المعنى.

ودور اللغة في هذا الأسلوب أو النظم يقتصر على تحديد الألفاظ المفردة بما تحمله من معان، ووضع العلامات، وفقاً للقوانين والقواعد النحوية، وهناك في ضمن هذه القواعد وضمن الألفاظ الموضوعة للمعاني قدرٌ كبير من الحرية متاح للمتكلم في اختيار الصيغ والأساليب المعبرة عن الغرض أو المعنى.

فقواعد النحو وتطبيقها في جميع الأحوال لا تؤدي إلى تفاضل في الكلام بين متكلم وآخر، فليست هي التي تحدد البلاغة والفصاحة فيه، كما يقول الجرجاني: "

"ومن هاهنا لم يجز، إذا عدت الوجوه التي تظهر بها المزية، أن يُعدَّ فيها الإعرابُ، وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم، وليس هو مما يستنبط بالفكر، ويستعان عليه بالروية، فليس أحدهم - بأن إعراب الفاعل الرفع أو المفعول النصب، والمضاف إليه الجر - بأعلم من غيره، ولا ذاك مما يحتاجون فيه إلى حدة ذهن وقوة خاطر"[٢].

---

(٢) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٤٦٩. وانظر: مجلة فصول، المجلد ٥ العدد ١، ص١٥-١٦، بحث بعنوان: مفهوم النظم عند الجرجاني، نصر حاد أبو زيد.

(١) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٣٩٥.

وهذا لا يعني عدم الاهتمام بالقواعد النحوية بل هي مطلوبة لا يمكن الاستغناء عنها، لكن لا تتحقق الفصاحة والبلاغة في إجادتها والعلم بها، بل الفصاحة والبلاغة تقوم على الفكر وتوظيف معاني النحو في إخراج المعاني الذهنية في قالب الألفاظ بأسلوب وبطريقة خاصة مميزة، يقول الجرجاني: "وأن كلامنا في فصاحةٍ تجبُ للفظ لا من أجل شيء يدخل في النطق؛ ولكن من أجل لطائفَ تدركُ بالفهم، وإنا نعتبر في شأننا هذا فضيلة تجب لأحد الكلامين على الآخر، من بعد أن يكونا قد برئا من اللحن، وسلما في ألفاظهما من الخطأ"[١].

وبهذا يتضح اصطلاح: "**توخّي معاني النحو**" عند الجرجاني:

فإن معنى "**توخي**": من الثلاثي (وخى) والواو والخاء والحرف المعتل: كلمة **تدل على سير وقصد**[٢]، يقال: "فلان توخى الدقة في عمله" بمعنى قصد الدقة فيه، وكان حريصاً عليها في عمله.

ومعنى "معاني النحو": الوظائف والخصائص النحوية للكلمات -والكلام- التي يراد لها أن ترتبط بالمعاني النفسية الذهنية للمتكلم، مثلاً: عندما تريد أن تنقل معنى حصل في ذهنك إلى السامع، تحتاج إلى ألفاظ وهذه الألفاظ تكون ضمن قواعد وأصول نحوية ينبغي مراعاتها وقصدها لتكون جسراً ينقل المعاني للسامع، وكذلك كي يتصف كلامك بالنظم فإنك يجب أن تقصد معاني النحو، أي تقصد أن تنقل المعاني الذهنية الحاصلة في النفس بطريقةٍ وبأسلوب خاص تستثمر فيه الخصائص الوظيفية للتراكيب اللغوية، مراعياً في ذلك كلّ الظروف والملابسات التي تحيط بالمتكلم وبغرضه وبالسامع وبالزمان والمكان الخاص.

فقد تقوم بالحذف والتكرار والتأكيد وتقديم الخبر على المبتدأ، واستعمال

---

(٢) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٣٩٩.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٦، ص٩٥.

أدوات استفهام خاصة أو استعمال حروف عطف خاصة وهكذا.

وباختصار: توخي معاني النحو في النظم للكلام يعني: **الاعتناء بدقة استخدام النحو والتراكيب اللغوية؛ لتحقيق التأثير الجمالي والمعنوي في النص.**

وبهذا يختلف النظم عن أصول وقواعد النحو، في حسن الاختيار والنظر، فهذه المعاني للنحو واسعة جداً لا يلم بها إلا الخبير الماهر، وهي مجال واسع للإبداع والتميز، فكلما كانت الخبرة والمهارة أكبر كلما جاء الكلام أكثر حسناً وتأثيراً وجمالاً.

وبهذا يتضح أن النظم في القرآن هو طريقة الكلام وأسلوبه، بمعنى ارتباط آيات القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متناسقة المعاني؛ ومستوى هذا التناسق والحسن قد بلغ حداً فائقاً أعجز العرب عن الإتيان بمثله، فهو خارج عن عادتهم، ومعجِز بهذه الخصوصية.

ويتضح أن الكلمة والكلمات لن تؤدي الحسن والجمال من دون مراعاة تلك المعاني النحوية، لا الكلمة بمفردها ولا معناها الخاص بمفرده لها القدرة على ذلك، ما لم توضع موضعها في الجملة بطريقة فنية ومتناسقة ومتناغمة مع مرتبة المعاني النفسية الذهنية. فالكلام له معنى مختلف وهو في سياقه الخاص قد يختلف عن المعنى الموضوع له اللفظ.

وهكذا استطاع الجرجاني أن يتوصل إلى أبعاد دقيقة وعميقة تكشف عن أن النظم الناجم عن انتقاء الروابط والعلاقات والتراكيب والأساليب اللغوية التي تعبر عن غرض المتكلم والتي تناسب مقتضى الحال، هو الذي يسهم في حسنه وتألقه وتناسقه وجماله وروعته وأفضليته على كلام آخر.

وسوف نتكلم لاحقاً عن مجموعة من الأساليب التي استعملت في القرآن الكريم ليتضح جمال القرآن وأهم عنصر في إعجازه.

ب- وجوه النظم في القرآن الكريم

وجوه النظم في القرآن الكريم تشير إلى الأساليب والطرق التي تُنظّم بها الكلمات والآيات والأفكار في النص القرآني؛ لتكوّن بنية محكمة وجميلة.

وهذه الوجوه في النظم تارة تتعلق بالكلمات والألفاظ القرآنية المفردة، وتارة أخرى تكون في تركيب الجملة القرآنية بغية إيصال المعنى بنحو راسخ وواضح ومؤثر.

الأول: وجوه النظم في المفردة القرآنية

إن خصائص النظم في المفردة القرآنية تتضمن عدة جوانب تعكس جميعها الإعجاز البلاغي واللغوي للقرآن الكريم، من أبرز هذه الخصائص:

١. **الدقة في اختيار المفردات:** تتسم المفردات القرآنية بالدقة الفائقة، حيث تُختار الكلمات بعناية لتناسب السياق والمعنى المراد.

٢. **التناسق والتناغم الصوتي:** المفردات القرآنية تمتاز بتناسقها وتناغمها الصوتي، مما يسهم في جمال النظم وسهولة التلاوة والحفظ.

٣. **الترابط الموضوعي:** رغم اختلاف المواضيع والأحداث في القرآن، إلا أن هناك ترابطًا واضحًا بين المفردات، حيث تخدم كلّ مفردة المعنى العام للنص وتدعم السياق بشكل متكامل.

٤. **التناسب مع السياق:** المفردات تتناسب مع السياق العام للنص القرآني، سواء كان ذلك في سياق التشريع، القصص، الوعد، الوعيد، الحكمة أو غيرها.

٥. **الفصاحة في المفردة القرآنية:** الفصاحة في المفردة القرآنية تلعب دوراً محورياً في تجسيد الإعجاز البلاغي واللغوي للقرآن الكريم. ويبرز دور الفصاحة في المفردة القرآنية في وضوح المعنى، فإن المفردات القرآنية واضحة في معانيها دون لبس أو غموض. وفي الملاءمة للسياق المحدد، بحيث تكون المفردة القرآنية ملائمة للمعنى المراد توصيله وتخدم الرسالة بشكل فعال.

وفي الجمال اللغوي، فهي تسهم في جمال النص القرآني، إذ تجعل تكون جذابة في السمع وسهلة في التلاوة، مما يعزز من تأثير النص في النفوس، وبالتالي تجعل النص مؤثراً وقادراً على إثارة المشاعر والتفاعل مع المستمع له. وكل ذلك يؤثر في تحقيق أهداف النص القرآني من الإيضاح والإعجاز والجمال البلاغي واللغوي.

٦. **الإيقاع الداخلي:** النظم في المفردة القرآنية يحمل إيقاعًا داخليًا يتجلى في الجرس الموسيقي للكلمات وتناسقها الصوتي، مما يضفي على النص جمالًا إضافيًا. هذه العناصر وغيرها تتضافر لتجعل من النص القرآني نموذجاً فريداً في النظم الأدبي واللغوي، ويشكل إعجازاً لا نظير له.

وسوف نتكلم بنحو من التفصيل عن بعض هذه الوجوه الستة، في خصوصية الدقة في اختيار الألفاظ، فإن الملاحظ وجود التناسب بين الألفاظ والمعاني، بحيث تعكس الألفاظ المعنى المقصود بدقة وبلاغة.

وكذلك نتكلم عن خاصية التناغم الصوتي في أحرف الألفاظ فيما بينها في الكلمة الواحدة. وما يعبر عن إيقاع صوتي مؤثر، فإنه يُلاحظُ في القرآن توازنٌ صوتيٌ متناغمٌ في الحروف والكلمات، مما يعطيه إيقاعاً مميزاً يسهل تلاوته ويؤثر في النفس. سنتكلم عن هاتين الخاصيتين مع ذكر مجموعة من الشواهد والأمثلة. كلّ ذلك قبل أن نتكلم لاحقاً عن وجوه النظم في الجملة القرآنية عامة.

أ- الدقة في اختيار الألفاظ المفردة

القرآن الكريم حروف وكلمات وجمل، والإعجاز في النظم يشمل هذه الثلاثة، والدقة في اختيار الكلمات في القرآن أحد أبرز آليات بُنية النظم، فكل كلمة تأتي في مكانها المناسب لها، فلو غير موضعها بتقديم أو تأخير أو جمع أو تثنية أو إفراد لتأثر المعنى ولم يؤد ما أريد منه، وكذلك لو جيء مكانه بكلمة أخرى ترادفه لم تقم بالمطلوب أبداً. وهذا يشمل كلّ آيات القرآن الكريم، فالكلمة ليست لتوضيح المعنى

فحسب، بل لتصوير الحالة تصويراً وكأن السامع يشاهد الواقعة في مخيلته.

وقد أشار القرآن لدقة اختيار الكلمات كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1].

يقول الرافعي: "رأى العرب حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحاناً لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة"[2]. لقد كان القرآن دقيقاً في اختيار ألفاظه وانتقاء كلماته؛ لأن الكلمة هي الأساس في البيان القرآني، وهي أداة تعبيرية في توصيل المعنى.

ودقة الاختيار في الكلمات القرآنية تعني: دقة التعبير عن المعنى، ودقة انسجامها الصوتي، وأن الكلمة في القرآن لا تكون نافرة في مكانها، وأنها ليست حشواً يمكن أن يستغنى عنها، ولا يمكن تعويضها -في السياق- بكلمة أخرى، وأن الكلمة غير مبتذلة ولا متوعرة.

ومن الأمثلة القرآنية على دقة اختيار المفردات:

١-مثال انتقاء المفردة القرآنية بدقة بالغة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[3]. فالصيغة اختصت بالمطر لا الغيث؛ لأنه أقوى وأغزر تدفقاً للمياه، فناسب عقوبة المجرمين.

٢-وكما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[4]. في هذه الآية استعمل القرآن مفردة "**الغيث**"؛ لأن النبات يحتاج إلى الماء الخفيف حتى ينتعش، بخلاف "**المطر**" الذي يُغرقه.

(٢) الحجرات: ١٤.
(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص١٤٨.
(٤) الأعراف: ٨٤.
(٥) الشورى: ٢٨.

٣-وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١)، في هذه الآية المباركة تجنب القرآن استعمال مفردة (السغب) وجاء بمفردة الجوع بدلاً عنها؛ لأن مقتضى السياق هو الإهانة والتهديد، فتطلب ذلك ما هو الأقسى وهو الحاجة للطعام، فناسب ذكر هذه الكلمة مع أصحاب النار حيث يكون الجوع غاية الحاجة الجسدية للطعام، وكونهم في أشد طلب لهذه الحاجة. ولم يستعمل كلمة (السغب) إلا في مكان الرحمة، وفي مورد بعث المؤمنين لمساعدة الآخرين المحتاجين، خصوصاً إذا كانوا يتامى كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ (٢).

٤- قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ (٣). الدقة هنا في استعمال القرآن الاسم مع الخوف، والفعل مع الترقب، ولم يقل: يخاف يترقب، أو خائفًا مترقبًا، وذلك لأن المعنى لا يستقيم مع حال موسى عليه السلام، إلا بما ورد في القرآن الكريم؛ لأن التعبير بالاسم (خائفًا) يدل على الدوام والثبوت، والخوف إنما كان ملازمًا لموسى لا ينفك عنه، أما الترقب (يترقب)، فإنه يقع مرة بعد مرة، كلما مشى في طريقه، ولذلك عبَّر بالفعل المضارع (يترقب)، الذي يدل على التجدُّد والحدوث.

٥- في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٤). استعمل القرآن مفردة "النور" مفردًا في القرآن كله؛ لأنه واحد لا تعدد فيه؛ إذ المراد به الهدى، بينما استعمل الظلمة بصيغة الجمع (ظلمات)؛ لأنها متعددة؛ إذ المراد بها الضلال، وطرق الضلال شتى ومختلفة ومتفاوتة ومتباينة.

---

(٢) النحل: ١١٢.
(٣) البلد: ١٤.
(٤) القصص: ٢١.
(٥) الأنعام: ١.

٦- في مفردة الجسد والجسم نجد القرآن يفرق بدقة بينهما في استعماله لهما، فالأول يكون للميت غالباً كما في قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[١]، والثاني للحي كما في قوله: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[٢].

كذلك نجد التفرقة بين مفردتي (القَسَم والحلف)؛ فإن مفردة "القسم" استعملت لمطلق اليمين، بينما "الحلف" يكون للحنث في اليمين، وبين (جاء وأتى)؛ فالمجيء يكون من مكان أو زمان قريب، بينما الإتيان يكون في حال المكان والزمان البعيد.

كذلك فرَّق القرآن بين مفردتي (الريح والرياح)؛ فالريح في الغالب تأتي في مواطن العذاب والعقاب، بينما (الرياح) على العكس من ذلك، فإنها تأتي في مواطن الخير والنماء؛ وذلك أن الريح تأتي من جهة واحدة؛ فتكون مدمرة، أما الرياح فتأتي من جهات عدة؛ مما يُحدث التوازن والاستقرار. مثلًا: قوله تعالى في الريح: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾[٣]، وفي قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٤]. وقوله تعالى في الرياح: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[٥]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[٦].

ب- التناغم الصوتي في أحرف المفردة القرآنية

من مظاهر النظم في المفردة القرآنية هو التناغم الصوتي في أحرفها، فإن أصغر وحدة في الكلام هي الأحرف التي تتشكل من خلال النطق بها، والحروف تمثل

---

(٢) ص: ٣٤.
(٣) البقرة: ٢٤٧.
(٤) الذاريات: ٤١.
(٥) الحاقة: ٦.
(٦) الأعراف: ٥٧.
(١) الحجر: ٢٢.

مجموعة من الأصوات، والأصوات هذه تتحكم فيها مخارجها إثناء النطق بها. والجمال الصوتي والتناسق الفني والإيقاع الموسيقي، هو أول شيء أحسته الأذن العربية يوم نزل القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

واتسمت الحروف في القرآن بأن لها إيقاعاً صوتياً متميزاً متفرداً يتغلغل في القلوب والنفوس فيغمرها انشراحاً ويستولي على المشاعر ويأسرها.

والإيقاع في تعريفه العام هو "التنظيم" وفي الاصطلاح: هو مجموعة من الحركات أو النقرات بينها أزمنة متساوية أو متفاوتة. ويمكن تشبيهها بإيقاع الحصان في عدوه وحركته المستمرة. هذا الإيقاع الصوتي في القرآن يتولد من تناسق الحروف من حيث مخارجها وصفاتها، وحركاتها ومن أوزان الكلمات والفواصل القرآنية.

والفاصلة القرآنية: ركن أساس في تكوين بنتيه الإيقاعية، وهي تشبه القافية في الشعر. والفاصلة هي الحرف آخر الآية القرآنية. ودائما تأتي في مكانها المناسب، ولهذا عندما سمع الأعرابي قوله تعالى: **﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**(١) كان قد سمع آخرها (غفور رحيم) بدل (عزيز حكيم). فقال هذا ليس من كلام الله، لان الزلل لا يتناسب مع (غفور رحيم). والله لا يري أن يغري على الزلل.

هذا الإيقاع الصوتي: ١- تابع لقصر الفواصل وطولها ٢- تابع لانسجام الحروف في الكلمة المفردة ٣-تابع لانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة. ٤- تابع لأهداف الآية أيضاً.

لو نأخذ مثالاً على سحر وروعة الإيقاع الصوتي القرآني وشدة تنظيمه وتأثره بالفاصلة والتناسب بين الإيقاع والهدف، في سورة المؤمنون وسورة القمر، نجد أن الفاصلة لها دور بالغ في تمييز نظم القرآن عما سواه، حيث أنها تؤثّر على المضمون

(١) البقرة: ٢٠٩.

بدلالتها وعلى الإيقاع بمقاطعها، فيتم بها المعنى وتستريح لها النفس.

لو نأخذ أيضاً سورة النجم: نجد أنا تميز بنغمة موسيقية عذبة من أولها إلى آخرها ساهمت في تشكيلها فواصل موزونة أضفت عليها الألف المقصورة مسحة جمالية رائعة الإيقاع في آياتها ليس سريعا بل هو متوسط الزمن.

إن الفواصل الإيقاعية تتناسب في القرآن مع أهداف السورة، وليست هي مجرد من أجل إضفاء باع إيقاعي وصوتي متناسق، أنظر قوله تعالى في سورة النجم السابقة: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى. أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى**﴾[1]. هنا لو غيرنا وقلنا: أفرأيتم... ومناة الثالثة من دون الأخرى، وقلنا: ولكم الذكر... تلك قسمة ضيزى. من دون (إذن) لاختل الإيقاع كله.

وانظر أيضاً قوله تعالى: ﴿**وإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ إلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ. وإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ إلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[2]. في الآية الأولى حيث تتحدث عن الفساد في الأرض وهو يكون بالحواس، ناسب أن يأتي بفاصلة (يشعرون) في حين أن الآية الثانية تتحدث عن السفهاء وهم الجهلاء، ناسب أن يأتي بفاصلة (يعلمون).

مثال آخر للإيقاع الصوتي في الكلمات: قال تعالى ﴿**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ**﴾[3]حيث نلاحظ كلمة (فَفَتَحْنَا) تبدأ بثلاث فَتَحَات متوالية، تنسجم تماماً مع فعلِ فتح أبوابِ السماء. ويقوِّي الإحساس بفعل الفتح انتهاء هذه الكلمة بفتحة رابعة مختومة بحرف مدٍّ منفصل، يُمَدُّ بمقدار أربع أو خمس حركات، يوحي

---

(٢) النجم: ٢٢.
(٣) البقرة: ١٣.
(١) القمر: ١١.

بمقدار ذلك الفتح الذي وَسِعَ السّماءَ كلَّها. ثم تتوالى بعد ذلك حركةُ الفتح على كلمة (أَبْوَابَ) المنصوبة، ثم (السَّمَاءِ)، مع ملاحظة الحرف الأخير منهما المردوف بألف المد المرتكز على حركة الفتح، وما يوحي من الاستطالة والسّعة والامتداد، ثم تُختَمَ الكلمةُ الأخيرة (السَّمَاءِ) بحرفٍ مكسور إيذاناً بنزول الماء منها، لِتَتَوالَى بعدها حركةُ الكسر في كلمتي: (بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ) وتختمان بها.

ولا يخفى ما بين حركة الكسر المتكرِّر، وبين فعل نزول الماء من السماء إلى الأرض من تلاؤم وتناغم، من شأنه تحويل حاسة السمع في القارئ والسامع إلى حاسة إبصار، خاصةً ما يوحي به تنوين الكسر في نهاية الكلمتين الأخيرتين من شدة الانهمار، وما يدل عليه حرف الراء في آخر (مُنْهَمِر) من التكرار، بسبب خاصيته التكريرية.

مثال آخر أيضاً: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾[1] نلاحظ أن كلمة (رخاء) تصور جزئيات الحركة المعنية، وتصوير للحدث، فالصوت يوحي بهذا الحدث بعيدا عن المعنى فهو يحاكي الحدث ويرسمه فإنّ الضمة على الراء تعني انضمام الشفتين على حرف ليس من حروف اللين، واستدارة الشفتين تتطلب جهدا، وفي هذا قوة الريح، ثم يأتي الانتقال من الضم إلى الفتح، على حرف حلقي ليدعو إلى تصور بدء السهولة، وتكاثر السهولة في مد الألف، فليس هناك انقباض ولا انكماش، بل تدرج من الصعب إلى السهل، مما يمثل طواعية الريح للنبي بأمر الخالق.

الثاني: وجوه النظم في تركيب الجملة القرآنية

الجملة القرآنية اتسمت بخصائص ومظاهر ووجوه كثيرة أسهمت في الإعجاز، ومن أبرز خصائص هذه الجملة:

---

(١) سورة ص:٣٦.

أولاً: الجملة القرآنية فيها اتساق لفظي وإيقاع داخلي رائع، فالجملة القرآنية فيها مرتبة عالية من التلاؤم والاتساق الكاملين بين كلماتها، وبين ملاحق حركاتها، وسكناتها، تجدها دائماً مؤلفة من كلمات وحروف، وأصوات يستريح لتألفها السمع والصوت والمنطق، فيها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع، وتجد هذا التناسق حاصلاً في جميع آيات القرآن.

ثانياً: دلالتها على المعنى بأقصر جملة، فهي تدل بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل لا يكاد الإنسان يستطيع التعبير عنه إلا بأسطر وجمل كثيرة ن دون أن تجد فيه اختصاراً مخلا، أو ضعفاً في الأدلة. لاحظ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ لَكَ إلا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى**﴾(١). ثم تأمل كيف جمع الله بهذا الكلام أصول معايش الإنسان كلها من طعام وشراب وملبس، ومأوى.

ثالثاً: إخراجها المعنى المجرد في مظهر الأمر المحسوس الملموس، ثم بث الروح والحركة في هذا المظهر نفسه.، تتحرك في داخل الخيال كأنها قصة تمر أحداثها على مسرح يفيض بالحياة والحركة المشاهدة الملموسة. ولاحظ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾(٢). تأمل هنا كيف إن اللهً تعالى يصور المعنى في مظهر من الحركة المحسوسة الدائرة بين عينيك، وكأنها أمام آلات تتحرك بسرعة دائبة في نظام مستمر يعيها وتصورها الشعور والخيال.

أ-دقة النظم في تركيب الجملة القرآنية

من النظم - مضافاً للنظم في المفردة القرآنية- النظم الحاصل في صياغة

(٢) طه: ١١٨-١١٩.
(١) الأعراف: ٥٤.

وتركيب الجملة القرآنية، والمقصود بالتركيب هو تلك العلاقة التي تربط أجزاء الآية الواحدة بعضها ببعض أو تربط الآية الواحدة مع بقية الآيات. فالألفاظ في الجملة القرآنية مرتبطة بعضها ببعض في بناء متكامل يأخذ بعضه ببعض، فلا يمكن "أن يُؤخَّر ما قُدِّم، أو يقدَّم ما أخِّر، أو يُذكر ما حُذِف، أو يحذف ما ذكر، أو يوجز فيما أطيل فيه، أو يطنب فيما أوجز فيه، فإن لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبتها موقف، وكأنما لم يخلق الله لأداء تلك الدلالات غير هذه القوالب على اتساع اللغة بألفاظها وأشكالها.

وهذا هو النظم الذي يقول به الجرجاني معبراً عنه بأنه: "تعليق الكلم بعضه ببعض، وجعل بعضه بسبب من بعض" فالمعاني تترتب في النفس أولاً وتَتبعها الألفاظ مُرتبة على حسب ترتيب المعاني في الذهن أو النفس.

إن النظم لتركيب الجمل في القرآن الكريم يتجلى من خلال تناسق كلّ جملة مع ما يجاورها، آخذًا بعين الاعتبار ترتيبها وعلاقتها بالجمل الأخرى. هذا الترابط يشبه روابط العائلة الواحدة من ذوي الأرحام، حيث تتصل كلّ جملة بما سبقها وما يليها اتصالًا وثيقًا. فكل جملة تستقر في موضعها بإحكام، مرتبطة به ارتباطًا لا انفصام له. وإن تقديم كلمة على أخرى ليس مجرد أسلوب لغوي، بل إن المعنى هو الذي يفرض هذا الترتيب كضرورة لا يمكن تجاوزها، وإلا اختل المعنى وانهار البناء اللغوي.

فكل عنصر في الآية القرآنية - سواء كان حرفًا أو حركة - يثير الإعجاب والدهشة بموقعه ودوره، مما يؤكد أن هناك منهجية موحدة في تنظيم الجملة والكلمة والحرف والحركة على حد سواء.

وخلاصة القول: أن النظم التركيبي يشير إلى الطريقة التي تُبنى بها الجمل في القرآن الكريم، وكيف تترابط الكلمات والعبارات لتشكل المعنى المقصود.

يقول تعالى في وصف نظم الجملة القرآنية: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1]، فهي بناء قد أحكمت لبناتُه، ونسقت أدق تنسيق، لا تشعر فيها بكلمة ليست في مكانها المناسب، أو غير منسجمة مع بقية الكلمات في الجملة، حتى أصبح من المتعسر أن تغير في الجملة كلمة بكلمة دون أن يختل المعنى، أو أن تستغنى فيها عن لفظ، أو أن تزيد فيها شيئاً، وكأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعاني، غير هذه الألفاظ، وكأنما ضاقت اللغة، فلم تجد فيها -وهى البحر الواسع- ما تؤدى به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء.

ب-أمثلة قرآنية على النظم في تركيب الجملة القرآنية

١- التأخير، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

تجد في الآية "إسماعيل" معطوفاً على "إبراهيم"، فهو كأبيه يرفع القواعد من البيت، ولكن تأخره في الذكر، يوحي بأن دوره في رفع القواعد دور ثانوي، أما الدور الأساسي فقد قام به إبراهيم: "قيل كان إبراهيم يبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة".

٢- التقديم، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[3]، فإنك ترى تقديم المفعول هنا، لأنه موضع اهتمام العابد وكذلك المستعين.

٣- الحذف، كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[4].

---

(٢) هود: ١.
(٣) البقرة: ١٢٧.
(٤) الفاتحة: ٥.
(٥) البقرة: ٤٥.

في الجملة حذُف المستعان به، وهدف الحذف، الإيحاء أن كلّ مشقة وصعوبة يتم التغلب عليها بالصبر والصلاة(١).

٤- الاعتراض، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾(٢).

في الآية جملة "لو تعلمون" معترضة بين الموصوف وصفته، وفي ذلك فائدة بلاغية ومعنوية.

٥- التذييل، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(٣).

فجيء بالجملة الثانية تذييلاً وتأكيداً للأولى.

٦- الاستفهام البلاغي، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾(٤).

٧- **الطباق**، كما في قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾(٥).

٨- **المقابلة**، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾(٦).

٩- **الاحتباك**، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾(٧).

والتقدير: "تدخل غير بيضاء، وأخرجْها تخرج بيضاء"، فحذف من الأول "تدخل غير بيضاء" ومن الثاني "وأخرجْها"(٨).

١٠- **الإيغال**، كما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي

---

(٢) انظر: من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، ص٨٥.

(٣) الواقعة: ٧٦.

(٤) يوسف: ٥٣.

(٥) الرحمن: ٦٠.

(٦) آل عمران: ٢٧.

(٧) التوبة: ٨٢.

(٨) النمل: ١٢.

(٩) الاحتباك: أن يحذف من الكلام في جزئه الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ويذكر في الثاني ما أثبت نظيره في الأول.

وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].

حيث ختمت الآية بجملة زائدة لتأكيد المعنى[2].

هذه بعض الأمثلة التي توضح تنوع وثراء النظم في تركيب الجملة القرآنية.

٢- الإعجاز البياني في أسلوب القرآن

الأسلوب في اللغة: الطريق وكذلك الوجه والمذهب. والأسلوب في الاصطلاح عند علماء اللغة: "الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم وانفرد بها في تأليف كلامه لتأدية معانيه ومقاصده من كلامه"[3].

وبتعبير آخر أكثر دقة وعمقاً: الأسلوب هو الطريقة المتبعة في صياغة الجملة لإيصال معناها الشامل، وهو يتجاوز مجرد المعاني المعجمية للكلمات المفردة والعلاقات النحوية بينها، ليشمل معنى تركيبياً عاماً ينتج عن تفاعل هذه العناصر مجتمعة. هذا المعنى التركيبي العام يعكس: قصد المتكلم وغرضه من الكلام بالدرجة الأولى مع النظر لحال المخاطب السامع وظروفه الذهنية والزمانية والمكانية والاجتماعية.

وللمخاطب ثلاثة أحوال: أن يكون خالي الذهن من الحكم، وفي هذه الحال يلقى إليه الخبر خاليا من أدوات التوكيد.

أو أن يكون مترددا في الحكم، وفي هذه الحال من الأفضل توكيد الحكم له ليتمكن من نفسه. والحال الثالث: أن يكون منكراً له، وفي هذه الحال يجب أن

---

(٢) هود: ٤٤.

(٣) الإيغال: ختم الكلام بجملة لا يتوقف معنى الكلام السابق على ذكرها، بل جاء بها المتكلم لهدف ما، قد يكون التأكيد أو التشويق ونحو ذلك، مثل آية: (يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون). نلاحظ ختم الكلام بجملة (وهم مهتدون) وهي جملة لا يتوقف المعنى السابق على ذكرها، لأن الرسل من المؤكد أنهم مهتدون، بل ورد ذكرها لأجل نكتة دقيقة، وهي هنا تشويق الناس وتشجيعهم لاتباع الرسل.

(١) انظر: مناهل العرفان، الزرقاني، ج٢، ص٣٠٣.

يؤكد الخبر بمؤكد أو أكثر على حسب إنكاره قوة وضعفاً.

ونتيجة لتنوع هذه العوامل، تتعدد الأساليب وتتنوع أشكالها لتلبي مختلف الأغراض التعبيرية والتواصلية. فالأسلوب، إذن، هو الوعاء الذي يحمل المعنى بكل أبعاده، مراعياً السياق اللغوي والاجتماعي للخطاب.

أ-مفهوم الأسلوب في القرآن وخصائصه

فالأسلوب إذن هو منهج خاص في التعبير عن الأفكار، وعلى هذا، يمكن صياغة تعريف **للأسلوب القرآني** بأنه: "**طريقة القرآن التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه لبيان معانيه**" فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر تتعدد بتعدد أشخاصهم[(١)]. فيقال مثلاً هذا أسلوب علي عليه السلام، لأن هناك خصائص ارتبطت بهذا الأسلوب وتميز بها، أو هذا أسلوب الكاتب ابن المقفع، وهكذا.

وقد تميز القرآن بأسلوب فريد في تأليف الكلام وانتقاء الألفاظ في عرض المعاني، اختلف عن أساليب العرب المتعارفة مثل: أسلوب المحاورة وأسلوب الخطابة وأسلوب الشعر وأسلوب السجع المتكلف.

وفي هذا السياق يقول الرافعي: " وكان القرآن الكريم قد جمع في أسلوبه أرقى ما تحسّ به الفطرة اللغوية من أوضاع البيان ومذاهب النفس إليه... فإنه مباين بنفسه لكل ما عُرف من أساليب البلغاء في ترتيب خطابهم وتنزيل كلامهم، وعلى أنه يؤاتي بعضه بعضاً، وتُناسب كلّ آية منه كلّ آية أخرى... وإنما ينفرد بأسلوبه، لأنه ليس وضعاً إنسانياً، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب أو من جاء بعدهم"[(٢)].

---

(٢) المصدر السابق:

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص١٣٣، ص١٤٠-١٤١.

ويقول في مورد آخر: "إن الأسلوب الذي يحسمُ مادة الطبع في معارضته، هو ذلك الذي تريده كلاماً فتراه نفساً حية، كأنها تُلقي عليك ما تقرؤه ممزوجاً بنبرات مختلفة وأصوات تدخل على نفسك كلّ مدخل، ولا تدع فيها إحساساً إلا أثارته، ولا إعجاباً إلا استخرجته، فلا يعدو الكلام أن يكون وجهاً من الخطاب بين نفسك ونفس قائله، وتقرؤه وكأنك تسمعه، ثم لا يَلجُ إلى فؤادك حتى تصير كأنك أنت المتكلم به، وكأنه معنى في نفسك ما يبرحُ مختلجاً ولا ينفك ماثِلاً من قديم؛ مع أنك لم تعرفه إلا ساعتك"(١). وبهذا الأسلوب الخاص للقرآن كان الإعجاز القرآني.

ب-الفرق بين النظم في القرآن وبين الأسلوب

يرى بعض العلماء - مثل الجرجاني - أن الأسلوب هو نوع من النظم، فالأسلوب نتيجة النظم الخاص، يقول: "أن يبتدئ الشاعر في معنى له وغرضٍ أسلوباً، والأسلوب: الضرب من النظم والطريقة فيه"(٢).

والظاهر من كلامه أن الأسلوب يتشكل لكل شخص شاعراً كان أم أديباً أم مؤلفاً مثلاً من خلال طريقته الخاصة والفريدة في نظم الكلام، فالنظم الخاص للكلام هو الذي يترشح منه الأسلوب. فيكون الأسلوب نتيجة والنظم سبباً.

وعلى أي حال، سواء قلنا إن الأسلوب خصوصية فريدة في التعبير عن الأفكار ناتجة من مزاج نفسي خاص كما يراها الرافعي(٣)، أو أن الأسلوب ناتج بسبب الطريقة الخاصة في نظم الكلام، يفترق هذا الأسلوب عن النظم المصطلح المتعلق بالمفردة القرآنية أو الجملة، بمجموعة من النقاط:

١- أسلوب القرآن: يشير إلى الطريقة التي يُعبّر بها القرآن عن المعاني، وهي

---

(٢) المصدر السابق، ص١٤٢.

(٣) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص٤٦٩.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص١٤٠. قال: "إن تركيب الكلام يتبع تركيب المزاج الإنساني، وأن جوهر الاختلاف بين الأساليب الكتابية: في الطريقة التي هي موضع التباين لا في الصنعة كالمحسنات اللفظية ونحوها".

الطريقة الفريدة في صياغة الجمل وتركيب الكلمات. ويتميز الأسلوب القرآني بالجمال البلاغي، والتناسق الصوتي، والعمق المعنوي. ويشمل استخدام الأساليب البلاغية مثل الاستعارة، والكناية، والتشبيه، والجناس ونحو ذلك.

٢- النظم في القرآن: يشير إلى الترتيب والتنسيق بين الكلمات والجمل داخل الآيات والسور. وهو يركز على البناء الهيكلي للنص القرآني وكيفية ارتباط الأجزاء ببعضها البعض لخلق معنى متكامل. كما أنه يشمل أيضاً التناسب بين الأصوات والمعاني، وكيفية تأثير ترتيب الكلمات على الإيقاع والنغمة العامة للقرآن. وببساطة: يمكن القول إن الأسلوب هو الطريقة التعبيرية الفريدة، بينما النظم هو البنية والترتيب الداخلي للنص.

وبتعبير آخر: إن أسلوب القرآن يشير إلى الطريقة الفريدة التي يعبر بها القرآن عن معانيه وهو يشمل البلاغة والفصاحة والبيان ويتميز بالإيجاز والإعجاز اللغوي. كما يتضمن استخدام الاستعارات والكنايات والتشبيهات بطريقة فريدة.

أما نظم القرآن فإن يشير إلى ترتيب الكلمات والجمل والآيات والسور ويهتم بالعلاقات بين الكلمات وتناسقها داخل الآية الواحدة وبين الآيات، ويركز على التناسق والترابط بين أجزاء النص القرآني. كما يشمل دراسة الفواصل القرآنية وتناسبها مع المعاني. وباختصار: الأسلوب يركز على طريقة التعبير، بينما النظم يهتم بالترتيب والتناسق، وكلاهما يساهم في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

ج-خصائص الأسلوب القرآني

ومما تقدم فقد تميز أسلوب القرآن الكريم بمجموعة من الخصائص التي تجعله متفردًا ومؤثرًا بشكل عميق على المستمعين والقراء. ومن أبرز هذه الخصائص:

١. **الإيجاز والبلاغة**: القرآن يتميز بقدرته على إيصال معانٍ عميقة وكبيرة بأقل عدد من الكلمات، مما يعكس البلاغة والإيجاز في أسلوبه، كما في قوله تعالى:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾(١) فثمة إيجاز بليغ في بيان حكمة القصاص.

٢. **التكرار الهادف:** يُستخدم التكرار في القرآن للتأكيد على المعاني المهمة، ولترسيخ المفاهيم والقيم في ذهن المستمع، كما في سورة التكاثر بغية التأكيد والتنبيه.

٣. **التدرج في والتعاليم والإرشادات:** فإن التعاليم القرآنية غالبًا ما تأتي متدرجة ومبنية بشكل منطقي، بحيث تناسب تطور الإنسان، والتدرج في المعاني أيضاً كما في تدرج مراحل خلق الإنسان في سورة المؤمنون.

٤. **التنوع في الأسلوب:** يتنوع أسلوبه بين القصص، والأمثال، والحِكَم، والوصف، والأمر، والنهي، مما يجعله شاملًا ومؤثرًا في مختلف جوانب الحياة.

٥. **المراعاة لحال المخاطبين:** الأسلوب القرآني يأخذ في الحسبان ظروف وحالة المخاطبين، مما يجعله مؤثرًا ومناسبًا لكل زمان ومكان.

٦. **التناسق الصوتي والموسيقي:** كما تميز الكلمة بتناغم أحرفها كذلك الجمل القرآنية التي يتكون منها الكلام تميز بتناسقها الصوتي، مما يُضفي عليها إيقاعًا موسيقيًا جذابًا يسهل تلاوته وحفظه، مثل الإيقاع الصوتي المتناسق في قوله تعالى: "﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾(٢).

٧. **استخدام الصور البيانية الفنية:** القرآن يستخدم العديد من الصور البيانية مثل الاستعارة والتشبيه والكناية، مما يُضفي جمالًا وعمقًا على النصوص، كما في قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾(٣)، فتجد تصويراً بديعاً لبزوغ الفجر.

٨. **الاستدلال العقلي:** القرآن يخاطب العقل ويستخدم الحجج المنطقية لإقناع المخاطبين برسالته ودعوتهم للتفكر والتدبر.

---

(٢) البقرة: ١٧٩.
(٣) العاديات: ١-٢.
(١) التكوير: ١٨.

٩. **الاهتمام بالمشاعر:** الأسلوب القرآني يمتاز بمخاطبة المشاعر الإنسانية، مما يجعله مؤثرًا بشكل عميق في النفس البشرية.

١٠. **الاتساق والانسجام:** رغم تعدد المواضيع والأحداث، إلا أن هناك انسجامًا واتساقًا في النصوص القرآنية، حيث تخدم جميعها الهدف الأسمى للقرآن.

هذه الخصائص وغيرها تجعل الأسلوب القرآني فريداً ومتفرداً، قادرًا على التأثير في النفوس، وإيصال الرسالة الإلهية بفعالية وجمال.

الأساليب التعبيرية في القرآن

يتجلى الإعجاز البياني في القرآن الكريم من خلال نسيجه اللغوي الفريد، حيث تتناغم كلّ لفظة وكل حرف في تناسق بديع، مشكلةً لوحة فنية متكاملة. هذا الإبداع لا يقتصر على آية بعينها أو سورة محددة، بل يمتد ليشمل النص القرآني بأكمله في تناغم إلهي معجز.

إن جمال التعبير القرآني ينبع من هندسة جمله الدقيقة وبنيتها المحكمة، فهو ليس مجرد وسيلة لنقل المعنى، بل هو غاية في حد ذاته. يهدف هذا الأسلوب التعبيري الفريد إلى إيصال الرسالة الإلهية بأسمى صورها، مخاطباً العقل والروح معاً. فكل كلمة تنساب بعناية فائقة، لتترك أثراً عميقاً في نفس المتلقي، وتلامس شغاف قلبه بإعجاز لا يضاهى.

ولنستكمل رحلتنا في استكشاف روائع الإعجاز البياني في القرآن الكريم، فنغوص الآن في بحر أساليبه الساحرة التي تكشف عن جواهر جماله وكنوز معانيه. هذه الأساليب، بعذوبتها وسلاستها ورقتها، نسجت نسيجاً فريداً من البلاغة والفصاحة، مشكلةً سمفونية إلهية من النظم البديع.

في هذا المشهد المتألق من البيان القرآني، نبدأ رحلتنا بالوقوف على شاطئ "التقديم والتأخير"، ذلك الأسلوب الذي يعكس براعة التعبير وحكمة الترتيب في كلام رب العالمين. فهو باب واسع من أبواب الإعجاز، يفتح أمامنا آفاقاً جديدة لفهم أسرار التعبير القرآني وجمالياته الفريدة.

أولاً: أسلوب التقديم والتأخير

الكلام يقدم ويؤخر وفق مقاصد وغايات تقتضيها الأغراض البلاغية، ولأن العرب كانوا هم أهل البلاغة، كان التقديم والتأخير سنة من سننهم؛ حيث كانوا يرتبون الكلام في الجملة فيقدمون ما من حقه التأخير ويؤخرون ما من حقه التقديم. وقد أجاد القرآن الكريم في هذا الفن بشكل معجز تحدى به كلّ العالم وقد بلغ

الذروة في وضع الكلمات في مكانها المناسب، بحيث تستقر في مكانها المناسب؛ فلا يتقدم لفظ في القرآن ولا يتأخر إلا لموجب وغرض، سواء علم هذا الغرض أم لبث مجهولاً، فإذا قدم كلمة على أخرى فلحكمة لغوية وبلاغية تليق بالسياق العام.

وهذا القرآن فيما لو قلنا إن إعجازه بذاته في جانبه البلاغي في الفصاحة والبلاغة والنظم، يكون من مظاهر هذا الإعجاز هو نظم وتركيب الجملة القرآنية الذي تقدم الكلام عنه، وهذا التركيب والنظم يتخذ أساليب تعبيرية متعددة. ومنها: أسلوب التقديم والتأخير، وهذا التقديم لا يكون جزافا وعبثا، وإنما يتم وفق أسس وضوابط، وأغراض يقصدها المتكلم من ورائه، فهو يتصرف في التراكيب، فيقدم ويؤخر عن خِبرة وبصيرة، ويعرف ما وراء تقديم هذا اللفظ من مغزى، وما تأخير ذلك من غرض.

وفي فن الكلام، تتحرك الألفاظ بدقة وإتقان، تتقدم وتتأخر وفق نسق بلاغي محكم. وكان العرب، أهل الفصاحة والبيان، قد برعوا في هذا الفن حتى أصبح سمة بارزة في أساليبهم، يصوغون به الجمل في قوالب تتجاوز المعتاد، فيقدمون ما حقه التأخير ويؤخرون ما حقه التقديم، وكانوا بحق أرباب البيان، قد أتقنوا هذا الفن حتى غدا سُنّة من سُننهم، يصوغون به الجمل في قوالب تتحدى المألوف، فيقدمون ما حقه التأخير ويؤخرون ما حقه التقديم.

ثم جاء القرآن الكريم، فارتقى بهذا الفن إلى ذروة الإعجاز، متحدياً العالم أجمع بدقة نظمه وروعة بيانه. فكل كلمة فيه تستقر في موضعها الأمثل، كالجوهرة في عقدها الفريد، لا تتقدم ولا تتأخر إلا لحكمة بالغة وغاية سامية، سواء أدركها العقل أم ظلت سراً من أسرار البلاغة الإلهية.

ولو تأملنا في إعجاز القرآن البلاغي، لوجدنا أن نظم الجملة القرآنية وتركيبها من أبرز مظاهر هذا الإعجاز. فالتقديم والتأخير في القرآن ليس عبثاً أو صدفة، بل هو

فن دقيق يخضع لأسس وضوابط محكمة، وأغراض عميقة يقصدها الخالق سبحانه. إنه تصرف في التراكيب ينم عن خبرة وبصيرة فائقة، حيث لكل تقديم مغزاه ولكل تأخير غايته.

وتجلى روعة هذا الأسلوب في القرآن من خلال الحكمة البالغة والقدرة الفائقة التي يعكسها كلّ تقديم وتأخير. فكل كلمة في موضعها كأنها قطعة في لوحة فسيفساء إلهية، لا يمكن استبدالها أو تغيير موقعها دون الإخلال بجمال الصورة الكلية. وكأن المعنى ذاته يستدعي هذا الترتيب الخاص، في تناغم طبيعي يعكس الإعجاز الإلهي في أبهى صوره.

١-أهمية أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم

يشكل أسلوب التقديم والتأخير في بناء الجملة القرآنية عنصراً جوهرياً في إبراز بلاغتها وتحقيق مقاصد الخطاب الإلهي. هذا الأسلوب البديع يقوم على إعادة ترتيب عناصر الجملة بشكل يخالف المألوف في قواعد اللغة، حيث يتقدم ما حقه التأخير ويتأخر ما حقه التقديم، وذلك لتحقيق غايات بلاغية وأسلوبية سامية.

وقد نقل لنا السيوطي أن فهم هذا الأسلوب كان مفتاحاً لحل إشكالات واجهت العلماء في تفسير بعض الآيات القرآنية. فعلى سبيل المثال، في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (١)، أوضح قتادة أن المعنى الحقيقي يُفهم بإعادة ترتيب الكلام: "لا تعجبك أموالهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة". وكذلك في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ (٢) أي: "رافعُك إليَّ ومتوفِّيك؛ بلحاظ أننا نعلم أن عيسى عليه السلام لم يمت، بل رفعه الله حياً. وكذلك قوله تعالى:

(٢) التوبة: ٥٥.
(٣) آل عمران: ٥٥.

﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾[١] أي: قالوا جهرة وليس خفية أرنا الله. فيساعد فهم التقديم والتأخير على إدراك المعنى الصحيح. ويمكن القول إن **أهمية هذا الأسلوب في الخطاب القرآني تبرز من خلال نقطتين رئيسيتين:**

١. إنه يمثل قمة الفصاحة والبلاغة، وقد جاء القرآن به متحدياً العرب بما يتوافق مع طبيعة لغتهم وفصاحتهم، مما يجعله وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني.

٢. إنه يُعدُّ جزءاً لا يتجزأ من النظم القرآني الكلي، فهو ليس اعتباطياً أو عشوائياً، بل يأتي إما لضرورة يقتضيها المعنى أو لتحقيق إيقاع لفظي وصوتي متناسق في السياق القرآني.

وهكذا يتجلى أسلوب التقديم والتأخير كأداة بلاغية فريدة، تسهم في إثراء المعنى وتعميق الدلالة، مظهرةً الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم في أوضح صوره.

٢-أهم دواعي التقديم في الكلام القرآني

في التقديم ثمة عدة دواعي تستدعي ذلك، وهي كثيرة، منها:

١- **التعظيم**، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[٢]. فهنا تقدم "الله" على "رسوله" لتعظيم شأن الله تعالى.

٢- **التشريف**: كما في قوله: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾[٣]. وكذلك قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾[٤] وهنا قدم الأحياء على الأموات تشريفاً للحي.

٣- **مراعاة التناسب**، كما في الآية الكريمة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[٥]. هنا نلاحظ تقديم كلمة "تريحون" رغم أن جمال الإبل يظهر في

---

(٢) النساء: ١٥٣.
(٣) النساء: ١٣.
(٤) البقرة: ١٧٨.
(٥) فاطر: ٢٢.
(١) سورة النحل: ٦.

كلا الوقتين. لكن هذا الترتيب مع التقديم له حكمة؛ إذ يكون منظر الإبل عند عودتها أكثر بهاءً وروعة، نظراً لحيويتها ونشاطها بعد تناول الطعام، مقارنة بحالتها وقت الخروج للرعي حين تكون جائعة ومتعبة.

٤-**الحث على أمر ذي أهمية لتجنب التهاون فيه**، كما في قوله تعالى: ﴿**يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ**﴾[١]. في هذه الآية، نلاحظ تقديم ذكر الإناث على الذكور؛ هذا الترتيب يأتي حثًا على الإحسان إلى الإناث وحضًا على رعايتهن، مما يؤكد على أهمية العناية بهن في المجتمع.

٥- **التقديم لإظهار الأسبقية الزمنية أو الترتيب؛** يتجلى هذا الأسلوب في عدة مواضع من القرآن الكريم؛ منها: في قوله تعالى: ﴿**وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾[٢]، حيث قُدم الليل على النهار لأنه يسبقه في الترتيب الزمني للخلق. **ومنها:** قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾[٣]، إذ قُدمت الظلمات على النور إشارةً إلى أسبقيتها في الوجود. **ومنها:** في قوله تعالى: ﴿**صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**﴾[٤]، حيث ذُكرت صحف إبراهيم قبل صحف موسى، مما يشير إلى تقدمها في الزمن.

٦-**التقديم لبيان السبب؛** كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[٥]، قدم "العزيز"؛ لأن العزة سبب للحكمة. وأيضاً قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾[٦]، قدّم "العليم"؛ لأن العلم أساس الحكمة. وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[٧] قدم "التوابين"؛ لأن التوبة تسبق الطهارة. وبهذا الأسلوب يتم إبراز

---

(٢) الشورى: ٤٩.
(٣) البقرة: ١٦٤.
(٤) الأنعام: ١.
(٥) الأعلى: ١٩.
(٦) البقرة: ١٢٩.
(٧) البقرة: ٣٢.
(٨) البقرة:٢٢٢.

العلاقات السببية بين الصفات والأفعال في السياق القرآني.

٧- **التقديم لإبراز عظمة القدرة الإلهية**، كما في قوله تعالى: **﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾**(١). في هذه الآية، نلاحظ تقديم ذكر الجبال على الطير، يُبرز هذا التقديم قوة وعظمة القدرة الإلهية، إذ أن تسخير الجبال للتسبيح أمر أكثر إثارة للدهشة والعجب من تسبيح الطير. كما أن تسخير الجبال - بضخامتها وثباتها - يُعدُّ برهاناً أقوى على القدرة الإلهية المطلقة، مقارنة بتسخير الطيور التي تُعرف بالحركة والتسبيح بطبيعتها. أيضاً هذا الترتيب بالتقديم يلفت انتباه القارئ إلى عظمة المعجزة الممنوحة لداود عليه السلام، مما يزيد من تأثير الآية وقوة رسالتها.

٨- **التقديم لرعاية الفاصلة القرآنية**، كما في قوله تعالى: **﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾**(٢) هنا قُدم "في نفسه" على "موسى" لتتناسب الفاصلة مع الآية السابقة **﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾**(٣) فلو تأخر "في نفسه" لاختل هذا التناسق الصوتي، مما يبرز دقة النظم القرآني في مراعاة الجانبين المعنوي والإيقاعي.

٩- **التقديم لغرض إبراز الأهمية**، وهذا الأسلوب بكثرة في القرآن الكريم، نجد مثالاً على ذلك في قوله تعالى: **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾**(٤)، حيث قُدمت الصلاة على الزكاة لأهميتها العظمى في نظر الله سبحانه وتعالى. كذلك في قوله تعالى: **﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾**(٥)، نلاحظ تقديم الجار والمجرور (بالوالدين) على المفعول المطلق (إحسانا)، هذا التقديم يسلّط الضوء على مكانة الوالدين وأهمية العناية بهما في الإسلام.

---

(٢) الأنبياء: ٧٩.
(٣) طه: ٦٧.
(٤) طه: ٦٦.
(٥) البقرة: ٤٣.
(٦) البقرة: ٨٣.

١٠-**التقديم لبيان الاختصاص**، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١]، أي نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، فهو صاحب الاختصاص بهما لا غيره.

١١- **التقديم بقصد التحذير**، يتجلى هذا الأسلوب البلاغي في القرآن الكريم بشكل دقيق ومؤثر، كما نرى في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾[٢]، في هذه الآية الكريمة، نلاحظ تقديم ذكر النساء على البنين، وهذا الترتيب ليس اعتباطيًا، بل يحمل دلالة عميقة. فقد قُدم ذكر النساء، لأن التعلق بهن وما قد ينتج عنه من فتنة غالبًا ما يكون أشد وأعظم تأثيرًا في نفس الإنسان مقارنة بالتعلق بالأولاد.

---

(٢) الفاتحة: ٥.

(١) آل عمران: ١٤.

ثانيًا: أسلوبُ الذِكْر والحذفِ

الحذف والذكر أيضاً من الأساليب التعبيرية في أداء المعنى في الجملة القرآنية، وهنا قبل أن ندخل في الأمثلة القرآنية لهذا الأسلوب وكشف أسرار هذا الأسلوب، نعرف هذا الأسلوب ونبين المقصود منه.

١-الحذف في اللغة والاصطلاح

الحذف لغة: من الثلاثي (حذف) وهو يدل على قطع الشيء من طرفه، قال في لسان العرب: "حذف الشيء يحذفه حذفاً: قطعه من طرفه"[١] وهو الإسقاط أيضاً، قال في الصحاح: "حذف الشيء: إسقاطه، يقال: حذفت من شعري ومن ذنب الدابة، أي أخذت"[٢].

واصطلاحاً: "إسقاط كلمة، للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام"[٣] أو هو أعم من إسقاط كلمة أو أكثر، بأن يقال في تعريفه أنه: "إسقاط شيء من الكلام؛ لدليل يدل عليه[٤].

فهو إذن ممارسة لغوية تتضمن إزالة عنصر أو أكثر من الكلام مع الحفاظ على المعنى الأساسي. ويُستخدم عندما يكون المحذوف مفهومًا من السياق، مما يجعل ذكره غير ضروري. وهذا الأسلوب يسهم في الإيجاز، وهو فرع مهم من فروع البلاغة.

٢-أنواع إيجاز الحذف

الإيجاز في الاصطلاح: "قصور البلاغة على الحقيقة، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر"[٥] أو هو التعبير عن المعاني الكثيرة بالألفاظ

---

(٢) لسان العرب، ابن منظور، ج٩، ص٣٩.
(٣) الصحاح، الجوهري، ج٤، ص١٣٤١.
(٤) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص٧٦.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري، ص٤٠.
(٦) الصناعتين: الكتابة والشعر، ص١٧٣.

القليلة[١]، وهو قسمان: إيجاز يستند للاقتصار على ألفاظ تؤدي المعنى بأكمل وجه وتجنب الزائد، وإيجاز يستند للحذف، بأن يحذف من الكلام شيئاً اعتماداً على قرينة خاصة كالسياق ونحوه.

والأول يعبر عنه بإيجاز القصر، بأن يتم استخدام عبارات قليلة تحمل معاني عميقة ومتعددة. مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [٢] التي تلخص الحكم وتطبيقه وغايته في كلمات قليلة.

والثاني يعبر عنه في الاصطلاح البلاغي بإيجاز الحذف، وهو كما ذكرنا في بداية الكلام بأن يتم حذف كلمة أو جملة مع وجود قرينة تدل على المحذوف. ومثاله: ﴿واسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [٣] حيث المقصود: "اسأل أهل القرية". ومثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ [٤] أي حرمت ركوب ظهورها، فتركُ الذكرِ أفصحُ من الذكر ذاته، لأنه يشمل كلّ أنواع الانتفاع بظهور تلك الأنعام.

٣-أهمية الحذف وفوائده اللغوية

هناك عدة فوائد متعددة توختها العرب عند استعمالهم الحذف، وهي كثيرة، ومن أبرزها وجوهر باختصار:

١-الحذف بشروطه يستلزم تجنب فضول الكلام والاقتصاد اللغوي بنحو بديع، كلمات قليلة تحمل معانٍ كثيرة، كقطرة ماء تعكس محيطاً.

٢-يسهم في تعظيم المعنى، فالصمت يصبح صوتاً، والغياب حضوراً، فيتعاظم المقصود في النفس.

---

(٢) المصدر السابق، ص١٧٥.
(٣) البقرة: ١٧٩.
(٤) يوسف: ٨٢.
(١) الأنعام: ١٣٨.

٣- يتحقق فيه جمال النص وعمقه، فإنه يضفي على الكلام رونقاً، كظلالٍ تزيّن لوحةً فنية.

٤- يعمل على إثارة الفكر، بسبب الغموض والإبهام الذي يدعو العقل لرحلة تأمل وكشف.

٥-يفرض في بعض الموارد شمولية المعنى، فإن حذف التفاصيل يفتح آفاق التعميم، فيتسع المعنى ليشمل ما لم يُذكر.

وهكذا يصبح الحذف في يد العرب أداة سحرية، تجعل من الكلام فناً، ومن الصمت بلاغة، ومن الغياب حضوراً أقوى. إنه ليس مجرد حذف كلمات، بل إضافة معانٍ لا حصر لها في فراغات النص(١).

٤- فن الحذف في اللغة العربية، تراث وإبداع

كان العرب يتقنون فن الحذف بشكل متميز، فإنه متأصل في الثقافة العربية، ومتغلغلٌ في نسيج لغتهم وأدبهم، منذ العصر الجاهلي وحتى يومنا هذا، وقد ظل الحذف سمة بارزة في التعبير العربي. وقد كانوا يعدون الإيجاز جوهر البلاغة، تعينهم في ذلك استعمالهم قرائن مختلفة لفهم المحذوف، مثل: الشهرة والدلالة اللفظية والعقلية والسياق والمناسبة. فهو فن عربي أصيل، يعكس قدرة اللغة على الإبداع، يمارسه العرب ليجعلوا الصمت أبلغ من الكلام، والغياب أقوى من الحضور.

قال الجرجاني: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فأنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، فالصمت عن الإفادة أزيد للفائدة، وتجدك ألطف ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن"(٢).

(٢) انظر: البلاغة العربية، ابن حبنكة الميداني، ج٢، ص٤٠.
(٣) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص١٤٦.

ويرى بعض العلماء أن الحذف من أفصح كلام العرب، لأن المحذوف كالمنطوق به، من حيث كان الكلام مقتضياً له، لا يكمل معناه إلا به(١).

إذن الحذف والإيجاز من سنن العرب وخصائصهم في اللغة، فما كان قليله يغني عن كثيره، وقد سمي الحذف والقطع شجاعة العربية، لأنه يشجع على الكلام.

لاحظ قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾(٢). فإن جواب الشرط هنا محذوف تقديره: "حصلوا على النعيم الذي وعدهم الله تعالى". وهذا المحذوف وصف من أوصاف ثواب أهل الجنة، فدل بالحذف على أنه شيء لا يحيط به الكلام لوصفه، وهذا من السحر البياني.

٥- معنى أسلوب الذكر والحذف في الأساليب التعبيرية

بعد أن عرفنا الحذف في البلاغة، وأن الذكر هو ما يقابل الحذف، نحاول أن نعرف اصطلاح أسلوب الذكر والحذف، وهو الأسلوب الثاني من الأساليب التعبيرية، ويقصد به: تعاقب الذكر ثم الحذف، أو الحذف ثم الذكر، في عبارتين متشابهتين أو متقاربتين في تشابهما، سواء كان ذلك في كلام واحد متصل أم في كلامينّ منفصلين، فقد يُحذف في أحد العبارتين حرفٌ أو لفظٌ أو أكثر حسبما يقتضيه السياق ثم يذكره في جملة مشابهة أو العكس، وكل ذلك لغرض بلاغي تلحظ فيه غاية الفن والجمال. وسوف نأخذ مثالين على ذلك:

٦- أمثلة على الذكر والحذف في التعبير القرآني

نستعين بذكر مثالين من كتاب التعبير القرآني لمؤلفه الدكتور السامرائي:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً﴾.

وهذه الآية ذُكرت في السَّدِّ الذي صنعه ذو القرنين من قطع الحديد والنحاس

---

(٢) أمالي ابن الشجري، ابن الشجري، ج٢، ص١٢٣.

(١) الزمر: ٣٧.

المُذاب. في قوله على لسان ذي القرنين: ﴿آتُونِي زُبَرَ الحديد حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين قَالَ انفخوا حتى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً. فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً﴾[1].

معنى قوله: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يصعدوا عليه، فحذفت التاء، والأصل: (استطاعوا)، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ بإبقاء التاء.

والسرّ البلاغي في ذلك: أنه لمّا كان صعود السد الذي هو سبيكة من قطع الحديد والنحاس أيسرُ من نَقْبهِ وأخف عملاً، خَفَّفَ الفعل للعمل الخفيف، فحذف التاء، فقال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وطَوَّلَ الفعلَ في حالة نقبه وحفره، فجاء بأطول بناء له، فهو المناسب مع العمل الثقيل الطويل، فقال: ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾ فحذف التاء في الصعود، وجاء بها في النقب.

المثال الثاني: قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2]. وقوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[3]. فحذف نون "تكن" في آية النحل، وأبقاها في آية النمل.

وذلك أن السياق مختلف في السورتين؛ فالآية الأولى نزلت حين مَثَّلَ المشركون بالمسلمين يوم أُحد: "بقروا بطونهم وفعلوا ما فعلوا من فظائع، فوقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حمزة وقد مُثِّلَ به، فقال: "أما والذي أحلف به لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك". فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ. واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللهَ مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ﴾ فَكَفَّرَ عن يمينهِ وكَفَّ عما أراده. فقد أوصاه الله تعالى بالصبر ثم نهاه أن يكون في

---

(٢) الكهف ٩٦-٩٧.

(٣) النحل: ١٢٧.

(٤) النمل: ٧٠.

ضيق من مكرهم فقال له: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: لا يكن في صدرك ضيق مهما قلَّ. فحذف النون من الفعل إشارة إلى ضرورة حذف الضيق من النفس أصلاً[1].

(١) التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ص٧٦-٧٧.

ثالثًا: أسلوب التوكيد وأهدافه

يُعدُّ التوكيد أيضاً من الأساليب التعبيرية المهمة في اللغة العربية، وله دور بارز في تركيب الجملة القرآنية ونظمها، مما يعزز فصاحتها وبلاغتها.

ويستخدم هذا الأسلوب لتحقيق أغراض بلاغية متنوعة، تتناسب مع سياق الجملة وطبيعة المخاطب.

١- التوكيد في اللغة والاصطلاح

والتوكيد لغةً من الثلاثي "وكد" الذي يعني الشد والإحكام والتوثيق[١].

أما اصطلاحاً، فقد عرف بأنه: "**لفظ يتبع الِاسْم الْمُؤَكّد لرفع اللّبْس وَإِزَالَة الاتساع**"[٢]. وكذلك عرّف بأنه: "**تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره**"[٣].

ويطلق عليه "التوكيد" أو "التأكيد"، والأفصح: "التوكيد"، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿**وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾[٤].

ويهدف إلى ترسيخ المعنى في ذهن المتلقي وتقوية مضمون الكلام، ومن فوائده الرئيسية إزالة الشكوك ودحض الشبهات التي قد تعتري السامع.

وبهذا، يتضح أن التوكيد أداة لغوية قوية تسهم في توضيح المعنى وتعميقه، مما يجعله عنصراً أساسياً في البلاغة العربية والإعجاز القرآني.

٢- أهداف التوكيد في اللغة

يلعب التوكيد دوراً هاماً في الكلام عموماً وفي القرآن الكريم خصوصاً. يمكن تلخيص أهدافه الرئيسية كما يلي:

١-تقوية المعنى وترسيخه: فإن التوكيد يعمل على تعزيز المعنى في نفس السامع،

(٢) مقاييس اللغة، ج٦، ص١٣٦. العين، الفراهيدي، ج٥، ص٣٩٥.
(٣) اللمع في العربية، ابن جني، ص٨٤.
(٤) الطراز لأسرار البلاغة، المؤيد العلوي، ج٢، ص٩٤.
(١) النحل: ٩١.

مراعياً حالة المخاطب وظروف الخطاب.

٢-معالجة حالات المخاطب المنكر والمتردد، فيستعمل لمواجهة من ينكر الحقيقة، ويساعد في إزالة الشك لدى المتردد.

٣-زيادة الاهتمام، فيسلط الضوء على أهمية الموضوع المطروح، كما في قوله تعالى: "إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي بجحيم"، حيث استخدم أكثر من مؤكد.

٤-رفع احتمال السهو والنسيان: فيضمن وصول المعنى كاملاً دون نقصان كما في كلّ كلام يتم تأكيده بـ (نفس، وعين).

٥-نفي توهم المجاز، يؤكد المعنى الحقيقي ويمنع فهم الكلام على سبيل المجاز، كما في قوله تعالى: "وكلم الله موسى تكليما"، حيث أكد حقيقة التكليم.

٦-مواجهة الغفلة والإعراض: يستخدم لتنبيه الغافلين وحث المعرضين، كما في قوله تعالى: "ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون"، حيث خاطب الغافلين كأنهم منكرون.

من خلال هذه الأهداف، يتضح أن التوكيد أداة لغوية قوية تسهم في إيصال المعنى بدقة وقوة، مراعية حال المخاطب وسياق الكلام.

٣- أنواع التوكيد وأساليبه اللغوية

هناك أكثر من أسلوب للتوكيد في اللغة العربية، فقد يكون التوكيد من قسم علماء اللغة التوكيد إلى قسمين: توكيد معنوي وتوكيد لفظي بتكرار اللفظ. وهذان القسمان اقتصر عليهما النحاة دون غيرهما، فهما يعبران عن التوكيد الاصطلاحي عندهم.

وهناك أنواع أخرى تفيد التوكيد، مثل: الحرف المشبه بالفعل "إنّ"، والحرف الزائد، والقسم، ونون التوكيد الثقيلة والخفيفة، وغير ذلك كالمفعول المطلق، ولكنها

لا تسمى توكيدًا نحويًا اصطلاحيًا.

ومثال التوكيد المعنوي: ولنستعين بما ذكره صاحب كتاب النحو الوافي: إذا سمعنا من يقول: "وصل أحد العلماء إلى القمر"، خطر في الذهن عدة احتمالات، فقد نتوهم أن المتكلم أراد أن يقول: مثلًا وصل أحد العلماء إلى قرب القمر، أو إلى مدار القمر. أو إلى أسرار القمر، ولهذا حذف المضاف (قرب أو مدار أو أسرار) سهوًا أو خطًا، أو لأن حذفه هنا بهدف المبالغة أو المجاز، وكلاهما أبلغ وأقوى في تأدية المعنى من الحقيقة. هذا بعض ما يخطر بالبال عند سماع تلك العبارة. فلو أنه قال: وصل أحد العلماء إلى القمر نفسه، لزالت – في الأغلب– تلك الاحتمالات وغيرها، ولم يبق مجال لتوهم المبالغة، أو المجاز بالحذف، أو السّهو[1].

وذكروا أن أدوات التوكيد المعنوي هي: سبعة: كلّ وعامة، جميع، كلا، كلتا، نفس، عين، أجمع.

ومثال التوكيد اللفظي: وهو ما يكون بإعادة الألفاظ ذاتها أو بما يرادفها، مثل: "أقبل محمد محمد"، "أقبل أقبل محمد"، وفي القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿**كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا**﴾[2]، هذا باللفظ، وقد يكون توكيداً بالجملة: ﴿**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾[3].

٤- أساليب التوكيد في القرآن الكريم

نتنوع أساليب التوكيد في القرآن بحسب المقام، فتارة تكون بالتكرار اللفظي، وأخرى بالمعنوي، وثالثة بغيرهما من أدوات وحروف التّوكيد: إنّ، وأنّ، ولام الابتداء، ونون التّوكيد الخفيفة، ونون التّوكيد الثقيلة، واللّام التي تقع في جواب

---

(٢) النحو الوافي، عباس حسن، ج٣، ص٥٠١.
(٣) الفجر: ٢١.
(١) التكاثر: ٣-٤.

القسم، والحرف "قد" والمفعول المطلق. والأمثلة القرآنية في ذلك كثيرة جداً تغني عن الاستشهاد، ومع هذا سنذكر بعضاً منها للضرورة.

وجدير بالذكر هنا: أننا نقصد من التوكيد لا بذاته، بل **التوكيد الذي يعرض على جملة لكنه لم يعرض على أخرى مشابه لها أو ذاتها.**

وحيث إن التوكيد القرآني كله وحدة متكاملة منظور إليه نظرة شاملة قد روعيت في ذلك جميع مواطنه، فنجد أن القرآن يؤكد في مورد لسبب اقتضى التوكيد، ولم يؤكد في مورد آخر يبدو شبيهاً به لانعدام موجبه، وترى أنه في مورد قد أكد بمؤكدين، وأكد في مورد آخر يبدو شبيهاً به بمؤكد واحد لسبب دعا إلى استعمال كلّ تعبير في مورده المناسب له.

٥- معنى أسلوب التوكيد في الأساليب التعبيرية

فالمقصود من الأسلوب الثالث - أسلوب التوكيد في القرآن- لا التوكيد ذاته، بل المقصود تنوعه، وثبوته في مورد وانعدامه في مورد آخر في القرآن؛ مراعاة لمقتضى الحال، وقد قلنا سابقاً أن النظم في جوهره وحقيقته هو استعمال الألفاظ بحسب مقتضى الحال، وفسرنا مقتضى الحال، وكونه متعلقاً بحال المتكلم وحال السامع وشروط أخرى تتعلق بالزمان والمكان وغير ذلك.

فنجد في موردٍ أن القرآن تجنب التوكيد؛ بسبب أن السامع كان خالي الذهن عما أريد إخباره به، فلا يصح التوكيد، كما في قوله تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (١)، وغير ذلك من الجمل الخبرية المشابهة، بينما في مورد آخر نجد أنه قد أثبت التوكيد؛ لأن السامع كان منكراً أو متردداً. وفي مورد ثالث قد يستعمل التوكيد مع خالي الذهن لمقتضٍ خاص فينزله منزلة المنكر أو المتردد.

---

(١) الكهف: ٤٦.

وكذلك نجد الدقة البالغة في اختيار أدوات وأسلوب التوكيد، فيؤكد تارة بالنون المخففة مثلاً، وفي مورد ثان بالنون الثقيلة، وثالث بإنَّ المشددة، وفي مورد رابع بإن المخففة، ويستبدل حرفاً بحرف، كلّ ذلك بحسب منظور فني متكامل في كلّ القرآن الكريم، فهو يراعي دقة اختيار الألفاظ، ليس فقط في سياقها المباشر، بل في جميع مواضعها، فيغدو النص كلوحة فنية متناسقة، تتكامل فيها التعبيرات بإتقان فريد، وقد تجلى أسلوب التوكيد في القرآن كلوحة إعجاز فريدة، تذهل الفنانين بروعتها، وتقرّ الألباب بعجزها عن محاكاة جمالها أو سبر أغوارها.

ودعونا نستعرض بعض الأمثلة، في كلّ مثال نذكر آيتين أو أكثر متشابهتين أو متقاربتين، أحداهما ثبت فيها التوكيد بينما خلت الثانية منه أو العكس:

المثال الأول: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾[1]. وقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿**وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾[2].

في الآية الأولى لم يذكر التوكيد لـ "الدين"، بينما في الثانية أكّد "الدين" بلفظ "كلّ"؛ وذلك لأن القتال في الأولى كان مع أهل مكة فحسب، أما في الأنفال فكان مع جميع الكفار ولذا أكد ليتحقق الشمول والعموم.

المثال الثاني: قوله تعالى في سورة النحل: ﴿**فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين**﴾[3].

وقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿**قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**﴾[4].

وقوله تعالى في سورة غافر: ﴿**ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى**

(٢) البقرة: ١٩٣.
(٣) الأنفال: ٣٩.
(٤) النحل: ٢٩.
(٥) الزمر: ٧٢.

الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [١]

نلاحظ عندما نقارن بين هذه الآيات الثلاث، أن القرآن قد أدخل لام التوكيد في آية سورة النحل على لفظة "بئس" فقال: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ دون الآيتين الأخريين، إذ قال فيهما: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وذلك، لأنه في سورة النحل وصف قوماً أشد كفراً وأكبر جرماً من المذكورين في آيتي الزمر وغافر، وذلك أنهم ضلوا وأضلوا غيرهم، وحملوا من أوزار الذين يضلونهم، مضافاً لأوزار أنفسهم، فزاد عذابهم، فناسب ذلك زيادة اللام لتوكيد العذاب لهم، بخلاف المذكورين في الآيتين الأخريين، فإنه لم يصفهم بمثل هذا الوصف[٢].

---

(٢) غافر: ٧٦.
(١) انظر: التعبير القرآني، السامرائي، ص١٢٦.

رابعاً: أسلوب التعريف والتنكير

تعد ظاهرة التعريف والتنكير من الأساليب اللغوية المميزة في اللغة العربية، حيث تسهم في صياغة الجمل وتنظيمها، وتعزز فصاحتها وبلاغتها. وقد أولى علماء البلاغة اهتماماً خاصاً بالجوانب الوظيفية والدلالية لهذه الظاهرة، فقاموا بتصنيف أنواع المعرفة وتوضيح أغراضها، كما بينوا أهداف استخدام النكرات ووظائفها.

ويمكن القول إن التعريف والتنكير كريشةٍ فنان ترسم على لوحة النص ظلالاً من الجمال، تختلف ألوانها باختلاف السياق ونبض الكلمات.

ولهذا فإن موضوع التعريف والتنكير من المباحث الهامة التي نالت قسطاً وافراً من الدراسة والبحث في علم البلاغة. وهذا الاهتمام بهدف استكشاف القيمة الجمالية التي تضفيها الكلمة على النص، سواء كانت معرفة أم نكرة؛ وذلك وفقاً للسياق والنظم. كما يسعى الباحثون إلى الكشف عن الأسرار البلاغية الكامنة وراء استخدام كلٍّ منهما في التعبير اللغوي، فإن بين دفتي المعرفة والنكرة، تكمن أسرار بلاغية تفوح عطراً كلما تصفحها الباحثون بعيون الفهم والتدبر.

١- النكرة والمعرفة في اللغة والاصطلاح

النكرة في اللغة خلاف المعرفة، وأنكره واستنكره وتناكره: جهله[١]. والمعرفة في اللغة: السكون والاطمئنان الحاصل في القلب، تقول: هذا أمر معروف، أي تسكن له النفس وتطمئن؛ لأن من أنكر شيئاً توحّش منه وابتعد عنه[٢] والعرفان: العلم[٣].

أما النكرة والمعرفة في اصطلاح النحويين، فإن الأولى: ما لم يخصّ الواحد من جنسه؛ نحو "رجل، وفرس، ودار" وما أشبه ذلك. والمعرفة: "ما خص الواحد من

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٥، ص٤٧٦. القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٤٨٧.
(٣) مقاييس اللغة، ج٤، ص٢٨١.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ج٩، ص٢٣٦.

جنسه[١]. وهناك تعريف آخر للنكرة والمعرفة، أن النكرة: "ما كان شائعًا في جنسه كـ"حيوان"، أو في نوعه كـ"إنسان". وما ليس شائعًا فهو معرفة"[٢].

ويرى الرضي أن المعرفة: جعل الذات مشاراً بها إلى خارجٍ إشارةً وضعيةً، والتنكير ألا يشار بها إلى خارج في الوضع[٣].

فالنكرة عندهم الاسم المبهم الذي لا يشير في الخارج إلى أفراد خاصة، بل له صلاحية الانطباق على جميع أفراده، وهذا هو معنى الشيوع، وهذا الشيوع الناتج من عدم الإشارة هو بسبب الوضع، أي أن الواضع عندما تصور لفظ النكرة وتصور المعنى الذي وضعه لهذا اللفظ لم يجعل هناك ذاتاً مشيراً إليها في الاسم، فلفظ: "حيوان" عندما تصوره الواضع وأراد أن يضعه لمعنى الحيوان وهو الكائن الحي الحساس، لم يلحظ في هذا الاسم أي ذات خارجية؛ ولهذا فإن مفهوم حيوان يصلح أن ينطبق على كلّ الأفراد التي لها حقيقة الحيوان في الخارج؛ ولا يختص بفرد معين من الحيوانات.

وأما المعرفة فهي الاسم الذي تصوره الواضع ووضعه لمعنى وقصد وأشار في هذا المعنى إلى ذات خارجية، أي أنها ذاتٌ مشخّصةٌ في الخارج، هذا التشخيص الخارجي يجعلها تمتنع أن تنطبق على أفراد كثيرة، فهي تفتقد عنصر الشيوع؛ بسبب هذا التشخّص والتعنون الخارجي[٤]، فلو تصور الأب اسماً في ذهنه وأراد أن يضعه لمولوده الجديد، فهو قد أشار إلى ذات خارجية مشخصة، وهذا الاسم يمتنع انطباقه على غير الولد المسمى به.

---

(٢) أسرار العربية، الأنباري، ص٢٤١.
(٣) شرح الكافية الشافية، ابن مالك، ج١، ص٢٢٢.
(٤) شرح الرضي على الكافية، محمد بن الحسن الرضي، ج٢، ص٧.
(١) التشخص: بمعنى أن كلّ وجود في الخارج، فهو له زمانه الخاص ومكانه الخاص، ولا يمكن أن ينفك عنه ذلك، وهذا هو معنى التشخص الخارجي والتعنون، أي: له عنوان يشار له في الخارج.

والمعرفة سبعة أنواع: العلم والضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والمعرف بـ أل والمعرف بالإضافة، والمعرف بالنداء.

٢- أهداف التنكير والتعريف في اللغة العربية

أما التنكير فإنه في اللغة العربية له أغراض بلاغية متعددة، تضفي على النص جمالاً وعمقاً في المعنى. دعونا نستعرض أبرز هذه الأغراض مع أمثلة توضيحية من القرآن الكريم:

١. الإشارة إلى الفرد الواحد: كقوله تعالى: ﴿**لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ**﴾[١] حيث تشير كلمة "رسول" إلى فرد واحد.

٢. التعميم: كما في قوله تعالى: ﴿**فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً**﴾[٢] أي: في شيء من أمورهم.

٣- الدلالة على الجنس: مثل قوله تعالى: ﴿**لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾[٣] إذ تنفي أي نوع من الريب.

٤- التعظيم: كما في قوله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ**﴾[٤] حيث تعظم النكرة شأن ذلك اليوم.

٥- التهويل: نحو قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا**﴾[٥] مما يثير الخوف من هول ذلك اليوم.

٦- التكثير: كقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ**﴾[٦] أي كثيرًا غير

---

(٢) البقرة: ١٠١.
(٣) يس: ٥٠.
(٤) البقرة: ٠٢.
(٥) هود: ١٠٣.
(٦) البقرة: ٤٨.
(٧) القلم: ٠٣.

منقطع، ونحو قولنا: "هو عنده مال" أي كثير.

٧- التقليل: مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [١] حيث تقلل النكرة من شأن الظلم.

٨- التخصيص: كما في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ [٢] إذ يقصد وجوهاً معينة.

٩- التحقير: نحو قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ [٣] مشيراً إلى حياة حقيرة.

١٠- التجاهل والاستهزاء: كقوله تعالى: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [٤] حيث يتجاهلون معرفتهم بالرسول استهزاءً.

٣-أغراض التعريف في اللغة العربية

أغراض استعمال المعرفة والتعريف في الكلام عديدة، تتنوع وفقاً للمعارف السبعة التي تكلمنا عنها سابقاً:

١- فالعَلَمُ مثلاً تكون فائدته أحياناً هي الإحضار الذهني؛ لأن الاسم العلم يستعمله المتكلم لإحضار الشيء المعرّف بعينه ويلقيه في ذهن السامع.

٢- وبالعلم أيضاً يتحقق التعظيم أو الإهانة: ومثال التعظيم: ذكر يعقوب بلقبه "إسرائيل" لما في هذا اللقب من معنى المدح. ومثال الإهانة: قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [٥].

٣- وبأسماء الإشارة أسماء يحصل تمييز المعرف بشكل كامل؛ وذلك بإحضاره

---

(٢) يونس: ٤٤.
(٣) النساء: ٤٧.
(٤) البقرة: ٩٦.
(٥) سبأ: ٧.
(٦) المسد: ١.

في ذهن السامع بشكل محسوس، كما في قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[١].

٤- وبأسماء الإشارة أيضاً التحقير تارة والتعظيم تارة أخرى، ومثال التحقير: قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[٢] ومثال التعظيم، بالإشارة للبعيد كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٣]، إشارة إلى علو مكانته.

٥- وبالاسم الموصول يتحقق الستر أو الإهانة، فإن استعماله بدلاً عن ذكر الاسم الصريح إما حماية أو إهانة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾[٤]، أو قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾[٥].

٦- بالاسم الموصول يتحقق إرادة العموم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[٦].

٧- باللام يتحقق تعيين واحد من أفراد الجنس، كقولك: "أقبل الرجل" و "اشتريت الكتاب" أي الرجل والكتاب الذي كان في ذهن المخاطب، فيما لو كان المخاطب يعرف الرجل والكتاب. وكذلك باللام يتحقق استغرق كلّ أفراد الجنس، مثل قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾[٧]. وغير ذلك من الأهداف للّام[٨].

هذه بعض الأغراض التي تمثل بعض دواعي استخدام التعريف في اللغة العربية، وهناك دواع أخرى تحقق أغراضاً مختلفة لم نذكرها مراعاة للاختصار.

---

(٢) لقمان: ١١.
(٣) الأنعام: ٣٢.
(٤) البقرة: ٢.
(٥) الأحقاف: ١٧.
(٦) يوسف: ٢٣.
(٧) فصلت: ٣٠.
(٨) النساء: ٢٨.
(١) انظر: معاني النحو، فاضل السامرائي، ج١، ص١٠٨-١٠٩.

٤- معنى أسلوب التعريف والتنكير في الأساليب التعبيرية

المقصود في الأسلوب الرابع كما ذكرنا في سائر الأساليب المتقدمة، ليس هو التعريف والتنكير كلاً بنظرة مستقلة، بل المقصود هنا مجيء لفظ معرفةً في موضع ونكرةً في موضع آخر، فيقال إن ذلك لم يكن صدفةً في القرآن، إنما هو مقصود في كلّ موضع، وجيء به على تلك الحالة لينسجم السياق مع الذي ورد فيه، ويتناسق معه، وإن تدبر هذا السياق في الآية يقود إلى معرفة الحكمة من ذلك، والكشف عن سر اختيار اللفظ معرفةً أو نكرةً.

وهذا الاختلاف في التعريف والتنكير أيضاً مما تميز به التعبير القرآني وأبدع الله تعالى فيه، ويعدُّ من عجائب النظم في الجملة القرآنية.

٥- أمثلة قرآنية على الأسلوب الرابع

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾[١].

كلمة "حياة" وردت نكرة في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وفي هذه الآية من سورة البقرة، وردت فيها نكرة، للدلالة على تحقير الحياة الدنيا؛ لأن الكلام فيها عن اليهود وذمهم وتوبيخهم؛ لحرصهم على الحياة الدنيا، واليهودي يتمنى لو يطول عمره؛ بسبب حرصه على عليها.

وجاء تنكيرها في آية ثانية للدلالة على التكريم والتشريف في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢]؛ لأن السياق في الثناء على المؤمن الصالح، وفي وعد إلهي متحقق بأن يجعله يعيش في الدنيا "حياة طيبة". ومما يدل على تشريف هذه الحياة، وصفها بأنها "طيبة"؛ لأن صاحبها يحياها ويعيشها في طاعة الله تعالى.

---

(٢) البقرة: ٩٦.
(٣) النحل:٩٧.

وفي موضع ثالث جاء تنكير "حياة" للتعظيم، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١] فيخبر الله تعالى المؤمنين أنهم عندما يقتصون من القاتل المتعمد الذي يقتل المسلم بغير حق، فإنهم بذلك يحققون حياة عظيمة لهم، قائمة على المودة والسلام.

ووردت لفظة حياة معرفةً مع توصيفها بأنها "الحياة الدنيا" وحصرها بأنها قائمة على اللهو واللعب في قوله تعالى: ﴿ومَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٢] فالتعريف هنا غرضه التخصيص، لأنها محصورة باللهو واللعب، ولهذا ناسب تعريفها.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾[٤] فَعرَّفَ لفظة "الحق" في الآية الأولى، ونكَّرهُ في الثانية، وذلك لأنّ لفظة "الحق" المعرّفة في آية البقرة تدل على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل، وهذا الحق الذي يدعو إلى القتل معروف معلوم عندهم، فناسب تعريفه.

وأما النكرة فمعناها أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً، لا حَقَّ يدعو إلى قتل، ولا غيره، أي: ليس هناك وجه من وجوه الحق الذي يدعو إلى إيذاء الأنبياء، فضلاً عن قتلهم، فكلمة "حق" هاهنا نكرة عامة، وكلمة "الحق" معرّفة معلومة.

والقصد من التنكير الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلهم أكثر مما في التعريف، وذلك لأن التنكير معناه أنهم قتلوا الأنبياء بغير سبب أصلاً، لا سبب يدعو إلى القتل ولا غيره. فمقام التشنيع والذم هاهنا أكبر، فجاء بالتنكير في مقام الزيادة في

---

(٢) البقرة:١٧٩.
(٣) العنكبوت:٦٤.
(٤) البقرة: ٦١.
(٥) آل عمران: ١١٢.

ذمهم.

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿... فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظالمين﴾[(١)] وردت لفظة "قوم" معرفة باللام. وقوله: ﴿... فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)] وردت لفظة "قوم" نكرة؛ وذلك لأن الآية الأولى وردت في سياق قوم معينين، وهم قوم صالح؛ ولهذا ناسب تعريف القوم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة بالحق...﴾[(٣)]. وأما الثانية فلم تكن في قوم معينين، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ﴾[(٤)] وقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كلّ مَا جاء أُمَّةً رَّسُولُهَا﴾[(٥)]، فناسب أن يخصهم بالتنكير[(٦)].

(٢) المؤمنون: ٤١.
(٣) المؤمنون: ٤٤.
(٤) المؤمنون: ٤١.
(٥) المؤمنون: ٤٢.
(٦) المؤمنون: ٤٤.
(١) انظر: التعبير القرآني، السامرائي، ص١٨٨ وما بعدها.

خامساً: أسلوب التشابه والاختلاف

نواصل دراستنا للإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وهو أحد أوجه إعجاز القرآن. الإعجاز البلاغي يتكون من ثلاثة عناصر رئيسية: الفصاحة، والبلاغة، والنظم.

حتى الآن، تناولنا أربعة أساليب تعبيرية قرآنية تجلى فيها هذا الإعجاز. الآن، نحن بصدد دراسة الأسلوب الخامس، وهو أسلوب التشابه والاختلاف. هذا الأسلوب يرتبط أيضاً بتركيب الجملة القرآنية ودلالاتها، ويبرز خصائص مثل الانتظام، والدقة الفريدة، الانسجام في النص القرآني.

هذا الأسلوب هو الأخير ضمن دراستنا للإعجاز البلاغي، بعد الانتهاء من هذا الموضوع، سننتقل إلى دراسة نوع آخر من أنواع الإعجاز القرآني.

١- معنى التشابه والاختلاف في الأساليب التعبيرية

ليس المقصود من التشابه هنا هو التشابه الذي في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾[1]، فإنّ مضمون هذه الآية أن في القرآن "المحكم" هو الكلام البيّن الواضح الذي لا يلتبس أمره، وهذا هو الغالب في القرآن، وهو أمّ الكتاب وأصله، وفي القرآن أيضاً "المتشابه" وهو الذي يشتبه أمره على بعض الناس دون بعض، فيعلمه العلماء ويجهله غيرهم، وبعض المتشابه لا يعلمه إلا الله تعالى. فالمتشابه هنا يعني المتماثل الذي يجعل السامع في مشكلة نتيجة التشابه، فلا يفهم المراد منه.

أما المقصود هنا من التشابه هو التماثل في التعبير القرآني، فقد ترد في القرآن الكريم آيات متقاربة ومتشابهة في تعبيرها اللغوي من دون تطابق تام، بمعنى أن هناك اختلافاً يسيراً فيها، وعند التأمل فيها، وملاحظة مواضع الشبه والاختلاف، وتأمل السياق الذي تأتي فيه كلّ آية، والربط بآيات أخرى من موارد أخرى، يمكن معرفة الفروق الدقيقة، والتعرف على بعض أسرار هذا التعبير القرآني.

---

(١) آل عمران: ٧.

وهذا الأسلوب متكون من لفظتين: "التشابه والاختلاف" وكما ذكرنا في الأساليب الماضية، نقول هنا أننا لا نبحث هنا التشابه في القرآن، ولا نبحث أيضاً الاختلاف فيه بنحو مستقل ومنفرد، بل المقصود هو التشابه والاختلاف معاً، بأن تكون هناك عبارة قرآنية واحدة، جاءت بصياغتين متقاربتين، مع اختلاف في كلمة أو جملة، فالتشابه في العبارة والاختلاف في الكلمة، فإن في القرآن الكريم آيات وتعبيراتٍ تتشابه مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلا في موارد ضئيلة، كأن يكن الاختلاف في حرف أو كلمة أو نحو ذلك.

هذا التشابه والاختلاف الدقيق ليس عشوائيًا، بل مقصود في كلّ جزئية، ويعكس أعلى مستويات الفن والبلاغة والإعجاز.

وكلما تعمقنا في دراسة هذه الظاهرة، ازداد إعجابنا وانكشفت لنا أسرار خفية ومدهشة في النص القرآني. هذا الأسلوب يدعونا للتأمل العميق في دقائق التعبير القرآني وإدراك حكمته البالغة.

٢- أمثلة قرآنية على التشابه والاختلاف

المثال الأول: لفظ (مكة) و (بكة)، جاء في سورة آل عمران، في قوله تعالى: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾**[١] هنا في هذه الآية استعمل القرآن اللفظ (بكة) بالباء. بينما نجد أن الكلمة نفسها اختلفت في سورة الفتح في قوله تعالى: **﴿وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾**[٢]، فاستعمل لفظ (مكة) بالميم وهو الاسم المشهور لأم القرى.

ويمكن التكهن أن السرُّ في ذلك هو أن لفظة "بكة" في سورة آل عمران جاءت

(٢) آل عمران: ٩٦-٩٧.
(٣) الفتح: ٢٤.

ضمن سياق الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾[1] فجاء بالاسم (بكة) من لفظ (البَكِّ) الدال على الزحام، لأنه في الحج يبكّ الناسُ بعضهم بعضاً، أي: يزحم بعضهم بعضاً، وسميت (بكة) لأنهم يزدحمون فيها.

بينما في آية سورة الفتح لم يكن السياق كذلك؛ ولهذا استعمل الاسم المشهور لها: (مكة) بالميم، فوضع كلّ لفظ في السياق الذي يقتضيه.

المثال الثاني: قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾[2] وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[3].

نجد أن القرآن قد استعمل في آية النساء عبارة: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْراً﴾ بينما اختلفت العبارة المشابهة لها في سورة الأحزاب، قال: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْئاً﴾.

والسرُّ في ذلك هو أن في سورة النساء قد وردت العبارة بعد قوله تعالى: ﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ...﴾[4] فذكر أنّ الله لا يحب الجهر بالسوء، ولذا قال بعدها: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْراً﴾ أي: إن تُظهروا خيراً، وهو عكس الجهر بالسوء؛ فالله سبحانه لا يحب السوء ولا الجهر به، بخلاف الجهر بالخير.

وأما في آية الأحزاب فالسياق يتعلق بعلم الله بالأشياء الخافية والظاهرة، فقد قال قبلها: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ...﴾[5] وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾[6] وختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[7]. فيكون معنى

---

(٢) آل عمران: ٩٧.
(٣) النساء: ١٤٩.
(٤) الأحزاب: ٥٤.
(٥) النساء: ١٤٨.
(٦) الأحزاب: ٥١.
(٧) الأحزاب: ٥٢.
(٨) الأحزاب: ٥٤.

الآية إنه يستوي عنده السر والجهر، فناسبَ أن يقول: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أو تُخْفُوهُ﴾ لا أن يقول: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْراً﴾، مضافاً إلى أن كلمة (شيء) جاءت بعد الآية وقبلها، فناسب ذكرها أيضاً ليكون الكلام متسقاً من ناحية اللفظ والمعنى.

المثال الثالث: قوله تعالى في آية من سورة البقرة: ﴿واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ والفتنة أَشَدُّ مِنَ القتل﴾[1] وقوله تعالى في آية أخرى من السورة نفسها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ الله وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد الحرام وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ الله والفتنة أَكْبَرُ مِنَ القتل﴾[2]، فقد قال في الآية الأولى: (أشد) وفي الآية الثانية: (أكبر).

والسرُّ في ذلك أن الكلام في الآية الثانية ورد في سياق ذكر أمور كبيرة، فقد ذكر في هذه الآية: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ وكذلك قوله: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ الله﴾ فناسب ذكر كلمة (أكبر) فيها.

بينما لم يكن السياق كذلك في الآية الأولى، بل وردت في سياق التشديد على الكافرين، فقد قال فيها: ﴿واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ والفتنة أَشَدُّ مِنَ القتل﴾. وهذه شدة ظاهرة، فناسب ذكر (أشد) فيها بخلاف الآية الثانية.

المثال الرابع: قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً﴾[3]. وقوله تعالى في آية أخرى من سورة الفتح: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً﴾[4] فقد قال في الآية الأولى: ﴿وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً﴾ وقال في الآية الثانية: ﴿عَزِيزاً حَكِيماً﴾.

---

(٢) البقرة: ١٩١.
(٣) البقرة: ٢١٧.
(٤) الفتح: ٤.
(٥) الفتح: ٧.

وسبب ذلك أن الكلام الأول متصل بإنزال السكينة وازدياد المؤمنين إيماناً، فقد قال قبلها: ﴿هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين ليزدادوا إيمانا مَّعَ إيمانهم وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض...﴾[1] فهذا موضع عِلْمٍ وحكمةٍ، فقال: ﴿عَلِيماً حَكِيماً﴾. وأما الآية الثانية فهي في موضع عذاب وعقوبات، فقد وردت بعد قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظآنين بالله ظَنَّ السوء عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً * وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض..﴾[2] فهذا موضع عِزَّةٍ وغَلَبة وحكم، فقال: ﴿عَزِيزاً حَكِيماً﴾[3].

---

(٢) الفتح: ٤.
(٣) الفتح: ٦.
(١) انظر: التعبير القرآني، السامرائي، ص١٧٣ وما بعدها.

الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم

يُعدُّ الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم من أبرز وجوه إعجازه بعد الإعجاز البياني، حيث يكشف عن حقائق مستقبلية وأحداث غائبة بدقة متناهية. وهذا النوع من الإعجاز يثبت الطبيعة الإلهية للقرآن، إذ يتجاوز حدود المعرفة البشرية ويقدم براهين قاطعة على صدق الرسالة المحمدية. ومن خلال إخباره عن الغيب، يتحدى القرآن العقول ويدعوها للتفكر والتدبر، مما يعزز الإيمان ويرسخ اليقين في نفوس المؤمنين، ويقدم حجة دامغة للمترددين والمشككين. ولنبحث أولاً في مفهومه اللغوي والاصطلاحي.

أولاً: مفهوم الإعجاز الغيبي

الغيب في اللغة من الثلاثي (غيب) والغين والياء والباء أصل صحيح يدل على تستر الشيء عن العيون، من ذلك الغيب: ما غاب، مما لا يعلمه إلا الله[1].

والإعجاز الغيبي في اللغة هو المرتبط بما خفي عن الناس.

أما الإعجاز الغيبي في الاصطلاح: فهو بشكل عام الإعجاز الذي يكون موضوعه أنباء الغيب وأخباره التي أوردها القرآن. فقد أخبر بأمور مثلاً تقع في المستقبل، فجاءت كما أخبر، لم تتخلف أو تتغير، كما في قوله تعالى: **﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾**[2] وقوله تعالى: **﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾**[3].

ويمكن لنا صياغة تعريف له، بناءً على الفهم العام للإعجاز الغيبي في القرآن كما يتم تداوله في الأدبيات الإسلامية والدراسات القرآنية بأنه: "**الإعجاز الذي يشير إلى الأخبار والمعلومات التي وردت في القرآن الكريم عن أمور غيبية لم تكن معروفة**

---

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٤، ص٤٠٣.

(٣) القمر: ٤٥.

(١) الروم: ٢-٣.

في زمن نزول القرآن، والتي تحققت لاحقاً أو ثبتت صحتها بعد ذلك". هذا التعريف هو تلخيص لما يُفهم عموماً عن هذا المفهوم في الفكر الإسلامي.

وهناك تعريف آخر للإعجاز الغيبي ذكره بعض العلماء مقارب لما ذكرنا بأنه: "**ما كان غائباً عن النبي محمد، ولم يشهد حوادث الواقعة، ولم يحضر وقتها، ولم يكن على علم بتفصيلاتها**"(١). فيدخل في الغيب بهذا المفهوم كلّ ما ورد في القرآن الكريم عن بداية نشأة الكون وما وقع منذ خلق آدم عليه السلام إلى مبعث رسول الله، وكذلك يشمل ما غاب عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم في وقته من الحوادث التي كانت تحدث ويخبر بها بطريق الوحي، كإخبار الله سبحانه وتعالى له بما يكيده اليهود والمنافقون، ويشمل أيضاً ما تضمنه من الإخبار عن الكائنات في مستقبل الزمان. ويعد المسلمون هذا النوع من الإعجاز دليلاً على أن القرآن كلام الله، إذ لا يمكن لبشر في ذلك الزمان أن يعلم هذه الأمور الغيبية من دون وحي إلهي.

ثانياً: الفرق بين الإعجاز البياني والإعجاز الغيبي

تكلمنا سابقاً عن أقوال بعض العلماء الذين ذكروا بأن القرآن له عدة وجوه إعجازية، وقد تباينت أقوالهم في تحديد وجوه الإعجاز في القرآن الكريم؛ فمنهم من أوصلها إلى عشرة وجوه، وربما تتداخل فيما بينها.

وذكرنا أن بعضاً منهم من جعل وجوه الإعجاز وجهاً واحداً، وهو إعجاز الصرفة، أو الإعجاز البياني ودافع عنه ولم يقبل سواه.

وقد تكلمنا سابقاً أيضاً وذكرنا في الإعجاز البياني أنه يكون في النظم والفصاحة والبلاغة، وهذا الإعجاز وصف للأسلوب القرآني وسمة له؛ فهو -أي الإعجاز- يتمثل في التصوير الفني، والصياغة للحروف، وفي تركيب الجمل والعبارات، وهذا هو الذي

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، ص٢٥٩.

تحدى به القرآن أن يأتوا بمثله.

وفي مسألة الوجوه الأخرى للإعجاز، كالإعجاز الغيبي وإخبار بالمغيبات، والإعجاز التشريعي والعلمي ونحو ذلك، هناك رأي يرى أن هذه المجموعة من الإعجازات ليس على الحقيقة، بل هي نحو إعجاز بنحو المجاز؛ لأن موضوع هذه الأنواع من الإعجاز هو المضمون القرآني، بينما الإعجاز البياني موضوعه الأسلوب كما ذكرنا، فهو في الحقيقة انتقال من الأسلوب إلى المضمون، ومن الصورة والشكل إلى المحتوى.

ولهذا فإن وجه الإعجاز حقيقة هو فقط الإعجاز البياني، أما بقية الوجوه، فهي أدلة لمصدر القرآن وأنه وحي من الله تعالى من دون شك، وليست وجوها للإعجاز في حقيقتها؛ والسبب هو أنها لم تقع موضوعاً للتحدي، وإذا كان هناك إصرارٌ على تسميتها بالإعجاز، فهذا إعجاز على نحو المجاز[1].

وهناك رأي آخر يتعلق بهذه الوجوه نراه صحيحاً، وهو أن هذه الوجوه يمكن أن تتصف بالإعجاز، على نحو الحقيقة، وإن كانت لم تقع موضوعاً للتحدي الكبير، فهناك مستويات من التحدي، التحدي الأعظم هو أن يأتوا مثل سورة من القرآن، وهناك مستويات أخرى من التحدي أقل من المستوى الأكبر، مستوى يتحدى الله تعالى فيه الناس أن يتمكنوا بالإتيان بمثل هذه الوجوه المتفرقة في القرآن. نعم هذه الوجوه ليست هي المعجزة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهناك فرق بين المعجزة والإعجاز، وتوضيح ذلك في مجموعة من النقاط:

أولاً: مصطلح الإعجاز كما قلنا في محاضرات سابقة لم يكن موجوداً في زمن النص وفي حياة الصحابة وما بعدهم، وقد ظهر هذا المصطلح في القرن الثالث، ولعل أول من ألف كتاباً مستقلاً تحت هذا العنوان هو أبو عبد الله محمد بن يزيد

(١) انظر: البيان في إعجاز القرآن، صلاح الخالدي، ص٢٢٧ وما بعدها.

الواسطي المتوفى سنة (٣٠٦هـ)، وسماه "إعجاز القرآن البياني". فلا توجد ضابطة قرآنية مثلاً حتى نستطيع أن نضبط بها المصطلح، متى يقال إعجاز على نحو الحقيقة ومتى يقال على نحو المجاز. فلا بد أن نعتمد في ذلك على اللغة واصطلاح العلماء.

ثانياً: ذكرنا في محاضرات سابقة أن المعجزة في اللغة هي اسم فاعل مشتق أيضاً من الفعل الرباعي "أعجز"، فهناك فعل ثلاثي "عجز" وهناك فعل رباعي "أعجز"، والأول نشتق منه عاجز على وزن فاعل، واسم الفاعل من أعجز هو "مُعْجِز" بكسر الجيم، واسم المفعول "مُعْجَز" بفتح الجيم، ومؤنثه مُعجِزة. مثل مؤمن ومؤمنة. مشكل ومشكلة. والفرق بين اسم الفاعل "عاجز" و "معجز" أن الأول يستعمل للضعيف، والثاني يستعمل للقوي.

أما المعجزة اصطلاحاً فهي: "كلّ أمر خارق للعادة، إذا قرن بالتحدي، وسلم عن المعارضة، يظهره الله على يد أنبيائه؛ ليكون دليلاً على صدق رسالتهم".

إذن من شرائط المعجزة الاصطلاحية أن تكون مقرونة بالتحدي، وهذا التحدي ينبغي إلا يكون متقدماً على الدعوى، بل مقارنا لها؛ لأن التصديق قبل الدعوى لا يعقل، فلو قال: معجزتي ما قد ظهر على يدي قبلُ، لم يدل على صدقه ويطالب به بعدُ، فلو عجز كان كاذباً قطعاً. والمشهور أن الخوارق المتقدمة على دعوى النبوة كرامات وممهدات للنبوة.

ثالثاً: قد تكلمنا سابقاً أيضاً وقلنا: إن الإعجاز أعم من المعجزة، فالأعجاز تارة يكون بمعجزة مثل معجزة القرآن التي اشتملت على التحدي، وسلمت من المعارضة، ولم ولن يستطيع أحد أن يأتي بمثلها لا في وقت نزول القرآن ولا بعده.

وتارة يكون الإعجاز بأمر خارق للعادة في خصوص وقت ادعاء النبوة، كما في الإعجاز العلمي، فهو إخبار عن حقائق علمية أو كونية وقت النبوة، ووجه الإعجاز في ذلك أن الناس آنذاك غير قادرين عادةً على إدراك تلك الحقائق ومعرفتها

والتحدث عنها، بينما نجد أن النبي الأمي كشف عن ذلك، وهو يدل على قدرة خارقة عالمة تحدثت على لسانه، وقد اتضحت وانكشفت تلك الحقائق فيما بعد للأجيال اللاحقة.

وكما في الإعجاز الغيبي الذي هو إخبار عن مغيبات حصلت في وقت النبوة، وبانت حقيقتها فيما بعد. فلم يكن ذلك ممكناً أن يصدر من النبي الأمي ذلك الإخبار بالغيب، لولا اتصاله بالوحي. فالإعجاز الغيبي يمثل شاهداً على صدق النبوة لا معجزة النبوة.

رابعاً: في المباحث السابقة وضحنا أن الإعجاز البياني مما يتعلق بفصاحته وبلاغته ونظمه وأسلوبه، متحقق في جميع القرآن، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، فلا تخلو آية من آياته من ذلك الإعجاز؛ ولهذا كان القرآن معجزاً، فعجز الناس عن أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فكانت المعجزة الخالدة المستمرة إلى يوم القيامة، فاستمرار النظم والفصاحة والبلاغة من أول آياته إلى آخرها، وعجز الناس عن الإتيان بمثله، دليل واضح على أن هذا الكتاب الكريم ليس من صنع البشر، وإنما هو تنزيل من الله؛ فالقرآن إذن بأسلوبه البياني معجزةٌ.

وبهذا يُعلم أن الإعجاز البياني هو إعجاز يتضمن معجزة خالدة قد وقع به التحدي، أما الإعجاز الغيبي، فهو إعجاز أيضاً، لكنه لم يتضمن معجزة وقع بها التحدي. وقد عرفنا التحدي سابقاً، بأنه طلب الإتيان بالمثل على وجه المنازعة والغلبة.

وهناك مجموعة من الشواهد تدل على أن التحدي لم يقع بالإعجاز الغيبي، منها:

١- إن جوهر التحدي القرآني يكمن في دعوة الناس إلى الإتيان بسورة كاملة تضاهي بلاغة القرآن وإعجازه. ومن الجدير بالذكر أن ليس كلّ سور القرآن الكريم تحتوي على أخبار غيبية، مما يؤكد أن الإعجاز يتجاوز حدود الإخبار عن الغيب.

٢- يشهد التاريخ أن العرب، في مواجهتهم للتحدي القرآني، لم يطالبوا بتقديم أخبار غيبية أو تاريخية. فالتحدي، في جوهره، يستهدف ما برع فيه القوم، وكان العرب آنذاك أرباب الفصاحة وأمراء البيان، فكان التحدي في ميدانهم الأصيل: البلاغة والفصاحة.

٣- من المنطق أن نتساءل: كيف يمكن للأخبار التاريخية أن تكون محور التحدي، وهي في حقيقتها مجرد روايات قابلة للتصديق أو التكذيب؟ إن الإعجاز في مثل هذه الأخبار لا يتحقق إلا بعد وقوعها، مما يجعلها غير مناسبة كأساس للتحدي الفوري والمباشر.

هذه الشواهد الثلاثة تقدم لنا رؤية أعمق لطبيعة الإعجاز القرآني الذي وقع فيه التحدي، مؤكدة أن جوهره يتجاوز مجرد الإخبار عن الغيب ليشمل ويستقر في خصوص البلاغة والفصاحة والنظم في الكلام.

ثالثًا: الفرق بين الإعجاز الغيبي والإعجاز والتاريخي

الإعجاز التاريخي والإعجاز الغيبي في القرآن مرتبطان، لكنهما ليسا متطابقين تماماً. ويتمثل الفرق بينهما:

١-الإعجاز الغيبي: يشمل كلّ ما أخبر عنه القرآن من أمور غيبية، سواء كانت في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. كما أنه يتضمن الأخبار عن أحداث مستقبلية، وحقائق علمية، وأمور غيبية متعلقة بالكون والخلق.

٢-الإعجاز التاريخي: هو جزء من الإعجاز الغيبي، لكنه يركز تحديداً على الأخبار عن أحداث وقعت في الماضي. وهو يتعلق بدقة المعلومات التاريخية التي وردت في القرآن، والتي لم تكن معروفة في زمن نزوله.

فالإعجاز التاريخي يمكن عدّه نوعاً خاصاً من الإعجاز الغيبي، يتعلق بالأحداث

الماضية فقط. بينما الإعجاز الغيبي أشمل، ويتضمن الإخبار عن الماضي والحاضر والمستقبل.

رابعاً: جوانب الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم

يتفرع الإعجاز الغيبي إلى ثلاثة محاور رئيسية، كلّ منها يفتح بصيرتنا على أبعاد من المعرفة الإلهية:

١- إحياء الماضي: إذ يسرد القرآن وقائع تاريخية غابرة، كانت مجهولة في عصر النبي محمد، ليربط الحاضر بالماضي في نسيج معرفي متكامل.

٢-استشراف المستقبل: حيث يكشف القرآن الستار عن أحداث قادمة، تحققت لاحقاً بدقة مذهلة، مؤكدة صدق الوحي الإلهي.

٣-أسرار الكون والخلق: حيث يلمح القرآن إلى حقائق كونية وخلقية دقيقة، تكشف عن تناغم مذهل بين الوحي والعلم.

ودعونا نغوص في أعماق كلّ محور من هذه المحاور، لنستكشف روعة الإعجاز الغيبي وعظمته في كتاب الله العزيز.

١- الإخبار عن غيب الماضي وأهدافه

يتمثل هذا الجانب من الإعجاز القرآني في قدرته الفريدة على سرد أحداث الماضي البعيد، وإحياء قصص الأمم السالفة، وتصوير سير الصالحين بتفاصيل دقيقة وروايات ثرية. وتكمن روعة هذا النحو من الإعجاز في كون هذه الأحداث كانت بعيدة عن متناول علم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقومه، ولا سبيل إلى استحضارها إلا عبر قناة الوحي الإلهي. ويؤكد القرآن هذه الحقيقة بقوله تعالى:
﴿**تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ**

هَٰذَا﴾ (١).

وينقسم هذا الجانب من الإعجاز إلى شقين:

١. **الإجابات الغيبية:** وهي المعلومات التي كان المشركون وأهل الكتاب يسألون عنها، محاولين اختبار نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

٢. **الإفاضات الإلهية؛** وهي الأخبار التي كان الله تعالى يُنزلها ابتداءً، لتكون آية على صدق النبوة، وبرهاناً واضحاً على صدق الرسالة.

ومن الأمثلة الساطعة على هذا الإعجاز:

الأول: في قصة كفالة مريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٢).

الثاني: في سرد قصة نوح والطوفان: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣).

الثالث: في تفصيل قصة يوسف وإخوته: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (٤).

هذه الآيات تُبرز بجلاء كيف أن القرآن الكريم يفتح نافذة على أحداث الماضي البعيد، مقدماً تفاصيل دقيقة لم تكن معروفة في زمن نزوله، مما يشكل دليلاً قاطعاً على مصدره الإلهي، ويؤكد صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أهداف الإخبار عن غيب الماضي في القرآن الكريم:

هناك مجموعة من الأهداف، منها:

(٢) هود: ٤٩.

(٣) آل عمران: ٤٤.

(٤) هود: ٤٩.

(١) يوسف: ١٠٢.

١- تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإن ذلك الإخبار يهدف إلى طمأنة قلبه وتسليته في مواجهة صعوبات الدعوة.

٢- تربية الأمة وتهذيبها، من خلال تقديم العبر والعظات المستلهمة من قصص الأمم السابقة، مما يسهم في تشكيل الوعي الأخلاقي والروحي للمجتمع الإسلامي.

٣- نشر المعرفة الصحيحة، فإن كثيراً من المعلومات المتداولة عن الوقائع الغابرة كانت مضللة، ومن خلال استخدام أسلوب القصص -كوسيلة أدبية محبوبة ومؤثرة - يتحقق نقل المعلومات التاريخية بنحو دقيق.

٤- إبراز الإعجاز البياني للقرآن، فذلك يظهر قدرة القرآن الفريدة على سرد أحداث الماضي بأسلوب بلاغي راقٍ، مما يشكل وجهاً من أوجه إعجازه اللغوي. فدقة التفاصيل، وجمال الأسلوب، وعمق المعاني في هذه القصص، تشكل شهادة حية على الإعجاز اللغوي والبلاغي للنص القرآني.

هذه الأهداف تجتمع لتحقيق غاية سامية في بناء الفرد والمجتمع على أسس إيمانية راسخة، مستفيدة من دروس التاريخ وحكمة الماضي.

٢- الإخبار عن غيب المستقبل وأهدافه

وهو إخبار عن أحداث ستقع في زمن قادم قريب أو بعيد، خاصة تلك التي تُعد براهين على صدق النبوة. أما الأحداث البعيدة فهي ما ينتظر وقوعها، والزمن كفيل بإظهارها للأجيال اللاحقة، وهو أمر لا يمكن الجزم بحدوثه مستقبلاً إلا لعلاّم الغيوب.

وفي القرآن آيات كثيرة من هذا النوع، منها:

١- إخباره عن الحرب المرتقبة بين الروم والفرس، وأن النصر سيكون حليف الروم بعد هزيمتهم. يقول الله تعالى: ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ**

غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١).

وقد دارت معارك شرسة بين الروم والفرس من سنة ٦٠٣م إلى ٦٢٧م. في البداية عند اندلاع الحرب بينهما حتى عام ٦٢٢م كانت الغلبة للفرس على الروم. وقد كانت الروم أمة تؤمن بوجود الله على الرغم من عدم إيمانهم برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بينما كان الفرس قومًا كافرين لا يؤمنون بأي دين. لهذا السبب، كان الروم أقرب إلى قلوب المؤمنين؛ لكونهم أهل كتاب، في حين كان المشركون يميلون إلى الفرس؛ لأنهم كانوا من عبدة الأوثان، ولهذا نزلت آيات الروم متضمنة بشارات غيبية في عدة جوانب:

أ- التنبؤ بانتصار الروم خلال بضع سنين، وهو ما تحقق فعلاً.

ب- الإخبار بوقوع المعركة حتمًا، وهذا بحد ذاته إعجاز غيبي.

ج- التنبؤ بفرح المؤمنين بنصر عزيز متزامن مع انتصار الروم، وهو ما تحقق في غزوة بدر.

٢- التنبؤ بهزيمة المشركين في وقت لم يكن فيه احتمال للحرب. قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ (٢).

هذه الآيات نزلت في مكة حين كان المسلمون قلة مستضعفة، فتنبأ القرآن بانتصار الإسلام على جموع المشركين، وهو ما تحقق لاحقًا بقدرة الله تعالى.

أهداف الإخبار عن غيب المستقبل

أهداف الإخبار عن القضايا الغيبية المستقبلية في القرآن الكريم تتجلى في عدة

(٢) الروم: ٢-٥.
(١) القمر: ٤٣-٤٦.

أمور:

١- تحقيق المعرفة للناس بهذه الأحداث وما ينتج عن هذه المعرفة من قيمة إيمانية عميقة.

٢- ترسيخ اليقين والاطمئنان بصدق القرآن من خلال إثبات أنه كتاب رباني لا ينطق عن الهوى. فتلك الأخبار المستقبلية تمثل إعجازًا لا يمكن لأي إنسان أن يتنبأ به إلا الله تعالى.

ومن هنا، يتبين أن القرآن هو من عند الله وليس من تأليف النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذ لا سبيل للنبي إلى معرفة هذه الأمور الغيبية والتنبؤ بها. وقد ورد في القرآن كثيرًا: عبارة: "تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك"، مما يؤكد أن هذه الأخبار لا يمكن أن تكون من مصدر بشري بأي حال.

٣- الإخبار عن أسرار الكون والخلق

هذا الجانب من الإعجاز الغيبي سوف نتكلم عنه في بحث مستقل تحت عنوان الإعجاز العلمي في آخر بحوث الإعجاز القرآني، وهو يتعلق بالإشارات والحقائق العلمية التي وردت في القرآن الكريم عن الكون والظواهر الطبيعية، والتي لم تكن معروفة وقت نزول القرآن، وسنتكلم هناك عن تعريف الإعجاز العلمي وارتباطه الآيات القرآنية التي تتحدث عن حقائق كونية وعلمية دقيقة لم تكتشف إلا في العصر الحديث. وعن كونه يتضمن معلومات لم تكن في متناول البشر وقت نزوله، من قبيل: الإشارة إلى توسع الكون أو وصف مراحل تكوين الجنين ونحو ذلك.

هذا الجانب يربط بين النص القرآني والاكتشافات العلمية الحديثة، مما يفتح آفاقًا جديدة لفهم الإعجاز القرآني في سياق التطور العلمي المعاصر.

الإعجاز النفسي في القرآن الكريم

الإعجاز النفسي في القرآن الكريم يُعدُّ أيضاً من وجوه إعجاز القرآن البارزة، حيث يكشف عن فهم عميق للنفس البشرية وآلياتها، فهو يكشف عن قدرة القرآن على التأثير في النفوس وتوجيهها نحو الخير والصلاح.

ويتجلى الإعجاز النفسي في دقة وصف القرآن للحالات النفسية المختلفة، وفي أساليبه في التربية والإرشاد، وفي قدرته على مخاطبة العقل والوجدان معاً.

وتكمن أهمية دراسة الإعجاز النفسي في فهم أعمق لطبيعة النفس البشرية من منظور قرآني، ومن ثمَّ اكتشاف أساليب فعالة للتزكية والتربية مستمدة من القرآن. ويكشف أيضاً عن تقديم رؤية متكاملة للعلاج النفسي تتوافق مع الفطرة الإنسانية مع إظهار تفوق المنهج القرآني في التعامل مع الجوانب النفسية للإنسان، فضلاً عن تعزيز الإيمان بإعجاز القرآن وشموليته لكافة جوانب الحياة.

ولنبدأ أولاً في تعريف هذا النوع من الإعجاز في اللغة والاصطلاح.

أولاً: مفهوم الإعجاز النفسي

الإعجاز النفسي ليس له تعريف قديم، بل هو من الاصطلاحات الحديثة، ومضمونه تارة يعبرون عنه بالإعجاز التأثيري وأخرى بالإعجاز الروحي وثالثة بالإعجاز القلبي.

١-تحليل مفهوم الإعجاز النفسي

إذا أردنا تحليل مفهوم الإعجاز النفسي، لا بد أن نفسر معنى الإعجاز، ومعنى النفس، ثم المعنى المركب بينهما. وتعريف الإعجاز مر بيانه سابقاً.

والنفس في اللغة بمعنى "الروح"، يقال: خرجت نَفْس فلان؛ أي: روحه. والنفس في الاصطلاح هي جوهر الإنسان، ومحرك نشاطاته المختلفة.

ولو أردنا أن نجمع بين تعريف الإعجاز وتعريف النفس، سيكون المعنى للإعجاز

النفسي: أن في القرآن إعجازاً متعلقاً بالنفس الإنسانية، لكن كيف يكون هذا الإعجاز متعلقاً بالنفس؟ والجواب عن ذلك في جانبين:

الأول: أن في القرآن آيات إعجازية مرتبطة بخصائص النفس الإنسانية.

الثاني: أن القرآن له تأثير بالغ وشديد التأثير على النفس والروح الإنسانية.

ولهذا يكون تعريف الإعجاز النفسي بلحاظ الجانب الأول: "**عجز وعدم مقدرة الناس على أن يبينوا خصائص الروح والنفس كما بينها وشخصها القرآن الكريم**".
وموضوع

والتعريف بلحاظ الجانب الثاني: "**عجز وعدم مقدرة الناس على أن يأتوا بكلام مثل القرآن في تأثيره العظيم على نفوس القراء والسامعين له**".

والجمع بين الجانبين يمكن صياغة تعريف لمفهوم الإعجاز النفسي: بأنه "**قدرة القرآن على اكتشاف مخزون النفس البشرية ومكنوناتها بنحو جعله قادراً على مخاطبة هذه النفس والتأثير عليها تأثيراً عميقاً بالغاً إلى حدٍّ يعجز غيره أن يوجد مثل هذا التأثير فيها**".

والتعريف الشائع للإعجاز النفسي في القرآن الكريم أنه مفهوم يشير إلى: "**تأثير القرآن العميق على نفسية الإنسان وروحه**". وهذا هو التعريف المشهور الآن في الدراسات القرآنية. وهو متعلق بالجانب التأثيري العاطفي الروحي، لا الجانب المتعلق بتناول القرآن للنفس الإنسانية وذكر خصائصها وحالاتها التي كانت في وقت الرسالة مجهولة للناس؛ ولهذا اصطلح عليه بالإعجاز التأثيري.

لكن الصحيح أن الإعجاز النفسي لا يقتصر فقط على الجانب العاطفي الروحي التأثيري، بل يسهم في التوجيه النفسي والسلوكي بأن يقدم إرشادات عملية للتعامل مع مشاعر مثل الخوف، والحزن، والغضب، والفرح، ويعزز القيم الإيجابية كالصدق، والصبر، والرضا.

مضافاً لما يقدمه من تحليل نفسي دقيق، فهو يصف بدقة الحالات النفسية للإنسان في مختلف الظروف، مثلما ورد في وصفه لحالة الإنسان في أوقات الشدة أو الرخاء.

يقول أمين الخولي في هذا السياق: "إن القرآن قد راعى قواعد نفسية، عن مظاهر الاعتقاد، ومسارب الانفعال، ونواحي التأثير، وجوانب الاطمئنان، وأثار من هذا ما أيّد به حجته، وأظهر دعوته، وكان مثلَ ذلك من معرفةِ شؤون النفس الإنسانية، لم يهتد إليه العلم بعدُ، فقد جاء القرآن نسيجاً على قوالب دقيقة، وأنوال نفيسة، لا يد لمتفنن بها، ولا سبيل- في عهد نزوله على الأقل - إلى التزامها ورعايتها، بل لم تكن سبيل للتكهن بطرف منها أو التنبه لبعضها؛ فهذا صنيعٌ فوق قدرة البشر وقوى الناس"(١).

٢-الاختلاف بين مفهوم الإعجاز النفسي والبياني

قد قلنا سابقاً أن جميع ما عبر عنه بالإعجاز - باستثناء الإعجاز البياني- مما لم يقع فيها التحدي، مثل الإعجاز الغيبي والعلمي والنفسي ونحو ذلك، ليس مثل الإعجاز البياني الممتد في كلّ زمان، بل العجز هنا هو عجز متحقق في زمان نزول القرآن، وقد يرتفع عجز الناس باكتشاف الحقائق الخاصة بالنفس البشرية في وقت من الأوقات.

نعم، الجانب التأثيري الذي يخلقه القرآن في نفس السامع وروحه قد لا يمكن أن يقوم بهذا المقدار العميق من التأثير غير القرآن في شتى الأزمنة.

ومن المهم الإشارة إلى أن هذا المفهوم يستند إلى الإيمان والتفسير الديني، وقد يختلف فهمه وتقييمه بين الأفراد والثقافات المختلفة.

(١) منهاج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، ص٢٠٤.

٣- الخلاف في استقلال الإعجاز النفسي

الخلاف في كون الإعجاز النفسي وجهاً مستقلاً في القرآن الكريم مسألة مهمة في دراسات الإعجاز القرآني، وهذا الخلاف يمكن تلخيصه كما يلي:

الرأي الأول: الإعجاز النفسي وجه مستقل للإعجاز: أصحاب هذا الرأي يرون أن تأثير القرآن على النفس البشرية هو إعجاز قائم بذاته، ويعدّون أن هذا التأثير النفسي يتجاوز مجرد الإعجاز اللغوي أو البياني.

ويستدلون للاستقلال بالآيات التي تصف تأثير القرآن على المستمعين، مثل قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا القرآن عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾[1] وغير ذلك من الآيات التي سنذكرها تحت عنوان شواهد على الإعجاز النفسي لاحقاً.

الرأي الثاني: الإعجاز النفسي متفرع عن الإعجاز البياني، وأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن الإعجاز كما بينا سابقاً لا بد أن يكون مقروناً بالتحدي وأن الخلائق غير قادرين أن يأتوا بمثله في كلّ زمان، ولم يكن كذلك غير الإعجاز البياني، مع الإقرار بأن ذلك يشكل دليلاً على صدق النبوة لكن ليس إعجازاً حقيقياً[٢]، وقد وضحنا ما الصحيح بنحو مفصّل في موضوع الإعجاز البياني، فراجع.

ومن المفترض أن يكون الدليل على أنكار استقلالية الإعجاز النفسي هو بيان أن التأثير النفسي للقرآن نتيجة إعجازه البياني واللغوي؛ فإن جمال اللغة وقوة البيان والنظم هو سبب التأثير النفسي، وبالتالي فهو ليس وجهاً مستقلاً للإعجاز.

والبيان وجمال اللغة يتضمن عدة خصائص، كلها تقف بجانب من ينكر

---

(٢) الحشر: ٢١.

(٣) انظر: مداخل إعجاز القرآن، محمود محمد شاكر، ص٤٤. وانظر: البيان في إعجاز القرآن، صلاح الخالدي، ص٣٣. ص٧٨، ص٩٠.

الاستقلال والذاتية للإعجاز النفسي، ومن جملة تلك الخصائص:

١- قوة التعبير اللغوي: فالصياغة اللغوية الفريدة للقرآن هي ما يؤثر في النفس أولاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (١) فالتعبير البياني الرائع هنا هو ما يحرك المشاعر.

٢- الإيقاع الصوتي: فإن جرس الكلمات وإيقاعها في القرآن له تأثير مباشر على النفس، فالتناسق الصوتي في سورة الضحى مثلاً يخلق جواً نفسياً مريحاً.

٣- الصور البلاغية: فالاستعارات والتشبيهات في القرآن تخلق صوراً ذهنية قوية تؤثر نفسياً، كما في قوله تعالى في تشبيه المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ (٢).

٤- دقة اختيار الألفاظ: فالدقة في اختيار الكلمات تؤدي إلى تأثير نفسي عميق، كما في كلمة "استوى" في قول تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (٣) بدلاً من "جلس" أو "قعد".

٥- التناسق بين المعنى والمبنى: فإن هناك توافقاً بين المعنى والصياغة اللغوية يخلق أثراً نفسياً قوياً في قلب السامع ويحفز مشاعره وأحاسيسه.

وغير ذلك من الخصائص التي ذكرناها في موضوع الإعجاز البياني سابقاً، كلّ تلك الخصائص صالحة للاستدلال على عدم الاستقلال.

وفي النهاية، يرى أصحاب هذا الرأي الثاني أن كلّ تلك الخصائص البيانية مجتمعة هي ما يخلق التأثير النفسي العميق للقرآن، وبالتالي فإن الإعجاز النفسي هو نتيجة مباشرة للإعجاز البياني.

---

(٢) الإسراء: ٢٤.
(٣) البقرة: ١٧.
(١) طه: ٥.

وهذه المسألة ما زالت محل نقاش بين العلماء والباحثين في علوم القرآن. ويمكن القول إن كلا الرأيين لهما وجاهتهما، حيث أن الإعجاز النفسي والبياني مترابطان بشكل وثيق في القرآن الكريم.

٤-الإعجاز النفسي في كلمات العلماء

قد تنبه لهذا الإعجاز العلماء من القدماء مثل الخطابي، والباقلاني، والزركشي وسيد قطب، وغيرهم من العلماء، لكن جميع أقوالهم ارتكزت على الجانب التأثيري العاطفي دون المجال الآخر المرتبط بالتحليل النفسي وبيان مكنونات نفس الإنسان.

وإليك شطراً من أقوال بعضهم:

يقول الخطابي (٣٨٨هـ) في كتابه بيان إعجاز القرآن: "في إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم؛ وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة، قد عراها الوجيب والقلق، وتغشّاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها؛ فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً"(١).

ويقول الباقلاني (٤٠٣هـ) في كتابه إعجاز القرآن: "وإذا علا الكلام في نفسه، كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس، ما يذهل ويبهج، ويقلق ويؤنس،

(١) بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص٧٠.

ويطمع ويؤيس، ويضحك ويبكي، ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويشجي ويطرب، ويهز الأعطاف، ويستميل نحوه الأسماع، ويورث الأريحية والعزة، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً، ويرمي السامع من وراء رأيه مرمى بعيداً، وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة"(١).

ويقول الزركشي (٧٩٤هـ) في كتابه البرهان: "ثم إن سامعه إن كان مؤمناً به بداخله روعة في أول سماعه وخشية ثم لا يزال يجد في قلبه هشاشة إليه، ومحبة له"(٢).

ويقول السيوطي (٩١١هـ) في كتابه معترك الأقران: "الوجه العشرون من وجوه إعجازه: الروعة التي تلحق قلوبَ سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيْبَة التي تعْتَريهم عند تلاوته لقوة حاله وإبانة خطره، وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفوراً، كما قال تعالى، ويودّون انقطاعه لكراهتهم له، وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذاباً، وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه"(٣).

أما سيد قطب (١٣٨٥هـ) في كتابه التصوير الفني، فقد وصف القرآن بالسحر؛ لقوة تأثيره في نفوسهم، يقول: "سحرَ القرآن العربَ منذ اللحظة الأولى، سواء منهم في ذلك من شرح صدره للإسلام، ومن جعل على بصره غشاوة...والدلالة على هذا السحر ما حكاه القرآن عن قول بعض الكفار: ﴿**لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾ فإن هذا ليدل على الذعر الذي كان يضطرب في نفوسهم من تأثير هذا القرآن فيهم وفي أتباعهم، فتنقاد إليه نفوسهم وتهوي إليه أفئدتهم

(٢) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص٢٧٧.
(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج٢، ص١٠٦.
(٤) معترك الأقران، السيوطي، ج١، ص١٨٣.

ويهرع إليهم المتقون"[١].

نكتفي بهذا المقدار من أقوال العلماء، وننتقل إلى مظاهر وتجليات الإعجاز النفسي، فإن مظاهره التي تمثل فيها متعددة.

ثانياً: تجليات الإعجاز النفسي في القرآن الكريم

بما قدمنا من تعريف، يتجلى الإعجاز النفسي في عدة جوانب:

١. الطمأنينة والسكينة، فيشعر كثير من المسلمين بالراحة النفسية والطمأنينة عند تلاوة القرآن أو الاستماع إليه.

٢. التأثير العاطفي، فإن القرآن له قدرة فائقة على إثارة المشاعر والعواطف، سواء كانت الخشوع أو الرهبة أو الأمل.

٣. الإرشاد الأخلاقي، يقدم القرآن توجيهات أخلاقية تساعد في تهذيب النفس وتزكيتها.

٤. معالجة القضايا النفسية، يتناول القرآن قضايا نفسية مثل القلق والحزن، ويقدم حلولًا وإرشادات عملية للتعامل مع تلك القضايا والمشاعر، ويعزز القيم الإيجابية كالصدق، والصبر، والرضا ونحو ذلك.

٥. تحفيز التفكر، يدعو القرآن إلى التفكر والتدبر، مما يساعد على تنمية القدرات العقلية والنفسية.

ثالثاً: تجليات الإعجاز النفسي في الجانب المعرفي

يعزز القرآن الكريم الجانب المعرفي للنفس البشرية من خلال عدة طرق:

١- التحليل الدقيق للنفس: يقدم القرآن تحليلاً عميقاً لمكنونات النفس وأحوالها المختلفة، مثل قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

(٢) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص١١- ١٤٤.

﴿وَتَقْوَاهَا﴾ (١).

٢- وصف خصائص النفس، فالقرآن يصف خصائص النفس البشرية بدقة، مثل قابليتها للخير والشر، وتقلبها بين الحالات المختلفة.

٣- تحليل الدوافع والسلوكيات، يقدم القرآن تحليلاً للدوافع النفسية وراء السلوكيات الإنسانية، مثل الحسد والطمع والخوف.

٤- معالجة الاضطرابات النفسية، فيقدم القرآن حلولاً وإرشادات لمعالجة الاضطرابات النفسية مثل القلق والحزن.

٥. تعزيز الصحة النفسية، فهو يحث على ممارسات من شأنها أن تعزز الصحة النفسية مثل التفكر والتأمل.

٦. فهم العلاقات الإنسانية، حيث يقدم القرآن رؤى عميقة حول العلاقات الإنسانية وتأثيرها على النفس.

٧. تطوير الذات، وهذا أمر مهم للغاية، فالقرآن يحث على التطوير المستمر للذات والارتقاء بها، مما يعزز الفهم العميق للوجود وللإنسان، ويحفز على النمو النفسي والروحي.

هذه الجوانب المهمة تُظهر قدرة القرآن على فهمه العميق للنفس البشرية، وتقديمه لرؤى ومعارف متقدمة في هذا المجال.

ثالثًا: شواهد قرآنية في الإعجاز النفسي

في القرآن آيات كثيرة تعزز الإعجاز النفسي بالمعنى الذي ذكرناه في تعريفه، وهذه الآيات تعد شاهداً على هذا النوع من الإعجاز في القرآن الكريم، مما يُعدُّ أوضح دليل على صدق الرسالة النبوية واتصالها بالغيب. وتلك الشواهد المتنوعة، تعكس

---

(١) الشمس: ٧-٨.

فهمًا عميقًا للنفس البشرية وتأثيرًا قويًا على المتلقين. ويمكن تصنيف هذه الشواهد إلى ثلاث فئات رئيسية:

١- شواهد التحليل الدقيق للنفس الإنسانية

يقدم القرآن الكريم تحليلاً دقيقًا لخصائص النفس البشرية وطبيعتها:

أ- الطبيعة المزدوجة للإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[١].

تبين هذه الآية تركيب الإنسان من عنصري المادة والروح، وأن الجانب الروحي هو المقدس في حياة الإنسان لكونه منتمياً لله بنحو من الانتماء، وفي هذه الآية - بغض النظر عن إبراز مكونات الإنسان وتحليلها - إرشاد أخلاقي لخواه عدم التكبر والحسد، فإنهما خصلتان ذميمتان يترتب عليهما خسارة تضر بوجود الإنسان وبسعادته الأبدية.

ب- الفطرة الإنسانية، كما في قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[٢]. تتناول الآيات القرآنية في سورة الشمس طبيعة النفس البشرية وقدراتها الفطرية. وتشير هذه الآيات إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بفطرة قادرة على التمييز بين الخير والشر، وبين التقوى والفجور. وهذه الرؤية للنفس البشرية تتكامل مع آيات أخرى في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾[٣]، ومثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[٤].

هذه الآيات تشكل معًا أساس النظرية النفسية في الإسلام، والتي تؤكد على:

- ازدواجية طبيعة الإنسان (الجانب المادي والروحي).

---

(٢) ص: ٧١-٧٢.
(٣) الشمس: ٧-٨.
(٤) البلد: ١٠.
(١) الإنسان: ٣.

- المسؤولية الفردية عن الأعمال والاختيارات.
- دور الإنسان في تشكيل مصيره من خلال أفعاله وقراراته.

وفقًا لهذه النظرة، فإن الإنسان مخلوق بطبيعة مزدوجة، لديه استعدادات متساوية للخير والشر. هذه القدرة على التمييز والاختيار هي جزء أساسي من تكوينه، ويشير إليها القرآن بمصطلح "الإلهام" أو "الهداية".

أما العوامل الخارجية، مثل الرسالات السماوية والتوجيهات، فتعمل على تنشيط وتوجيه هذه الاستعدادات الفطرية، ولكنها لا تخلقها من العدم. وإلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية، يمتلك الإنسان قوة واعية ومدركة تحمل مسؤولية اختياراته. فمن استخدم هذه القوة لتزكية نفسه وتنمية الخير فيها، فقد نجح وأفلح. ومن أهمل هذه القوة وأضعفها، فقد خسر وخاب[١].

هذه الرؤية الشاملة للنفس البشرية تعزز قدرة القرآن على فهم طبيعة الإنسان وتحليله الدقيق لنفسه وتؤكد صدق الإعجاز النفسي في القرآن الكريم.

ج- ضعف الإنسان وكفاحه، كما في قوله تعالى: ﴿**وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾[٣].

هاتان الآيتان تصفان طبيعة الإنسان الضعيفة وحياته المليئة بالتحديات والمكابدة. فهو تحليل نفسي من خالق الإنسان الذي يعلم مواطن القوة والضعف فيما خلقه؛ ليتبصر المخلوق بمقدار قدراته وإمكاناته.

د. الميول الطبيعية، كما في قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ**

---

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٦، ص٣٩١٧.
(٣) النساء: ٢٨.
(٤) البلد: ٤.

وَالْحَرْثِ﴾ (١). تلخص هذه الآية الرغبات الأساسية التي تحرك النفس البشرية.

٢- شواهد التأثير العاطفي للقرآن في النفوس

يصف القرآن الكريم تأثيره العميق على النفس البشرية في موارد كثيرة:

أ- قوة التأثير، كما في قوله تعالى: **﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القرآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾** (٢).

تصور هذه الآية قوة تأثير القرآن حتى على الجمادات، فالقرآن له القدرة على التأثير في الجمادات، فله القدرة كذلك على التأثير على الإنسان، لكن حينما تتحقق شروط ذلك التأثير، عندما يؤمن الإنسان بخالقه، وبما ينتظره من حياة أخرى.

ب- الاستجابة العاطفية، كما في قوله تعالى: **﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾** (٣). تصف هذه الآية الاستجابة الجسدية والعاطفية للمؤمنين عند سماع القرآن. فهو إذن فيه التأثير العميق على العاطفة والوجدان الإنساني يجعل حالة من الرهبة واقشعرار البدن عند من يؤمن به حين سماع آياته.

ج- قدرة القرآن الخارقة، كما في قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾** (٤).

تشير هذه الآية إلى القدرة التكوينية للقرآن في هذا العالم، تلك القدرة التي تجعل الجبال تسير والأرض تتقطع وتجعل الميت سامعاً، وهذا يكشف عن أن الكون جميعه يدرك ويعي لكن نحن لا نعلم كيفية ذلك الوعي، والإنسان من جملة الواعين الذين يدركون تلك العظمة من خلال نفسه الإنسانية، هذه النفس

---

(٢) آل عمران: ١٤.

(٣) الحشر: ٢١.

(٤) الزمر: ٢٣.

(١) الرعد: ٣١.

التي تنجذب لهذه القرآن بطريق أولى مما ينجذب له الموتى.

٣. شواهد تاريخية على تأثر وانجذاب العرب للقرآن

تقدم السيرة النبوية أمثلة عديدة على التأثير العميق للقرآن:

أ- استماع زعماء قريش سرًا، فإنه رغم معارضتهم للإسلام، كان بعض زعماء قريش -كما في مصادر السيرة - يستمعون خفيةً إلى تلاوة القرآن، منجذبين إلى جماله وقوة تأثيره.

ب- قصة أبي الوليد عتبة بن ربيعة، فإنه بعد استماعه للقرآن، اعترف عتبة بقوة تأثيره قائلاً: "والله قد سمعت قولاً ما سمعت كمثله قط! والله! ما هو بالشعر، ولا بالسحر"(١)، وتؤكد هذه الشهادة من أحد معارضي الإسلام القوة النفسية الاستثنائية للقرآن.

هذه الشواهد القرآنية والتاريخية تبرهن على الإعجاز النفسي للقرآن الكريم، مؤكدةً قدرته الفريدة على فهم النفس البشرية والتأثير فيها بعمق، مما يشكل دليلاً على صدق الرسالة النبوية واتصالها بالغيب.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، ج١، ص٢٩٤. طبعة السقّا.

الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم

من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم؛ الإعجاز في جانب التشريعات الذي اشتمل عليها القرآن الكريم، وأول من أشار لهذا النوع من الإعجاز: الخطابي (٣٨٨هـ) في قوله: "واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاءَ بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف، مضمناً أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته؛ من تحليل وتحريم، وحضر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعًا كلّ شيءٍ منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه"[1].

وقال الباقلاني: "واعلم أن من قال من أصحابنا: إن الأحكام معلّلةٌ بعللٍ موافقة لمقتضى العقل، جعل هذا وجهاً من وجوه الإعجاز، وجعل هذه الطريقة دلالةً فيه، كنحو ما يعلّلون به الصلاة، ومعظم الفروض وأصولها، ولهم في كثير من تلك العلل طرق قريبة، ووجوه تستحسن"[2].

وفي هذا النوع من الإعجاز سنبحث:

أولاً: في مقدمة تتضمن عدة أمور مهمة: تعريف الإعجاز التشريعي، أسباب قلة الاهتمام بالإعجاز التشريعي في الدراسات القرآنية، وأهمية دراسة الإعجاز التشريعي في القرآن، والفرق بين الإعجاز التشريعي والإعجاز البياني.

ثانياً: خصائص التشريع القرآني ومميزاته التي جعلت منه إعجازاً.

ثالثاً: مقارنة بين التشريعات الربانية والقوانين الوضعية من صنع البشر.

رابعاً: البحث في نماذج من الإعجاز التشريعي، سواء العبادية أم في المعاملات.

---

(٢) بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص٢٧.

(١) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص٤٧.

أولاً: مقدمة في الإعجاز التشريعي

١-مفهوم الإعجاز التشريعي

الإعجاز التشريعي يتركب من لفظتين، الأولى: "الإعجاز" وقد مرّ تعريفها وتكرارها، وأنها مشتقة من الرباعي "أعجز" وهو يدل على الضعف والقصور عن فعل الشيء.

واللفظة الثانية: "التشريعي"، والتشريع في اللغة: من (شرع) وله معنى واحد كما يقول ابن فارس: وهو شيء يفتح في امتداد يكون فيه؛ من ذلك الشريعة، وهي مورد الشاربة الماء[1] وبقية المعاني للشريعة متفرعة على هذا المعنى، ومما تفرع على ذلك: أن الشرع أو الشريعة: نهج الطريق الواضح. يقال: شرعت له طريقاً، والشرع: مصدر، ثم جعل اسما للطريق النهج، فقيل له: شرع، وشرع، وشريعة، واستعير ذلك للطريقة الإلهية. قال تعالى: لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً[2]. وشرع لهم: سنّ[3]. فالتشريع في الاصطلاح: ما شرعه الله وسنه لعباده من الأحكام العبادية والمعاملات، وأحكام عقدية وأحكام أخلاقية.

وعلى هذا يكون **معنى الإعجاز التشريعي في الاصطلاح**: إثبات عجز البشر عن الإتيان بمثل ما جاء به القرآن من تشريعات وأحكام، سواء المتعلقة بالفرد والأسرة أم بالمجتمع وفي كافة المجالات.

ويمكننا صياغة تعريف آخر للإعجاز التشريعي أفضل: **"هو ما يتميز به القرآن الكريم من أحكام وتشريعات تنظم حياة الإنسان والمجتمع، بحيث تتصف هذه التشريعات بخصائص معينة جعلتها تفوق قدرة البشر على الإتيان بمثلها"**.

---

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٣، ص٢٦٢.
(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٤٥٠.
(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٧٣٢.

وهكذا يتضح معنى الإعجاز التشريعي بكونه عدم قدرة الإنسان على الإتيان بمثل التشريعات الإلهية، نظراً لما تميز به من خصائص فريدة، سيأتي التعرض لها لاحقاً.

٢-أسباب قلة الدراسات بالإعجاز التشريعي

الإعجاز التشريعي لم يحظ بنصيب وافر من الدراسات والاهتمام قياساً بالإعجاز البياني، بل حتى مع الإعجازات الأخرى مثل الإعجاز الغيبي والعلمي، مع أنه ربما يكون أكثر أهمية من تلك الوجوه في الإعجاز لو استثنينا البياني منها.

ويمكن التكهن ببعض الأسباب المحتملة التي قللت من الاهتمام الكبير بالإعجاز التشريعي مقارنة بالجوانب البلاغية واللغوية وغيرها في القرآن الكريم.

ومن جملة تلك الأسباب: أن الجوانب البلاغية واللغوية أكثر وضوحًا وسهولة في الدراسة والتحليل، حيث يمكن تطبيق القواعد اللغوية والبلاغية المعروفة عليها مباشرة.

ومنها: أن معظم علماء القرآن والتفسير لديهم خلفية قوية في اللغة العربية وعلومها، مما يجعلهم أكثر ميلًا لدراسة هذه الجوانب.

ومنها: التعقيد في بحث الإعجاز التشريعي فإنه يتطلب فهمًا عميقًا للشريعة الإسلامية والقوانين المقارنة، وهو مجال أكثر تعقيدًا وتخصصًا.

ومنها: يمكن القول إن ثمة حساسية خاصة في سياقات ثقافية معينة، لها تأثير في عدم التركيز على الجانب التشريعي، فإن بعض جوانبه قد تثير جدلاً في سياق القضايا المعاصرة مثل حقوق المرأة أو العقوبات الجنائية. كما أن وجود تفسيرات متعددة للنصوص التشريعية في الإسلام قد يجعل من الصعب الإجماع على وجه الإعجاز. وأيضاً الحاجة للموازنة بين احترام الموروث الإسلامي الأصيل وتلبية متطلبات العصر الحديث قد تخلق عائقاً يمنع من البحث.

ومنها: أن الإعجاز التشريعي حديث الاهتمام به نسبياً، فإن هذا الاصطلاح لا وجود له عند العلماء المتقدمين قياساً بالإعجاز اللغوي والبلاغي، فإن له تاريخاً طويلاً عميقاً في الدراسات الإسلامية عندهم، ولهذا لم نجد الدراسات حوله إلا متأخراً.

ومنها: أن موضوع الإعجاز التشريعي يرتكز على أسرار وعلل التشريعات، فيدخل في باب الفقه، وقد بحث العلماء علل الأحكام وخصصوها بأبواب مستقلة.

كلّ ذلك أسهم في قلة تركيز البحوث على الإعجاز التشريعي، ومع ذلك، من المهم الإشارة إلى أن هناك اهتمامًا متزايدًا به في السنوات الأخيرة.

٣-أهمية بحث الإعجاز التشريعي في الدراسات القرآنية

البحث في الإعجاز التشريعي في الدراسات القرآنية له أهمية كبيرة لعدة أسباب:

ونعتقد أن أهم أسباب تلك الأهمية تتجلى في أن فهم الإعجاز التشريعي يعزز الإيمان لدى المسلم بقدرة الله وحكمته في تشريع الأحكام التي تنظم حياة الإنسان بطريقة مثالية، مما يزيد من اليقين بأن القرآن هو وحي إلهي، ويكفي هذا عنصراً مهماً في الخوض في الإعجاز التشريعي، كما أن العنصر الآخر في الأهمية هو إظهار قدرة التشريعات على تنظيم جميع جوانب الحياة البشرية بطريقة متكاملة ومتوازنة، وإثبات صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان من خلال قابلتيها للتطبيق في مختلف العصور والمجتمعات، مما يؤكد مرونتها وتكيفها. وهذا يسهم إلى حد ما في تعزيز الهوية الإسلامية.

فضلاً عن أن دراسة الإعجاز التشريعي تساعد على فهم عميق لمقاصد الشريعة الإسلامية، وأهدافها في تحقيق مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم؛ لأن مركز هذه الدراسة هو البحث عن حكمة وعلة التشريع، مما يسهم في التطبيق السليم لأحكام الإسلام في الواقع المعاصر. وهذا بدوره يقوم بتحفيز الاجتهاد والتطوير الفقهي

ويشجع الفقهاء والمجتهدين على استنباط أحكام جديدة تماشى مع مقاصد الشريعة وعللها وأهدافها وتستجيب للتحديات المستجدة في المجتمعات الإسلامية، بما يحافظ على حيوية الفقه الإسلامي وتجديده.

كما أن دراسة الإعجاز التشريعي تُعِين في الردّ على الشبهات المثارة حول بعض الأحكام الشرعية، من خلال إبراز حكمتها وأهدافها، مما يُمكّن المسلمين من مواجهة التشكيك والهجمات الفكرية على الإسلام، فإن الإعجاز التشريعي مرتبط بأصالة الشريعة الإسلامية وكمالها. فالقدرة على تقديم حلول عادلة وفعالة لمشكلات الإنسان تؤكد على عمق الحكمة الإلهية في التشريع.

وأخيرا تمثل أهمية دراسة هذا النحو من الإعجاز في تحقيق التوازن في الدراسات القرآنية بين مختلف جوانب الإعجاز القرآني، بدلاً من التركيز فقط على الجوانب اللغوية والبلاغية.

وفي المجمل، دراسة الإعجاز التشريعي ليست فقط استكشافاً لأحكام الشريعة، بل هي استبصار بحكمة الله في التشريع وكيفية تطبيقه لتحقيق السعادة والعدل في حياة الأفراد والمجتمعات.

٤- الفرق بين الإعجاز التشريعي والبياني

تقدم سابقاً في الإعجاز الغيبي والنفسي، أن الإعجاز -غير البياني- بلحاظ مضمونه إنما يصطلح عليه كذلك؛ لأنه في وقت الرسالة لم يكن بمقدور البشر أن يأتي بمثل مضمونه، سواء استمر العجز مثل البياني أم ارتفع العجز، ولم يقع التحدي فيه، بل هو دليل على صدق النبوة وصدق الوحي.

ثانياً: مزايا وخصاص التشريعات القرآنية

التشريعات القرآنية تميز بعدة خصائص ومميزات تجعلها فريدة ومعجزة في نظر

الكثيرين. هذه الخصائص تشمل:

١- الشمولية، حيث تغطي التشريعات القرآنية جميع جوانب الحياة الإنسانية، من العبادات إلى المعاملات والأخلاق والعلاقات الاجتماعية.

٢- المرونة والثبات، فإنها تجمع بين الثبات في الأصول والمبادئ العامة، والمرونة في التطبيق حسب الظروف المتغيرة.

٣- التوازن بين حقوق الفرد ومصالح المجتمع، وبين الروحانيات والماديات.

٤- العدالة، فإنها تؤكد على مبدأ العدالة في جميع التشريعات، سواء في الأحكام الجنائية أو المدنية أو الاجتماعية.

٥- التدرج في التشريع، فقد اتبع القرآن منهجًا تدريجيًا في تشريع الأحكام، مراعاة للظروف النفسية والاجتماعية.

٦- مراعاة الفطرة الإنسانية، الأحكام الكلية تتوافق مع الفطرة الإنسانية وتلبي احتياجاتها الروحية والمادية.

٧- الواقعية، فهي تراعي الواقع الإنساني وتتعامل مع الطبيعة البشرية بواقعية بعيداً عن الخيال والمثالية العالية.

٨- الوسطية، فإن التشريعات الربانية تتبنى منهج الوسطية والاعتدال، بعيدًا عن الإفراط والتفريط.

٩- حفظ الضروريات الخمس، وهذا واضح في المنظومة التشريعية، فإنها تهدف إلى حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

١٠- الأخلاقية، وما تميزت به التشريعات الربانية أنها تربط التشريعات بالأخلاق والقيم الإنسانية العليا.

١١- الصلاحية لكل زمان ومكان، فهي قابلة للتطبيق في مختلف العصور

والمجتمعات دون تعارض مع التطور الحضاري.

١٢- التيسير ورفع الحرج فقد امتازت التشريعات بكونها تميل إلى التيسير ورفع الحرج عن المكلفين.

١٣- الترابط والتكامل، فإنها تشكّلُ نظاماً متكاملاً ومترابطاً، حيث تتكامل الأحكام مع بعضها البعض.

١٤- الاهتمام بالوقاية، فإن التشريعات الإلهية تركز على الوقاية قبل العلاج في كثير من التشريعات[1].

هذه الخصائص مجتمعة تشكل إعجازًا تشريعيًا، حيث تقدم نظامًا شاملًا ومتكاملًا يتجاوز قدرات البشر العاديين في صياغة القوانين والتشريعات.

ثالثًا: مقارنة التشريعات الربانية مع القوانين البشرية

مقارنة التشريعات الإسلامية بالتشريعات البشرية تظهر الفروق في المصدر، الغاية، والمضمون، حيث إن كلّ نظام تشريعي يتأسس على مبادئ وقيم محددة تؤثر على كيفية صياغة القوانين وتطبيقها. وفيما يلي بعض النقاط التي توضح هذه الفروق:

١-من حيث المصدر، فإن التشريعات الإسلامية مستمدة من الوحي الإلهي، وبالتالي فهي تعد تشريعات مقدسة تحمل طابعًا إلهيًا، تتميز بالعصمة من الخطأ ومطلقة في عدالتها.

أما القوانين البشرية، فهي ما دامت من صنع البشر، فإنها غالبًا ما تتأثر بالظروف الاجتماعية، الاقتصادية، والثقافية، وقد تتغير بمرور الوقت مع تطور

---

(١) انظر: رسائل ومقالات، جعفر السبحاني، واقع التشريع الإسلامي: ص٤٨٩. وانظر: المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا، ج١ ص٤٦. وانظر: المدخل الوسيط لدراسة الشريعة الإسلامية والفقه والتشريع، نصر فريد، ص١٨. وانظر: مدخل لدراسة الشريعة، القرضاوي، ص١١٠.

المجتمعات مع انكشاف نقصها وخطئها.

٢- من حيث الغاية، فإن التشريعات القرآنية تهدف إلى تحقيق العدالة المطلقة، والرحمة، والمصلحة العامة. كما تهدف إلى تنظيم حياة الفرد والمجتمع بما يحقق السعادة في الدنيا والآخرة. وتتناول هذه التشريعات جميع جوانب الحياة من عبادة، معاملات، أحوال شخصية، وجنايات وحدود وغير ذلك.

أما القوانين البشرية، فهي غالبًا ما تهدف إلى تنظيم حياة الأفراد والجماعات بطريقة تضمن استقرار المجتمع وتحقيق العدالة النسبية، بناءً على معايير إنسانية عقلائية عرفية، وغالباً يكون التركيز فيها بنحو كبير على النفعية والمصلحة المباشرة للمجتمع أو الدولة أو حتى الأشخاص.

٣- من حيث المرونة والاستدامة، فإن التشريعات الإلهية تتميز بالشمولية والمرونة، حيث تتضمن مبادئ وقواعد عامة يمكن تطبيقها عبر شتى العصور، مع وجود مساحة للاجتهاد تجعلها قابلة للتكييف مع المتغيرات الحديثة دون الخروج عن مقاصد الشريعة.

أما القوانين البشرية، فهي وإن كانت تتسم بالمرونة العالية نتيجة لقابليتها للتغيير والإصلاح، لكن هذه المرونة قد تؤدي أحيانًا إلى عدم الثبات أو التناقض في التشريعات، خاصة مع تغيّر الأنظمة السياسية أو الفكرية.

٤- العدالة والمساواة، فإن التشريعات الإلهية تهدف إلى تحقيق العدالة المطلقة التي لا تتأثر بالتحيزات الإنسانية، وتضمن المساواة بين جميع البشر بغض النظر عن العرق، الجنس، أو الطبقة الاجتماعية. بل تسعى لتحقيق توازن بين حقوق جميع الأفراد والمجتمع.

بينما القوانين البشرية، فهي على الرغم من كونها تسعى لمقاربة تحقيق العدالة، إلا أنها قد تتأثر أحيانًا بمصالح فئات معينة أو بضغوط سياسية واجتماعية، مما قد

يؤدي إلى تشريعات منحازة أو غير عادلة.

٥- الاستجابة للتغيرات، فإن التشريعات الإلهية بلحاظ ثبات مصادرها، فهي تستجيب للتغيرات عبر عملية الاجتهاد التي تتيح تأويل النصوص بما يتماشى مع مقاصد الشريعة، وهذا يوفر استدامة للتشريعات مع تطور المجتمع.

بينما القوانين البشرية تتغير بسرعة أكبر لتتوافق مع المستجدات، وهذا يمكن أن يكون ميزة في التكيف مع الواقع المتغير، لكنه قد يؤدي أيضاً إلى فقدان الاستقرار القانوني في بعض الأحيان.

٦- من حيث الامتثال والتطبيق، فإن التشريعات الإلهية ينطوي التطبيق فيها والامتثال لها على البعد الروحي والأخلاقي، حيث يمتثل المسلمون لها بدافع من الإيمان والمحاسبة في الدنيا والآخرة.

بينما القوانين البشرية: تعتمد بشكل أساسي على السلطة القانونية والتنفيذية لضمان الامتثال، وغالبًا ما تُطبق في إطار قسري أو إلزامي دون ارتباط بالبُعد الروحي.

٧- التأثير الأخلاقي، فإن التشريعات الربانية، تربط بين القانون والأخلاق، فكل تشريع له جانب أخلاقي وروحي، مما يعزز من قيمة الأخلاق في السلوك اليومي.

بينما القوانين الوضعية البشرية قد تنفك عن الأخلاق، ويتم التركيز فيها على القواعد العامة التي تنظم المجتمع دون تدخل في القناعات الأخلاقية الشخصية.

رابعًا: نماذج من الإعجاز التشريعي

نحن وإن كنا قد عرفنا التشريع والشريعة سابقاً بما يشتمل على الأحكام الفقهية والأحكام العقدية والأحكام الأخلاقية، لكن الجانب الإعجازي يبرز بوضوح في

خصوص الأحكام الفقهية العملية المرتبطة بأفعال الإنسان كفرد ومجتمع، وتلك الأحكام هي المظهر للعجز البشري حينما تكون ثمة مقايسة بينها وبين القوانين الإنسانية، وإن كانت الأحكام العقدية أو الأخلاقية وبيان الخطاب فيها ورعايتها للفطرة الإنسانية أيضاً لها جانب إعجازي، لكن يكون بشكل أكثر خفاءً من الأحكام العملية، ولهذا نحاول أن نتعرض لبعض الأمثلة القليلة في هذا خصوص الأحكام الفقهية العملية:

هناك العديد من التشريعات الإسلامية التي يمكن أن تصلح نموذجاً بارزاً للإعجاز التشريعي، وإليك بعض الأمثلة:

١-نماذج من تشريعات العبادات

أ- وجوب الصلاة وتنظيم وقتها وكيفيتها يحقق الراحة النفسية والجسدية

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[1]. تشريع الصلاة من خلال تنظيم وقتها وكيفيتها بشكل يحقق الراحة النفسية والجسدية للإنسان، ولك أن تلاحظ توزيع أوقاتها خمس مرات في اليوم، موزعة بشكل يتناسب مع النشاط البشري اليومي، وتلاحظ: الحركات التي تجمع بين الوقوف والركوع والسجود، مما يحقق فوائد صحية وروحية، ولو تلاحظ صلاة الجماعة فإنها تعزز الترابط الاجتماعي وتنظم اجتماع المسلمين بشكل يومي.

ب-وجوب الصيام، وفوائده الصحية والروحية الثابتة علمياً

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

يُعدُّ تشريع الصوم في القرآن الكريم مثالاً بارزاً على الإعجاز التشريعي، حيث

(٢) البقرة: ٤٣.
(١) البقرة: ١٨٣.

يتجلى فيه التوازن الدقيق بين الجوانب الروحية والصحية والاجتماعية. فقد جاء هذا التشريع متدرجاً، مما سهل على المسلمين تقبله وتطبيقه في حياتهم اليومية. كما راعى القرآن الظروف الفردية للمكلفين، فأباح الإفطار للمرضى والمسافرين مع وجوب القضاء لاحقاً، وهو ما يعكس مرونة الشريعة الإسلامية وواقعيتها.

ومن جانب آخر، يتوافق الصوم مع ما أثبتته الدراسات الطبية الحديثة من فوائد صحية عديدة للجسم، مما يؤكد صلاحية هذا التشريع لكل زمان ومكان. ولا يقتصر أثر الصيام على الجانب الصحي فحسب، بل يمتد ليشمل التربية الروحية والأخلاقية، حيث يهدف إلى تعزيز التقوى وضبط النفس وتهذيب السلوك.

وعلى الصعيد الاجتماعي، يعزز الصوم قيم التكافل والتراحم بين أفراد المجتمع، ويعمق الشعور بحال الفقراء والمحتاجين. كما أن توقيت شهر رمضان، الذي يدور في فصول السنة المختلفة على مر السنين، يضمن تحقيق المساواة بين المسلمين في هذا التشريع في مختلف أنحاء العالم.

وأخيراً، تتجلى المرونة في هذا التشريع من خلال إتاحة خيار الفدية لمن لا يستطيع الصوم بشكل دائم، مما يؤكد أن الإسلام دين يسر لا عسر.

هكذا، يظهر تشريع الصوم في القرآن كنموذج متكامل يراعي مختلف جوانب الحياة البشرية، ويحقق التوازن بين متطلبات الروح والجسد والمجتمع، مما يجعله مثالاً واضحاً على الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم.

ح-الزكاة نظام اقتصادي واجتماعي لتحقيق التكافل

يمكن اعتبار تشريع الزكاة في القرآن الكريم من الإعجاز التشريعي لجملة من الأسباب؛ فقد جاء هذا التشريع متكاملاً مع باقي أركان الإسلام، مما يعزز التوازن بين العبادات المالية والبدنية في حياة المسلم. ونلاحظ أن القرآن قد راعى الظروف الاقتصادية المختلفة في التشريع، فحدد نصاباً معيناً للزكاة يضمن أنها تؤخذ من

الأغنياء فقط، مما يدل على عدالة التشريع وكونه واقعياً.

كما أن الزكاة تتوافق وتنسجم أيضاً مع النظريات الاقتصادية الحديثة التي تؤكد أهمية إعادة توزيع الثروة لتحقيق التنمية الاقتصادية، وهو ما يشير إلى البعد الاقتصادي في هذا التشريع. إضافة إلى ذلك، فإن للزكاة أبعاداً تربوية وروحية، حيث تهدف إلى تطهير المكلف من البخل وتعزيز قيم التكافل والتراحم في المجتمع.

ومن الجوانب المهمة أيضاً رعاية تشريع الزكاة للبعد الاجتماعي، إذ تسهم الزكاة في سد حاجات الفقراء والمساكين، وتقليل الفوارق الطبقية في المجتمع، كما أن تحديد مصارف الزكاة المعروفة في القرآن يضمن توجيهها إلى الفئات الأكثر احتياجاً، مما يحقق الكفاءة في استخدام الموارد المالية.

وتظهر المرونة في تطبيق هذا التشريع من خلال تنوع الأموال التي تجب فيها الزكاة، سواء كانت نقوداً أو محاصيل زراعية أو ثروة حيوانية، مما يجعلها قابلة للتطبيق في مختلف البيئات والأزمنة.

كلّ هذه الجوانب تبين كيف راعى تشريع الزكاة في القرآن الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والروحية بشكل متوازن ومتكامل، مما يمكن اعتباره من مظاهر الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم.

٢-نماذج من تشريعات المعاملات

أ- تحريم الربا: حماية للاقتصاد من الأزمات المالية.

ب- تحريم الغرر في المعاملات.

ج- نظام الميراث: توزيع عادل للثروة بين أفراد الأسرة.

د- تحريم الاحتكار: لمنع التلاعب بالأسعار وحماية المستهلكين.

إن الأحكام في المعاملات كثيرة جداً لا يمكن استيعابها في صفحات قليلة،

ولنقف عند بعض منها، ونتكلم عنها بإيجاز، وهي تحريم الربا، وتحريم الغرر، وأحكام الميراث بشكل عام من دون تفصيل، وتحريم الاحتكار.

فنقول: يمكن النظر إلى الإعجاز التشريعي في مسألة المعاملات في الإسلام من خلال منظومة متكاملة تهدف إلى تحقيق العدالة والتوازن الاقتصادي والاجتماعي. فلو نظرنا إلى هذه الأحكام الأربعة، نجد أولاً أن تحريم الربا يهدف إلى منع الاستغلال وتحقيق المساواة في المعاملات المالية. وهذا الأمر يتكامل هذا مع نظام الزكاة الذي يعمل على إعادة توزيع الثروة وتحقيق التكافل الاجتماعي.

كما يولي التشريع الإسلامي اهتماماً كبيراً بمنع الغرر والجهالة في العقود، مما يضمن وضوح المعاملات وحماية حقوق جميع الأطراف.

وفي سياق متصل، تأتي أحكام الميراث لتضمن توزيعاً عادلاً للتركة بين أفراد الأسرة، مراعية الحقوق والواجبات المختلفة. يضاف إلى ذلك تحريم الاحتكار، وهو ما يهدف إلى منع التلاعب بالأسعار وحماية المستهلكين.

هذه المنظومة المتكاملة تعكس عمق وشمولية التشريع الإسلامي في مجال المعاملات، وتهدف في مجملها إلى تحقيق التوازن والعدالة والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي.

٣- نماذج من تشريعات الجنايات والحدود

أ- حد السرقة: ردع للجريمة مع شروط صارمة لتطبيقه

الإعجاز التشريعي في وجوب قطع يد السارق في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ**﴾[1]، يتبين في تحقيق العدالة والردع والحفاظ على استقرار المجتمع. على أن العقوبة ليست انتقامية

(١) المائدة: ٣٨.

بلا شك، بل تهدف إلى حماية الممتلكات الخاصة والعامة، كما تسهم في ضمان الأمن العام، وقد وضع الشارع مجموعة من شروط دقيقة لتطبيقها، مما يضمن عدم الظلم وتحقيق التوازن بين حقوق الأفراد والمجتمع.

ب- حد القذف: حماية لأعراض الناس وسمعتهم

وهكذا الإعجاز التشريعي في حد القذف، الذي ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[1].

يتجسد هذا الإعجاز في حماية شرف الناس وعرضهم وكرامتهم من التعدي عليها من خلال الاتهامات الباطلة. بل يمكن القول إن هذا التشريع يولي أهمية بالغة لمسألة العرض والشرف، وأن كرامة المرأة أو الرجل في رتبة عليا عند المشرع لا ينبغي هتكها بالشائعات والتشكيك، بل حتى مع العلم لا ينبغي ذلك ما لم يترافق هذا العلم بشروط خاصة.

فهذه العقوبة تهدف إلى منع انتشار الشائعات والإشاعات التي قد تدمر النسيج الاجتماعي وتزرع الفتنة والكراهية بين أفراد المجتمع، وهكذا يحاول الشارع أن يجعل صعوبة في الإثبات عندما يلزم القاذف بتقديم أربعة شهود لا كيفما كان، بل لا بد أن يكونوا عدولاً وإلا يجب على القاذف تحمل العقوبة، وهذا التشريع بهذا التفصيل يضمن عدم الاستهانة مطلقاً بالاتهام بالفاحشة، وحفظ الأعراض من أي تشويه أو افتراء.

كما أن عقوبة الجلد الشديدة وحرمان القاذف الدائم من الشهادة يشكلان غالباً رادعاً قوياً لمنع الناس من التلفظ بمثل هذه التهم الخطيرة من دون أيما دليل، مما يسهم في تحقيق العدل وحماية الأفراد من الظلم الاجتماعي.

---

(١) النور: ٠٤.

ح- القصاص: تحقيق العدالة مع إمكانية العفو

من أروع التشريعات في مجال الحدود هو تشريع القصاص كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١) فإن هذه الآية المباركة تحمل معنى عميقاً من الإعجاز التشريعي في الإسلام، كونها تشير إلى أن القصاص -وهو معاقبة الجاني بالمثل- ليس فقط وسيلة لتحقيق العدالة ورفع الظلم، بل هو أيضاً وسيلة لحفظ حياة الأفراد في المجتمع.

فإن تشريع القصاص يردع الأفراد عن ارتكاب الجرائم سواء كان قتلاً أو غيره، لأنهم يدركون بنحو جازم أن ما يفعله أحدهم سيرتدُّ عليه بالمثل. هذا الإدراك بلا شك يؤدي إلى تقليل الجرائم إلى أدنى مستوى، مما يحافظ على الأرواح ويمنع الفوضى والاعتداءات. فالآية ظاهرها القسوة لكن باطنها الرحمة والرأفة، إذ القصاص في حقيقته تشريع للحفاظ على حياة الناس وأمنهم. وهكذا القصاص وسيلة مهمة لتحقيق العدالة ورفع الغضب والحنق نتيجة الاعتداء على الآخرين، فإن من يعتدى عليه يشعر بإيذاء روحي عميق لا يمكن رفعه إلا بمعاقبة الجاني، وبتطبيق القصاص يتحقق الأمن والاستقرار، مما يؤدي إلى حياة مستقرة وآمنة للجميع.

وفي المحصلة نشير إلى أن وجه الإعجاز في جميع تلك التشريعات، يتمثل في:

١- الدقة البالغة والتفصيل الحكيم في التشريعات رغم نزولها في بيئة قبلية وجاهلة وبدائية.

٢- وجود التوازن الدقيق بين المصالح المختلفة، تارة بين الفرد والمجتمع، وأخرى بين الغني والفقير، وهكذا.

٣- قابلية التكيف والمرونة الواضحة التي تسمح بتطبيق وامتثال تلك التشريعات

---

(١) البقرة: ١٧٩.

في مختلف الظروف والأزمنة.

٤- التشريعات تهدف لتحقيق مقاصد اجتماعية واقتصادية وروحية متعددة في آن واحد.

٥- التشريعات كانت سباقة في معالجة قضايا لم تكن معروفة وقت التشريع، ولاحظت مناطات من المتعذر أن تكون معروفة في زمن الرسالة.

وهذه الخصائص في حقيقتها تتجاوز قدرة البشر في ذلك الوقت، مما يعزز أن مصدرها إلهي حتماً.

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

الإعجاز العلمي في القرآن، هو ما سنبحثه كمفردة أخيرة ونختم به بحثنا في الإعجاز القرآني، وكما فعلنا في الإعجاز التشريعي سنقوم بتقسيم البحث إلى مقدمة تتضمن عدة أمور، ومجموعة مباحث، في المقدمة: نتعرض لعدة أمور منها: تعريف الإعجاز العلمي، وبيان أهمية دراسة الإعجاز العلمي، وأسباب زيادة الاهتمام به.

وفي المبحث الأول: نجعله في خصائص الإعجاز العلمي، ثم في المبحث الثاني نتحدث عن شروط وضوابط الإعجاز العلمي، ثم المبحث الثالث نخصصه في استعراض نماذج من الإعجاز العلمي، وهذا المبحث سيتناول الإشارات الكونية في القرآن ويتضمن الإعجاز العلمي في علوم الأحياء والطب. ثم في المبحث الرابع والأخير سنخصصه في التحديات والانتقادات التي واجهها للإعجاز العلمي وكيفية الرد عليها.

هذه الخطة ربما تغطي أهم جوانب موضوع الإعجاز العلمي، فهي توفر إطارًا شاملًا ومنظمًا لدراسة الإعجاز العلمي في القرآن، مع التركيز على مجالات علمية متنوعة.

أولاً: مقدمة في الإعجاز العلمي

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم هو أحد وجوه الإعجاز المتعددة التي يتميز بها القرآن، ولا بد من إيضاح المصطلح أولاً قبل الولوج في عمق أبحاثه المرتبطة به.

١-مفهوم الإعجاز العلمي في الاصطلاح

كما فعلنا في الأنواع السابقة في بداية كلّ نوع من الإعجاز، نحاول أن نفهم هذا المصطلح بشكل دقيق، فنضطر إلى تحليله إلى مكوناته الأساسية، والإعجاز العلمي يتألف من لفظتين رئيسيتين: "الإعجاز" و"العلمي".

ولفظ "الإعجاز" مر في كلّ بحوثنا السابقة، وهو ما يشير إلى الجانب الخارق للعادة ويفوق قدرة البشر، فهو العجز والضعف.

ولفظ "العلمي" هو ما يرتبط بالمعارف والحقائق التي تم التوصل إليها من خلال البحث والدراسة العلمية.

من خلال فهم هذين المكونين، يمكننا بناء تعريف شامل ودقيق لمصطلح "الإعجاز العلمي" في سياق القرآن الكريم.

فيمكن تعريفه وفقاً لمفهوم اللفظتين بأنه: "**عجز الناس عن الإتيان بالحديث عن قضايا علمية في زمن لم تكن هذه القضايا معروفة ولا مكتشفة**"(١) وهذا يمثل شاهدَ صدقٍ على نبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأن تلك الأحاديث هي من الله تعالى.

والتعريف الدقيق الذي ينسجم مع معنى كلمة "الإعجاز" أي "الضعف وعدم القدرة" يمكن صياغته كالتالي:

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم هو: "**ظاهرة قرآنية تكشف عجز البشر عن الإتيان بمعلومات علمية دقيقة في زمن نزول القرآن، والتي تم اكتشافها لاحقًا بالوسائل العلمية الحديثة**". هذا يؤكد إلى أن مصدر هذه المعلومات يتجاوز قدرات البشر في ذلك الوقت بل هي ذات مصدر إلهي.

هذا التعريف يربط بين: معنى "الإعجاز" كعجز وضعف بشري والجانب العلمي في القرآن. فكرة تجاوز المعرفة البشرية في وقت نزول القرآن.

٢-الفرق بين الإعجاز العلمي للقرآن والتفسير العلمي

وبهذا يفترق تعريف الإعجاز العلمي عن التفسير العلمي للقرآن، فالتفسير العلمي هو السعي والاجتهاد في الكشف عن معاني الآيات القرآنية في ضوء ما ترجحت

---

(٢) انظر: تأصيل الإعجاز العلمي، الزنداني، ص١٤. فقد عرّفه بتعريف قريب من هذا المضمون، قال: الإعجاز العلمي: "إخبار القرآن بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن النبوة".

صحته من نظريات العلوم الكونية. أما الإعجاز العلمي فهو إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتها العلم أخيراً وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن النبوة(١).

والفرق الدقيق بين الإعجاز العلمي للقرآن والتفسير العلمي له هو:

إن الإعجاز العلمي يشير إلى النصوص القرآنية التي يعتقد أنها تتضمن معلومات علمية أو حقائق لم تكن معروفة في زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتم اكتشافها لاحقًا بواسطة العلوم الحديثة. ويُعتقد أن هذه المعلومات تمثل معجزة لأنها تدل على علم الله المطلق. وكما سوف يأتي من الأمثلة الشائعة على ذلك تفسير بعض الآيات التي تصف مراحل تطور الجنين البشري، والتي يقول بعض العلماء أنها تتوافق مع الاكتشافات العلمية الحديثة في علم الأجنة. وهدف الإعجاز العلمي إثبات أن القرآن الكريم يشتمل على معلومات لا يمكن للبشر في زمن نزول القرآن أن يكونوا على علم بها، وبالتالي يُعدُّ ذلك دليلًا على كونه وحياً إلهياً.

أما التفسير العلمي للقرآن فهو اصطلاح يشير إلى الجهود التي يقوم بها العلماء والمفسرون لفهم وتفسير الآيات القرآنية من خلال منظور علمي، أي محاولة الربط بين النصوص القرآنية ومعطيات العلم الحديث، ومثاله تفسير الآيات التي تتحدث عن السماوات والأرض، أو الرياح والأمطار، ومحاولة فهمها من خلال المعرفة الجغرافية والفلكية الحديثة، والهدف هو تقديم تفسير يتماشى مع المعرفة العلمية المعاصرة، ومحاولة إبراز التوافق بين النص القرآني وما توصل إليه العلم الحديث.

وفي المحصلة ثمة ارتباط شديد بين الاصطلاحين، فإن التّفسير العلمي يكون أعم من الإعجاز العلمي؛ لأن الإعجاز العلمي يتوقف على التفسير العلمي، ولا عكس، فليس كلّ تفسير علمي يكون إعجازاً علمياً.

---

(١) انظر: المصدر السابق تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص٢٤.

وجدير بالذكر التنبيه على أن التفسير العلمي للقرآن الكريم ليس موضع اتفاق بين العلماء، بل ثمة من يمنعه وثمة من يراه جائزاً، وحجة من منع ذلك إن القرآن كتاب هدفه الأساس هداية الناس، ولم ينزله ليكون كتاب نظريات العلوم والمعرفة الخارجة عن موضوع الهداية.

وفي هذا السياق يقول سيد قطب: "وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها، كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه! إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها. ولا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحياناً عن الكون في طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه وطبيعة التناسق بين أجزائه، لا يجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن، بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما يسميه حقائق علمية مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة"(١).

٣- اهتمام العلماء بالإعجاز العلمي

في العصر الحديث - بخلاف الإعجاز التشريعي السابق - شهد الاهتمام بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم نهضة ملحوظة؛ فقد انكب العلماء والباحثون على دراسة الآيات ذات المضامين العلمية، مما أثمر عن فيض من الدراسات والبحوث والمؤلفات في هذا المجال. وقد برز في هذا الميدان علماء كبار، منهم المفسر الشهير طنطاوي جوهري صاحب تفسير "الجواهر في تفسير القرآن"، والشيخ محمد متولي الشعراوي، والشيخ عبد المجيد الزنداني وهذا الأخير يُعدُّ أحد أبرز العلماء المعاصرين الذين حاولوا البرهنة على ريادة القرآن في مجال الاكتشافات العلمية كالطب، وخلق

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١، ص١٨٢.

الإنسان، ونحو ذلك. وغيرهم من العلماء ممن أثروا هذا الحقل بإسهاماتهم القيمة.

بلغ الاهتمام بهذا الوجه من الإعجاز حدًا دفع إلى تأسيس هيئات متخصصة، كـ"هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة" في المملكة العربية السعودية، مما يعكس عمق الاهتمام وجديته في الأوساط العلمية والأكاديمية.

ويرى بعض العلماء أن الإعجاز العلمي أهم وجوه الإعجاز القرآني الأخرى. ولعل مرّد ذلك إلى تراجع المستوى البياني والبلاغي لدى كثير من العرب المعاصرين، مما جعل تذوق الإعجاز البياني وإدراك مظاهره في النص القرآني أمرًا يصعب على الكثيرين. مضافاً إلى ذلك صعوبة فهم غير الناطقين بالعربية لدقائق اللغة، ومن ثم عجزهم عن إدراك أسرار الإعجاز البياني، الذي يتطلب فهمه ثقافة بلاغية وبيانية عميقة. أو لكونه وسيلة باتت ضرورة ملحة في وقتنا المعاصر المتسم بالتقدم العلمي، في إثبات صدق القرآن أمام التشكيك.

وعلى أي حال، أضحى الإعجاز العلمي باباً واسعاً لفهم عظمة القرآن الكريم وإعجازه، يسهل ولوجه على شريحة واسعة من الناس، عربًا وعجمًا، في عصر العلم والتكنولوجيا.

٤- أهمية دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم تكتسب أهمية بالغة، سواء على صعيد المعرفة والعلم، أم على صعيد الفرد وإيمانه من جهة أخرى.

فعلى المستوى المعرفي والعلمي، تسهم هذه الدراسات في تعزيز التكامل بين العلم والدين، مبرهنة على أن القرآن الكريم لا يتعارض مع العلم الحديث، بل يحث على التفكر والتدبر في الكون. كما تفتح آفاقًا بحثية جديدة، ملهمة العلماء لاستكشاف مجالات علمية مبتكرة. وتساعد في تطوير منهجية علمية دقيقة تتوافق مع الضوابط الشرعية والعلمية، مع إثراء الدراسات البينية التي تربط بين العلوم الشرعية

والطبيعية.

أما على صعيد الفرد وإيمانه، فإن دراسة الإعجاز العلمي تلعب دورًا محوريًا في تعميق الإيمان، إذ يزداد المرء يقينًا عندما يشهد توافق الحقائق العلمية مع ما ورد في القرآن الكريم. وهي تحفز على التفكر في آيات الله الكونية، مما يزيد من معرفة الإنسان بخالقه وعظمته. كما تعزز ثقة المسلم بكتابه، مؤكدة على صدق القرآن وأنه وحي من عند الله. وتقدم حججاً قوية في الدعوة إلى الإسلام، مساعدة في إقناع غير المسلمين بصدق الرسالة المحمدية.

علاوة على ذلك، فإن هذه الدراسات تشجع المسلمين على الاهتمام بالعلوم الطبيعية والتفوق فيها، وتربط الدين بالحياة اليومية، مظهرة شمولية الإسلام واهتمامه بكافة جوانب الحياة، بما فيها العلم والمعرفة. كما تفتح آفاقًا جديدة لفهم النص القرآني في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة، مما يجدد فهم المسلمين لكتابهم العزيز.

إن هذه الأهمية متعددة الأبعاد تجعل من دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم مجالًا خصباً للبحث والدراسة، يعود بالنفع الجم على الفرد والمجتمع، ويسهم بشكل فعال في تعزيز مكانة الإسلام في العصر الحديث، مبرزًا قدرته على مواكبة التطور العلمي والتكنولوجي دون أن يفقد جوهره الروحي والأخلاقي.

ثانيًا: خصائص الإعجاز العلمي في القرآن

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم يتميز بمجموعة من الخصائص الفريدة التي تميزه عن غيره من أوجه الإعجاز، ويمكننا أن نستنتج بعض المميزات لهذا الإعجاز من خلال رصد الآيات الدالة على الإعجاز والتأمل فيها:

١- يتسم الإعجاز العلمي بالشمولية والتنوع، حيث يغطي مجالات علمية متعددة كالفلك، والطب، وعلم الأجنة، والجيولوجيا، وغيرها. هذا التنوع يعكس الطبيعة

الشاملة للقرآن كمصدر للمعرفة في شتى المجالات.

٢- يتميز بالدقة والموضوعية، فالإشارات العلمية في القرآن تتوافق تماماً مع الحقائق الكونية والأسرار العلمية المكتشفة حديثًا. كما أنه يخلو من التناقضات أو الأخطاء العلمية، فلا يوجد تعارض بين نصوص الوحي الواصفة للكون وأسراره وبين الحقائق العلمية المكتشفة، مما يؤكد على مصدرها الإلهي[١].

٣- يتصف بالسبق الزمني، حيث أشار القرآن إلى حقائق علمية قبل اكتشافها بقرون، في زمن لم تكن فيه الوسائل العلمية متطورة بما يكفي لإدراك هذه الحقائق.

٤- يتميز بالإيجاز في إشاراته العلمية من دون التفصيل المفرط. فالقرآن لم يأتِ ككتاب علمي، بل قدم تلميحات علمية دقيقة بأسلوب بلاغي راقٍ.

٥- يتسم بالتوافق مع الفطرة الإنسانية والعقل السليم، فالإعجاز العلمي في القرآن يخاطب العقل ويحفز على التفكر والتدبر في الكون.

٦- يتميز بالاستمرارية والتجدد، فكلما تقدّم العلم، ظهرت أوجهٌ جديدةٌ للإعجاز العلمي في القرآن، مما يجعله معجزة متجددة عبر العصور.

٧- يتصف بقابليته للتكامل مع باقي أوجه الإعجاز القرآني، كالإعجاز اللغوي والتشريعي، مشكلًا نسيجًا متكاملًا يؤكد على إعجاز كلّ القرآن الكريم.

٨- يتميز بقابلية إشاراته العلمية للتحقق والاختبار العلمي، مما يجعله موضوعًا للدراسة والبحث المستمر.

٩- يتميز بقدرته على تصحيح الأفكار الباطلة التي شاعت بين البشر حول أسرار الكون، مما يدل على مصدره الإلهي.

١٠- التكامل في نصوص الآيات الدالة على الإعجاز، وهذه الميزة تظهر لمن

(١) انظر: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن، الزنداني، ص٢٧-٢٨.

يتتبع تلك الإشارات العلمية، فلا تظهر الحقيقة جلية ما لم يتم رصد جمع النصوص القرآنية العلمية المتفرقة، عندئذ يكمل بعضها بعضاً فتنكشف الحقيقة الكاملة.

هذه الخصائص مجتمعة تجعل من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ظاهرة فريدة تستحق الدراسة والتأمل، وتقدم دليلًا قويًا على مصدره الإلهي وصلاحيته لكل زمان ومكان.

ثالثًا: ضوابط للقول بالإعجاز العلمي

أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتفسير العلمي للآيات القرآنية الكونية. ومن هنا تؤول الأبحاث في مجال الإعجاز العلمي إلى كونه فرعاً من فروع تفسير القرآن، فهي متصلة بشكل مباشر بعلم التفسير وقواعده الأساسية.

ومن جانب آخر، تعتمد هذه الأبحاث على المعارف العلمية الحديثة، بما تشمله من نظريات وحقائق كونية مكتشفة. وجوهر الإعجاز العلمي يكمن في إظهار التوافق بين ما جاء في النص القرآني - الذي نزل به الوحي - وبين ما توصل إليه العلم الحديث من حقائق علمية ثابتة.

نظرًا لهذه الطبيعة الثنائية لأبحاث الإعجاز العلمي، التي تجمع بين النص القرآني والاكتشاف العلمي، فإنه من الضروري أن تخضع هذه الأبحاث لمجموعة دقيقة من الضوابط والقواعد، هذه الضوابط تهدف إلى ضمان الدقة العلمية والأمانة في التفسير، مع الحفاظ على قدسية النص القرآني وعدم تحميله ما لا يحتمل.

وهذه القواعد تلعب دورًا حاسمًا في توجيه الباحثين في مجال الإعجاز العلمي، حيث تساعدهم على تجنب الزلل في التفسير أو المبالغة في ادعاء الإعجاز، كما أنها تضمن أن تكون نتائج هذه الأبحاث رصينة وموثوقة ومقبولة من الناحيتين الدينية والعلمية على حد سواء، ومن هذه القواعد والضوابط:

١. الاعتقاد الراسخ بأن القرآن كتاب هداية في المقام الأول، وليس كتاباً للعلوم والكونيات. هذا الفهم يضع الإعجاز العلمي في سياقه الصحيح كأحد جوانب إعجاز القرآن، دون المبالغة في أهميته.

٢. التوازن في النظر إلى الآيات الكونية، بعيداً عن الإفراط أو التفريط. هذا يعني تجنب التكلف في التفسير أو محاولة تسخير النصوص مهما يكن، كما يعني عدم إهمال الإشارات العلمية الواضحة.

٣. الاعتماد على الحقائق العلمية الثابتة والمؤكدة، وتجنب الاستدلال بالنظريات أو الفرضيات العلمية غير المثبتة. هذا يضمن مصداقية التفسير العلمي ويحميه من التغيرات المستمرة في النظريات العلمية.

٤. فهم مرونة الأسلوب القرآني في التعبير عن المضامين العلمية. هذا يتطلب الالتزام بقواعد اللغة العربية وأساليبها، مع الانفتاح على احتمالات التأويل المختلفة التي تتفق مع السياق.

٥. عدم حصر دلالة الآيات على حقيقة علمية واحدة، بل إبقاء الدلالة مفتوحة لتشمل كلّ ما يتوافق مع معناها. هذا يعكس شمولية القرآن وصلاحيته لكل زمان ومكان.

٦. اليقين باستحالة التعارض بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية الثابتة. هذا الإيمان يدفعنا للبحث عن التوافق الحقيقي دون تكلف.

٧. مراعاة السياق الكامل للآيات وعدم اقتطاعها، مع الرجوع إلى التفاسير المعتمدة وفهم العلماء السابقين.

٨. الحرص على عدم التعارض مع الثوابت الشرعية والعقائد الإسلامية الراسخة عند تقديم أي تفسير علمي.

٩. التحلي بالمرونة والانفتاح على إمكانية تطور الفهم العلمي للآيات مع تقدم

العلم، مع الحفاظ على ثبات النص القرآني.

١٠. الحذر من الإسراف في ادعاء الإعجاز العلمي في كلّ آية، والتركيز على الإشارات العلمية الواضحة والمتوافقة مع المعايير المذكورة.

هذه الضوابط والقواعد تهدف إلى تحقيق فهم متوازن وعميق للإعجاز العلمي في القرآن، يجمع بين الأمانة العلمية والاحترام لقدسية النص القرآني، مع الحفاظ على الهدف الأساسي للقرآن كمصدر للهداية والإرشاد[١].

رابعاً: نماذج متنوعة من الإعجاز العلمي في القرآن

يشتمل القرآن الكريم على ما يقارب سبعمائة وخمسين آية وقيل أكثر من ذلك بكثير، تتناول هذه الآيات موضوعات علمية متنوعة، بعضها يشير إلى حقائق علمية بشكل عام، وبعضها الآخر يدخل في تفاصيل دقيقة. هذه الآيات تشكل جانباً مهماً من جوانب الإعجاز القرآني الذي تجلى بوضوح في العصر الحديث. وسوف نقتصر على عدد قليل من ذلك بغية توضيح هذا النحو من الإعجاز.

وفيما يلي بعض الأمثلة المتنوعة التي تنسجم مع ذكرناه من تعريف الإعجاز العلمي، وهو ضعف البشر أن يأتوا بمثل هذه المعارف في زمن النبوة، وهذا يعمق صدق القرآن:

١. نشأة الكون، في قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾[٢].

وتوضيح ذلك: إن كلمة "رتقاً" تعني الالتحام والاتصال، بينما "فتقناهما" تشير إلى الفصل والانفصال. هذا يتوافق بشكل ملحوظ مع نظرية الانفجار العظيم التي

---

(٢) انظر: ما كتبه الزنداني في تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن، ص٢٥-٢٦. وانظر: ما كتبه مصطفى مسلم في مباحث في إعجاز القرآن، ص١٦٠ وما عبدها.

(١) الأنبياء: ٣٠.

تفترض أن الكون بدأ من نقطة فائقة الكثافة والحرارة (تمثل حالة الرتق)، ثم انفجرت وتمددت (حالة الفتق) لتشكل الكون كما نعرفه. هذه الإشارة القرآنية تسبق الاكتشافات العلمية الحديثة بقرون عديدة.

٢. الدخان الكوني، في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾[١].

وتوضيح ذلك: لقد وصف القرآن لمرحلة من مراحل نشوء الكون بأنها مرحلة "دخان" وهذا يتطابق مع ما توصل إليه علماء الفلك حديثاً، بعد الانفجار العظيم، قد مرّ الكون بمرحلة كان فيها عبارة عن سحابة من الغازات والغبار الكوني، تشبه في طبيعتها وشكلها الدخان. هذه المرحلة كانت أساسية ومهمة في تشكيل النجوم والمجرات[٢].

٣. التمييز بين الضوء والنور، في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا**﴾[٣].

وتوضيح ذلك: يميز القرآن بدقة بين مصدري الضوء: الشمس والقمر، فإن كلمة "ضياء" تشير إلى الضوء المنبعث ذاتياً، وهو ما ينطبق على الشمس التي تنتج الضوء من خلال التفاعلات النووية. أما كلمة "نور" فتستخدم للضوء المنعكس، وهو ما ينطبق على القمر الذي يعكس ضوء الشمس، هذا التمييز الدقيق لم يكن معروفاً في زمن نزول القرآن[٤].

٤. توسع الكون، في قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾[٥].

وتوضيح ذلك: كلمة "لموسعون" تشير إلى عملية مستمرة من التوسع، وهذا

---

(٢) فصلت: ١١.

(٣) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، ص١٦٦.

(٤) يونس: ٥.

(٥) انظر: المصدر السابق، ص١٨١.

(٦) الذاريات: ٤٧.

يتوافق مع اكتشاف إدوين هابل(١) في عام ١٩٢٩م، من أن المجرات تبتعد عن بعضها البعض، مما يدل على توسع الكون. هذه الحقيقة العلمية لم تكن معروفة قبل القرن العشرين، مما يجعل الإشارة القرآنية إليها أمراً مثيراً للاهتمام(٢).

٥. مراحل تكوين الجنين، في قوله تعالى: **﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾**(٣).

وتوضيح ذلك: تصف هذه الآية مراحل تطور الجنين بدقة متناهية:

- النطفة: الحيوان المنوي والبويضة
- العلقة: تشبه شكل العلق (الدودة)، وهي مرحلة تعلق الجنين بجدار الرحم
- المضغة: تشبه قطعة اللحم الممضوغة، وهي مرحلة تكون الكتل البدنية
- العظام: تكون الهيكل العظمي
- كسوة العظام باللحم: تكون العضلات حول العظام

وهذا الوصف الدقيق يتطابق مع ما اكتشفه علم الأجنة الحديث، رغم أن هذه التفاصيل لم تكن معروفة في زمن نزول القرآن(٤).

٦. الجبال أوتاداً، في قوله تعالى: **﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾**(٥).

---

(٢) إدوين هابل هو عالم فلك أمريكي توفي ١٩٥٣م، وهو يُعدُّ أحد أهم علماء الفلك في القرن العشرين، وذلك بسبب إسهاماته الكبيرة في فهم الكون. في عام ١٩٢٩، قدم هابل اكتشافاً مهماً يُعرف باسم "قانون هابل"، الذي ينص على أن المجرات تتحرك بعيدًا عن الأرض، وكلما زادت المسافة بينها وبين الأرض، زادت سرعـة ابتعادها. هذا الاكتشاف كان مؤشرًا قويًا على أن الكون في حالة توسع.

(٣) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، ص١٧١.

(٤) المؤمنون: ١٤.

(٥) انظر: معجزة القرآن، الشعراوي، ج١، ص٩٣.

(٦) النبأ: ٧.

وتوضيح ذلك: اكتشف علماء الجيولوجيا أن الجبال لها جذور عميقة تمتد في القشرة الأرضية، تماماً مثل الوتد، وهذه الجذور تلعب دوراً مهماً في تثبيت القشرة الأرضية وتحقيق التوازن الجيولوجي. هذا التشبيه القرآني للجبال بالأوتاد يعكس حقيقة علمية لم تكتشف إلا في العصر الحديث(١).

٧. الحاجز بين البحرين، في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾(٢).

وتوضيح ذلك: اكتشف العلماء وجود حواجز مائية بين البحار والمحيطات، تسمى "منطقة التماس" أو "الجبهة". هذه المناطق تتميز بخصائص فيزيائية وكيميائية مختلفة عن المياه المحيطة بها، وتعمل على الحفاظ على خصائص كلّ بحر أو محيط، ومثال على ذلك: الحاجز بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي عند مضيق جبل طارق(٣).

٨- الأرض تدور، في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾(٤).

وتوضيح ذلك: اكتشف علم الفلك دوران الأرض حول نفسها في القرن السابع عشر الميلادي، بينما القرآن تحدث عن ذلك بإشارة صريحة إلى أن الجبال تدور بمن عليها من مخلوقات(٥).

هذه الأمثلة وغيرها تبرز التوافق الملحوظ بين ما ورد في القرآن الكريم وما توصل إليه العلم الحديث. ومع ذلك، من المهم التعامل مع هذه الإشارات العلمية

---

(٢) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي، النابلسي، ج٢، ص٦٢-٦٣.
(٣) الرحمن: ١٩-٢٠.
(٤) انظر: المصدر السابق، ج٢، ص٩٩.
(٥) النمل: ٨٨.
(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي، يوسف الحاج أحمد، ص٢٠٩.

بحذر وموضوعية، مع مراعاة الضوابط المذكورة سابقاً في دراسة الإعجاز العلمي، وتذكر أن الهدف الأساسي للقرآن هو الهداية والإرشاد.

خامساً: تحدّيات تواجه الإعجاز العلمي

ثمة مجموعة من التحديات والإشكالات تواجه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وهذا الإشكالات تؤول إلى عدم مراعاة ما ذكرنا من ضوابط للخوض في هذا النحو من الإعجاز، ومن هنا فكل الشبهات المثارة تتضاءل مع ملاحظة هذه الأمور:

١-القرآن ليس كتاباً علمياً تخصصياً مثل كتابي الكيمياء أو الفيزياء، ومن يعتقد كذلك فهو قد أخطأ في فهم وظيفة القرآن ومجاله.

فإن مجال القرآن هو النفس الإنسانية، ووظيفته هو أن ينشئ للإنسان تصوراً عاماً للوجود الإنساني وارتباطه بالله، ومادة القرآن الأساسية هي ذات الإنسان، وقد تُرك الإبداعُ العلمي لعقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وفروضه ونظرياته.

٢-لا ينبغي تحميل القرآن أكثر مما يحتمل فلا يجوز أن نتخذ العلم دليلاً على صحة القرآن؛ فالقران ليس كتاب علم فلك أو علم هندسة، بل القرآن هو الدليل الحقيقي على صحة أو عدم صحة العلم، فالعلم الذي يتناقض مع القرآن الكريم هو علم كاذب وغير صحيح.

ومن هنا يكون ربط القرآن بنظريات العلم عملية خطيرة جداً، لأنه يجعل موقف المفسر في حرج، فعندما يثبت خطا النظرية فلا يمكنه تغيير كلام الله، فيقع في حرج شديد.

٣-النظريات العلمية تتغير دائماً، فإن هناك فرقاً بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية، النظرية العلمية: هي مجرد افتراض وقد قامت عليه شواهد وبراهين، ولكن ليس حقيقة مطلقة وثابتة في جميع الأمكنة والأزمنة. فقد تنقض غداً بشاهد أو

ببرهان آخر، ولهذا يقول بعض العلماء المعاصرين (كارل بوبر) إن النظرية كي تكون علمية لا بد أن تكون قابلة للتكذيب، أي أنها غير صادقة مطلقاً وإلا لو صدقت مطلقاً لأصبحت غير علمية، بل تكون قضية غيبية ما ورائية.

أما الحقيقة العلمية، فهي مرحلة بعد النظرية العلمية، فقد تتحول إلى حقيقة علمية لا ينتابها شك أبداً. كما هو الحال في قضية دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، أو أن التدخين من أسباب مرض السرطان، وهذه الحقيقة لن تتغير النتائج فيها مهما تقدم العلم ومكتشفاته ومعارفه.

أو كما في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (١) وقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢) فهو يقرر أن الله خلق كلّ شيء حي من الخلية حتى الإنسان من زوجين اثنين على أساس النظام الزوجي. فالزوجية حقيقة علمية بدهية يمكن لنا أن نستعين بها لتفسير الآيات القرآنية التي تقررها وتثبيتها.

ومن هنا لا يجوز تفسير الآيات التي تحمل إشارات علمية بالنظريات العلمية التي قد تخطأ في يوم من الأيام. كما في تفسير بعض المفسرين: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (٣). فزعموا أن الأرض هي مركز الكون وأنها ثابتة وان الشمس تابعة لها تجري حولها، وهي نظرية أثبتت خطأها فيما بعد.

أو تفسيرهم: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٤) إن القرآن يقرر وجود مخلوقات وأحياء مثلنا في الكواكب الأخرى وإننا يمكن أن نجتمع بالحضارات المتقدمة جدا على

---

(٢) النبأ: ٨.
(٣) الذاريات: ٤٩.
(٤) يس: ٣٨-٣٩.
(٨) الشورى: ٢٩.

الكواكب الأخرى، لأنه تعالى يقول: "وهو على جمعهم.." فكل هذه فرضية علمية وليست حقيقة علمية، ولا يوجد دليل يورث العلم واليقين عليها. وهذا إفراط في التفسير العلمي وهو تحريف معاني الآيات القرآنية وتلاعب فيها.

نكتفي بهذا المقدار من البحث في الإعجاز القرآني، ونسأل الله تعالى التوفيق والهداية وحسن العاقبة.

مصادر الكتاب

* **القرآن الكريم**

١. ابن سنان الخفاجي، عبد الله بن محمد، **سرّ الفصاحة**، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٢هـ.

٢. ابن الأثير الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد، **النهاية في غريب الحديث**، تحقيق طاهر الزاوي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ.

٣. ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة.

٤. ابن الشجري، هبة الله بن علي، **أمالي ابن الشجري**، تحقيق محمود الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩١م.

٥. ابن النديم، محمد بن إسحاق بن محمد، **الفهرست**، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بروت، ط٢، ١٤١٧هـ.

٦. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، دار العاصمة، السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ.

٧. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **النبوات**، أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ.

٨. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة، ط ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م.

٩. ابن جني، عثمان بن جني، **اللمع في العربية**، تحقيق فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت.

١٠. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، **لسان الميزان**، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، ط٢، ١٣٩٠هـ.

١١. ابن حزم الظاهري، أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، مكتبة الخانجي ـ القاهرة.

١٢. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، **تاريخ ابن خلدون**، مراجعة سهيل

زكار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ.
١٣. ابن سنان الخفاجي، عبد الله بن محمد، **سر الفصاحة تصحيح وتعليق عبد المتعال الصعيدي**، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، ط ١٩٥٢م.
١٤. ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد، **العقد الفريد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.
١٥. ابن عطية، عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (تفسير ابن عطية)**، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
١٦. ابن فارس، أحمد، **مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط ١٣٩٩هـ.
١٧. ابن كثير، إسماعيل، **البداية والنهاية**، دار ابن كثير، دمشق، وبيروت، ط٣، ١٤٣٤هـ.
١٨. ابن مالك، محمد بن عبد الله، **شرح الكافية الشافية**، تحقيق عبد المنعم هريدي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
١٩. ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
٢٠. ابن نبي، مالك بن الحاج عمر، **الظاهرة القرآنية**، دار الفكر، دمشق، ط٤، ١٤٢٠هـ.
٢١. ابن هشام، عبد الملك بن هشام، **سيرة ابن هشام**، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مكتبة مصطفى البابي وأولاده، مصر، ط٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
٢٢. أبو القاسم البلخي، القاضي عبد الجبار، الحاكم الجشمي، **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**، إعداد أيمن فؤاد، المعهد الألماني للأبحاث، بيروت، ١٤٣٩هـ.
٢٣. أبو زهرة، محمد بن أحمد، **المعجزة الكبرى**، دار الفكر العربي.
٢٤. أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، **الصناعتين الكتابة والشعر**، المكتبة

العصرية، بيروت، ط ١٤١٩هـ.
٢٥. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، **تهذيب اللغة**، تحقيق محمد عوض، دار إحياء التراث العربي، ط١.
٢٦. الاستراباذي، رضي الدين، **شرح الرضي على الكافية**، تصحيح يوسف حسن عمر، مؤسسة الصادق، طهران، ١٩٧٥م.
٢٧. الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تحقيق نعيم زرزور، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٦هـ.
٢٨. الآلوسي، محمود بن عبد الله، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم (تفسير الآلوسي)**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.
٢٩. الآمدي، الحسن بن بشر، **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٩٤م.
٣٠. الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد، **أسرار العربية**، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.
٣١. الإيجي، عبد الرحمن بن أحمد، **المواقف**، تحقيق؛ عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.
٣٢. الباقلاني، محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن**، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٩٧م.
٣٣. البحراني، ابن ميثم، قواعد المرام في علم الكلام، تحقيق سيد أحمد حسيني، مكتبة المرعشي النجفي، قم، ط٢، ١٤٠٦ هـ.
٣٤. البخاري، عبد العزيز بن أحمد، **كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي**، شركة الصحافة العثمانية، إسطنبول، ط١، ١٣٠٨هـ.
٣٥. البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، ودار اليمامة، دمشق، ط٥، ١٤١٤هـ.
٣٦. بدوي، أحمد أحمد عبد الله، **من بلاغة القرآن**، نهضة مصر، القاهرة.

٣٧. البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، **الفَرقُ بين الفِرق**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.
٣٨. بوكاي، موريس، **القرآن والتوراة والإنجيل والعلم**، ترجمة الشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤١١هـ.
٣٩. البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.
٤٠. البيضاوي، ناصر الدين عبد الله، **تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
٤١. التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر، **شرح المقاصد في علم الكلام**، دار المعارف النعمانية، باكستان، ط١، ١٤٠١هـ.
٤٢. الجاحظ، عمر بن بحر، **رسائل الجاحظ**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١٣٨٤هـ.
٤٣. الجاحظ، عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.
٤٤. الجاحظ، عمرو بن بحر، **الحيوان**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.
٤٥. الجرجاني، عبد القاهر، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ.
٤٦. الجرجاني، علي بن محمد، **التعريفات**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.
٤٧. الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ.
٤٨. الجويني، عبد الملك ابن عبد الله، **العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية**، تحقيق محمد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، ط ١٤١٢هـ.

٤٩. الحاكم النيسابوري، **المستدرك**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٤٠٩ هـ.
٥٠. حبنكة، عبد الرحمن بن حسن، **البلاغة العربية**، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٥١. الحمصي، نعيم، **فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ.
٥٢. الحموي، ياقوت بن عبد الله، **معجم الأدباء**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.
٥٣. الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **البيان في إعجاز القرآن**، دار عمار، عمان.
٥٤. الخطابي، حمد بن محمد، **بيان إعجاز القرآن**، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦م.
٥٥. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، **تاريخ بغداد**، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
٥٦. الخطيب، عبد الكريم، **إعجاز القرآن في دراسات السابقين**، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٧٤م.
٥٧. الخولي، أمين، **مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب**، دار المعرفة، ط١، ١٩٦١م.
٥٨. الخوئي، أبو القاسم بن علي أكبر، **البيان في تفسير القرآن**، دار الزهراء، بيروت، ط٤، ١٣٩٥هـ.
٥٩. الخوئي، أبو القاسم بن علي أكبر، **صراط النجاة تعليق الميرزا التبريزي**، مطبعة سلمان الفارسي، ط١، ١٤١٦هـ.
٦٠. دراز، محمد بن عبد الله، **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم**، دار القلم للنشر، ط ١٤٢٦هـ.
٦١. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣هـ.

٦٢. الذهبي، محمد حسين، **التفسير والمفسرون**، مكتبة وهبة، القاهرة.
٦٣. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، **تفسير الراغب الأصفهاني**، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط١، ١٤٢٠هـ.
٦٤. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
٦٥. الرافعي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨، ١٤٢٥هـ. وطبعة المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤هـ.
٦٦. الرافعي، مصطفى صادق، **تاريخ آداب العرب**، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٣٩٤هـ.
٦٧. الرماني، علي بن عيسى، **النكت في إعجاز القرآن**، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦م.
٦٨. الزرقا، مصطفى أحمد، **المدخل الفقهي العام**، تقديم عبد القادر عودة، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٨هـ.
٦٩. الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط٣.
٧٠. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.
٧١. الزركلي، خير الدين بن محمود الدمشقي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.
٧٢. الزمخشري، محمود بن عمرو، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٧٣. الزملكاني، عبد الواحد بن عبد الكريم، **البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن**، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٩٧٤م.
٧٤. الزنداني، عبد المجيد، **تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، المكتبة

العصرية، بيروت.
٧٥. السامرائي، فاضل صالح، **التعبير القرآني**، دار عمار، عمان، ط٤، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
٧٦. السامرائي، فاضل صالح، **معاني النحو**، دار الفكر، الأردن، ط١، ١٤٢٠هـ.
٧٧. السبحاني، جعفر، **رسائل ومقالات**، مؤسسة الإمام الصادق ـ قم.
٧٨. السفاريني، محمد بن أحمد، **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**، مؤسسة الخافقين، دمشق، ط٢، ١٤٠٢هـ.
٧٩. السكاكي، يوسف بن أبي بكر، **مفتاح العلوم**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ.
٨٠. سيد قطب، إبراهيم حسين، **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، القاهرة، ط ١٦، ١٤٢٣هـ.
٨١. سيد قطب، إبراهيم حسين، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.
٨٢. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤ ١٣٩٤هـ.
٨٣. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، **معترك الأقران**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.
٨٤. الشعراوي، محمد متولي، **معجزة القرآن**، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ.
٨٥. شفيع السيد، التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية، مكتبة الشباب، مصر.
٨٦. الشهاب الخفاجي، أحمد بن محمد، **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي)**، دار صادر، بيروت.
٨٧. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، **الملل والنحل**، مؤسسة الحلبي.

٨٨. الشوكاني، محمد بن علي، **فتح القدير**، دار ابن كثير ودار الكلم، دمشق وبيروت، ط١، ١٤١٤هـ.
٨٩. صحيفة نور، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، طهران، ط٤، ١٤٢٨هـ.
٩٠. الصدر، محمد باقر، **المدرسة الإسلامية**، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، ط١، ١٤٢١ هـ.
٩١. الطباطبائي، محمد حسين، **الميزان في تفسير القرآن (تفسير الميزان)**، جماعة المدرسين، قم.
٩٢. الطبرسي، فضل بن الحسن، **تفسير مجمع البيان**، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.
٩٣. الطبري، علي بن ربن، **الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد**، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ.
٩٤. الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)**، تحقيق عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ.
٩٥. طنطاوي جوهري، **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، تصحيح محمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.
٩٦. الطوسي، محمد بن الحسن، **الاقتصاد**، مكتبة جامع جهلستون، طهران.
٩٧. الطوسي، محمد بن الحسن، **الفهرست**، مؤسسة نشر الفقاهة، ط١، ١٤١٧هـ.
٩٨. عباس حسن، **النحو الوافي**، دار المعارف، ط١٥.
٩٩. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، **الفروق اللغوية**، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة.
١٠٠. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت.
١٠١. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **الاقتصاد في الاعتقاد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.

١٠٢. الفخر الرازي، محمد بن عمر، **التفسير الكبير (تفسير الفخر الرازي)**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
١٠٣. الفخر الرازي، محمد بن عمر، **محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين**، مراجعة طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
١٠٤. الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين، **العدة في أصول الفقه**، تحقيق أحمد المباركي، ط٢، ١٤١٠ هـ.
١٠٥. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، **كتاب العين**، تحقيق، المخزومي والسامرائي.
١٠٦. فياض، محمد جابر، **البلاغة والفصاحة لغة واصطلاحاً**، دار المنارة، السعودية، ط١، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.
١٠٧. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
١٠٨. القاضي عبد الجبار، عبد الجبار بن أحمد، **المغني في أبواب التوحيد والعدل**، تقويم النص، أمين الخولي (بلا بيانات).
١٠٩. القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، دار الفكر، بيروت، طبعة عام ١٤٠٩هـ.
١١٠. القرضاوي، يوسف، **مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٤ هـ.
١١١. القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**، دار الكتب المصري، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤، ١٩٦٤م.
١١٢. القزويني، محمد بن عبد الرحمن، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق محمد خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣.
١١٣. القطان، مناع بن خليل، **مباحث في علوم القرآن**، مكتبة المعارف، ط٣، ١٤٢١هـ.
١١٤. القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر**، دار الجيل، ط٥،

١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
١١٥. لاشين، عبد الفتاح، **البيان في ضوء أساليب القرآن**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ١٨ ١٤١- ١٩٩٨م.
١١٦. الماوردي، علي بن محمد، **أعلام النبوة**، دار ومكتبة اهلال، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.
١١٧. مجلة فصول النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتّاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
١١٨. مجلة كتّاب نقد، مؤسسة الثقافة والفكر الإسلامي، قم، ١٣٧٦هـ ش.
١١٩. مجلة كيان، مجموعة من الشخصيات الفكرية، طهران، ١٣٧٤هـ ش.
١٢٠. المجلسي، محمد باقر، **بحار الأنوار**، دار إحياء التراث، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ.
١٢١. محمد رشيد رضا، ابن علي رضا، **تفسير المنار**، الهيئة المصرية العامة للكتّاب، ط ١٩٩٠م.
١٢٢. محمد عبده، **رسالة التوحيد**، تقديم محمد عمارة، دار الشروق، ط١، ١٤١٤هـ.
١٢٣. محمد واصل، نصر فريد، **المدخل الوسيط لدراسة الشريعة الإسلامية والفقه والتشريع**، المكتبة التوفيقية، ط٢.
١٢٤. محمود محمد شاكر، **مداخل إعجاز القرآن**، مطبعة ودار المدني، مصر وجدّة.
١٢٥. المرتضى، علي بن الحسين، **الذخيرة في علم الكلام**، تحقيق أحمد الحسيني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط ١٤١١هـ.
١٢٦. المرتضى، علي بن الحسين، **الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة)**، مؤسسة مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، مؤسسة دار الحديث، قم، ط١، ١٤٤١هـ.
١٢٧. مسلم، مصطفى، **مباحث في إعجاز القرآن**، دار القلم، دمشق، ط٣، ٢٠٠٥م.
١٢٨. معرفة، محمد هادي، **التمهيد في علوم القرآن**، دار التعارف للمطبوعات،

بيروت، ط ١٤٣٢هـ.

١٢٩. معرفة، هادي، **تلخيص التمهيد**، مؤسسة التمهيد، قم، ط٢، ١٤٣٣هـ.

١٣٠. المفيد، محمد النعمان، **النكت الاعتقادية**، دار المفيد للنشر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

١٣١. المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، **أوائل المقالات**، دار المفيد، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.

١٣٢. المؤيد العلوي، يحيى بن حمزة، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

١٣٣. النابلسي، محمد راتب، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، دار المكتبي، دمشق، ط٢، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

١٣٤. نصير الدين الطوسي، محمد بن محمد بن الحسن، **تلخيص المحصل**، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٤٠٥ هـ.

١٣٥. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.

١٣٦. الهاشمي، أحمد بن إبراهيم، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، المكتبة العصرية، بيروت.

١٣٧. يوسف الحاج أحمد، **موسوعة الإعجاز في القرآن والسنة المطهرة**، مكتبة ابن حجر، ط٢، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.